

الوعظ القصصي

الوعظ القصصي

والوعظ الكاذب ومقالات أخرى

تأليف
كامل كيلاني



الوعظ القصصي

كامل كيلاني

رقم إيداع / ٢٠١٢ / ١٦٨٣٥
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٠٣١ ٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ فاكس: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي
للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

| | |
|-----|-------------------------------------|
| ٧ | الإهداء |
| ٩ | تحية |
| ١١ | الوعظ القصصي |
| ٢١ | الوعظ الكاذب |
| ٢٥ | الباز واللقلق |
| ٢٧ | ابن الرومي |
| ٣٣ | ما رأيك؟ |
| ٣٥ | أبو العلاء المعربي في لزومياته |
| ٤١ | ظلي |
| ٤٣ | الخسوف والكسوف |
| ٥١ | آلام الفقير |
| ٥٥ | فن الكتابة أو كيف ندرس فن الإنشاء |
| ٧١ | في العام السادس |
| ٧٣ | جحيم دانتي وقصة «الكوميديا الإلهية» |
| ٧٧ | نظارات في تاريخ الإسلام |
| ١١٩ | هل يشبهك ابنك؟ |
| ١٢٥ | آخرة العالم كيف تكون ...؟ |
| ١٣٣ | مناظرة الكسائي وسيبويه |
| ١٤٣ | في بلاد العمالقة |
| ١٥١ | مفتاح القراءة |

الوعظ القصصي

| | |
|-----|---|
| ١٥٣ | رسالة الغفران |
| ١٦٣ | حقائق يجهلها الأطباء عن الغذاء |
| ١٦٧ | الشعراء المعاصرون: أبو شادي |
| ١٨٧ | مذكرات عجائبي |
| ١٩٧ | الطيرة والتشاؤم بين المغربي وابن الرومي |
| ٢٠٧ | الدين في إسبانيا |

الإهداء



والدي البار الشيخ كيلاني إبراهيم: رأيتك — منذ حادثتي — تقرأ الكتاب وتتخرذه صاحبًا ورفيقًا؛ فحببني ذلك في الكتاب وما زلت أحبه إلى اليوم. ولقد طالما سلَكتُ في تأديبي طريق الوعظ القصصي؛ فكنت أول من حَبَّ إلى هذه الفكرة، وكان لك الفضل الأول في أخذني بهذا الأسلوب، وتمكينه من نفسي، وكنت نِعْمَ القدوة لابنك في تربية ولده مصطفى، وأخويه.

الوعظ القصصي

ولقد تفضلت يا والدي العطوف فَشَرَّفْتَ ولدك بسماع هاتين المحاضرتين كما
تفضلت بقراءة بقية المقالات المنشورة بهذا الكتاب وأظهرت لي رضاك عنها
فكان ذلك أكبر مشجع لي على إهدائكم هذا الكتاب — وهو ثمرة من ثمار غرسك
— فإذا رأَقْتَ منه فكرة طريفة فإنما يرجع فضلها إليك، وإنني بهذا الرضى
لسعيد.

كامل كيلاني

تحية

إلى صديقي الأستاذ النابغة كامل أفندي كيلاني:

سَتَ بِقْلٍ وَهَبْتُهُ صَفْوَ قَلْبَكَ
ءَ فَهَلْ لِي سُوِّي مُجَارَةً حُبَكَ
كَغْنَاءِ الْخَضِيَاءِ وَالْطِينِ عَنَا
صَافُ يَغْنَى بِطَيْعَهِ حِينَ يَغْنَى
لَوْفَاءِ لَعِشْتَ سَيِّدَ خَلْقَ
مِنْ نُبُوغٍ إِلَى مَكَارِمِ خُلُقَ
كَتَوَالِي الْأَعْبَاءِ تَهْذِيبَ جِيلَ
رِلِّمَا قَدْ وَهَبْتُهُ مِنْ جَمِيلٍ
كَ وَأَمْثَالُهُمْ مَنَالَ الْجُحُودِ
بَأْ بِمَا قَالَهُ شِيوُخُ الْقُرُودِ!

يَا صَدِيقِي الْعَزِيزِ «كَامِل» حُبِّي
لَيْسَ أَسْمَى مِنَ الْمَحَبَّةِ إِهْدَا
وَأَرَاكَ الْغَنِيَّ عنْ كُلِّ شُكْرٍ
إِنَّ مَنْ طَبَعَهُ الْمَحَبَّةُ وَالْإِنْ
وَلَوْ اخْتَرْتَ فِي اكْتِفَاءٍ مِثَالًاً
فَإِنَّ ذَاكَ الَّذِي أَضَافَ كَمَالًاً
وَتَحَمَّلْتَ فِي سِنِينِ تَوَالَتْ
وَاتَّخَذْتَ التَّوَاضُعَ الْحُلُوقَ كَالْسُّلْتَ
فَإِذَا أَنْكَرَ الْغَبِيُّونَ جَدْوًا
فَلَأَنْتَ الَّذِي تَسَامَى وَلَمْ يَغْ—

أبو شادي

الوعظ القصصي

قال لي صاحبي وهو يحاورني: «لقد نَكَبْتُنا وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ؛ حِينَ حَتَّمْتُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤَلِّفَ حُطَّبًا وَنُسْجِلُهَا فِي الدَّفَاتِرِ!»

قلت: «لقد أَسْدَتْ إِلَيْكُم مَعْرُوفًا أَيْ مَعْرُوفًا!»

قال: «أَفِي مَقْدُورِي أَنْ أَعْظَ وَأَنْ أَخْطُبْ؟»

قلت: «وَلَمْ لَ؟»

قال: «إِنِّي لَأَعْجَزُ عَنْ تَسْجِيعِ جُمِلَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ.»

قلت: «وَمَا شَاءْتُ هَذَا بِالْخَطَابَةِ؟»

قال: «وَكِيفَ تَكُونُ خَطَابَةً بِلَا سَجْعٍ؟»

قلت: «بِلِ كِيفِ يَكُونُ سَجْعٌ وَخَطَابَةٌ؟»

قال: «أَمْرُكَ عَجِيبٌ!»

قلت: «أَمْرُكَ أَعْجَبُ!»

قال: «دَعِ الْمِرَاحَ جَانِبًا وَخُذْ فِي الْحِدِّ»

قلت: «إِنِّي لَا أَمْرَحُ؛ إِلَّا إِذَا كُنْتُ تُسْمِي الصَّدْقِ مِرَاحًا، إِنَّكَ تَتَصَوَّرُ الْخَطَابَةَ تَصَوُّرًا فَاسِدًا خَاطِئًا، وَهَذَا التَّصَوُّرُ وَحْدَهُ هُوَ عِلْمٌ عَجِيزٌ عَنِ الْقِيَامِ بِهَا، إِنَّ الْوعْظَ أَيْسَرُ مَا تَطْنَبُ بِكَثِيرٍ.»

إن كل أمر بالمعروف، وكل نهي عن المنكر؛ هو وَعْظٌ له قيمته وخطره فإذا سِرْتَ في الطريق ورأيت حدثًا من الحوادث — خيرًا كان أو شرًا — فَقَصَصْتَهُ عَلَى سَامِعِيكَ مُثْنِيًا على جانب الخير مُنَذِّداً بالجانب المَرْدُولِ حَاثًا النَّاسَ عَلَى الاقتداء بالأول مُحَدِّداً إِيَاهُمْ مِنَ الْوَقْوعِ فِي الثَّانِي، فَقَدْ أَحْسَنْتَ، وَأَجَدْتَ، وَكَنْتَ الْخَطِيبَ الْمُفْوَهَ، وَالْوَاعِظَ الْمُرْشِدَ الْأَمِينَ.

وبهذا تكون قد قَدَّمْتَ للناس أمثلة يُقتَدِّونَ بها، وأمثلة يحذرون ال الوقوع فيها، ووعظتهم بما حَدَث لِسَوَاهُمْ من خير وشر.

«والسعيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ وَالشَّقِيقُ مَنْ وُعِظَ بِنَفْسِهِ».

قال: «ما كنت أَحْسَبُ الْوَعْظَ بِهَذِهِ السَّهْوَةِ».

قلت: «إِنْ سُوءَ فَهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الْخَطْبَاءِ مَعْنَى الْوَعْظِ؛ هُوَ عِلْمٌ تَخْبُطُهُمْ فِيهِ وَعْجَزُهُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِهِ».

قالوا: إِنَّ مُرَبِّيَةَ أَوْلَادِ لُوِيسِ الرَّابِعِ عَشَرَ طَلَبَتْ إِلَى أَحْدَهُمْ — وَكَانَ صَغِيرُ السَّنِ — أَنْ يَكْتُبَ كِتَابًا إِلَى أُبِيهِ، وَكَانَ بَعِيدًا عَنْهُ، فَقَالَ لَهَا مَدْهُوشًا: «أَفِي قَدْرِي أَنْ أَكْتُبَ كِتَابًا؟»

فَقَالَتْ لَهُ: «هَبْ أَبَاكَ حَضَرَ فَمَاذَا أَنْتَ قَاتِلُ لَهُ؟»

قَال: أَقُولُ لَهُ: «لَقَدْ أَوْحَدْتَنَا وَاشْقَنَنَا إِلَى رَؤْيَاكَ!»

قَالَتْ: «فَاكْتُبْ لَهُ هَذَا».

ثُمَّ قَالَتْ لَهُ: «قُلْ لَهُ: إِنَّ الْبَيْتَ يَحْتَرِقُ!»

فَقَالَ لَهَا: «هَذَا كَذِبٌ!»

قَالَتْ: «قُلْ لَهُ إِذْنَ: إِنَّ الْخَادِمَ يُيَظْلِفُ غُرْفَةَ الْاسْتِقبَالِ».

قَال: «وَهَذَا حَبْرٌ تَأْفِهُ!»

قَالَتْ: «لَقَدْ عَرَفْتَ الْآنَ كَيْفَ تَكْتُبُ الْكِتَابَ، فَلَيْسَ يُكَفِّكُ ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَكْتُبَ مَا تَشَعَّرُ بِهِ مُبْتَدِعًا عَنِ الْكَذِبِ، وَعَنِ الْحَقَائِقِ التَّافِهَةِ!»

وَهَذِهِ أَيْهَا السَّادَةُ هِيَ وظيفةُ الْخَطَّيْبِ تَمَامًا.

وفي إحدى روايات «مولويير» نرى أحد المُؤْلِعِينَ بالدرس — على كِبَرٍ — يشرح له معلمه النَّظَمُ والنَّثَرَ، فيقول له: «النَّظَمُ هُوَ الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمَقْفُى».

فيسألَهُ: «وَمَا النَّثَرُ؟» فيقول له: «هُوَ مَا تَنَكَّلَمُهُ الْآنُ».

فيقول: «وَا عَجَباً، إِذْنَ فَأَنَا أَتَكَلَّمُ النَّثَرَ أَرْبَعينَ سَنَةً وَأَنَا لَا أَدْرِي!»

ولعل أكثركم سيدهش أيّضاً حين أقول له إنك كثيراً ما تكون خطيباً — عن غير قصد منك — وإنك تكون واعظاً بليغاً كلما قصصت على إخوانك أو أهلك أو طلبتك قصة بليغة ذات مغزى حكيم!

ولعل أيسر وأبلغ طريقة يتبعها الوعاظ — في بيته وطريقه وعلى منبره — هي ضرب الأمثال ورواية القصص.

ولقد فرغ علماء التربية من التدليل على أهمية الأمثال والقصص، وقد سبقهم القرآن الكريم إلى ذلك فقال: ﴿وَتِلْكُ الْأُمَّالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ وقال: ﴿نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

ولقد بلغُ ولُوعُ بعض الناس بالأسلوب القصصي حَدًّا عجيباً: أذكر لكم — على سبيل المثال — أنَّ مُدَرِّسًا فاضلاً من مُدرسي العربية كان يُدرِّس لنا — في مدرسة أم عباس الابتدائية — وكانت نتائجه أَبَهَرَ النتائج وتلاميذه أقوى التلاميذ، وكان السُّرُّ في ذلك؛ هو إسرافه في حب القصص، وقد بلغ به ولعه بالأسلوب القصصي حَدًّا مُدهشًا جعله يشرح لنا — في قواعد اللغة — «أثر» كان وأخواتها، وأثر إن وأخواتها «بأسلوب قصصي جذاب يُحبُّ في النحو أَزَهَّدَ الناس في النحو».

كان يشرح لنا أَثرَ كان وأخواتها في مَعْمُولِيهَا، وأثر إن وأخواتها كذلك فيقول المبتدأ والخبر أَخْوَانَ، وهو دائِماً رافعاً الرأس، ففي ذات يوم بينما هما جالسان في بيتهما، إذ سمعا قرْغاً بالباب؛ فأسرعوا إلى زائرهما ففتحوا له الباب ورحبا به، وأرادا أن يُقدموا له شيئاً من الحَفَاوة، بعد أن سأله عن اسمه فقال لهم «اسمي كان» فقالا له: «أهلاً وسهلاً بك ومرحباً، ماذا نستطيع أن نقدم لك من قِرَّة؟» فقالت: «أريد أن أصاحبكم وأن تترك صحبتي أثراً ظاهراً تميِّزاً بيـه من بين رفـاقـكـمـ جـمـيـعاً».

فقالا: «وَأَيْ أَثْرٌ تُرِيدِينَ؟»
«فـقاـلتـ: أـنـ أـنـصـبـ أحـدـكـمـ».

فلا تكاد تُتمُ قولها حتى يتقدم إليها الخبر مُرْحِبًا بشرطها هذا راضياً بحكمها. وإنهم لذلك إذ يسمعون قرْغاً عنيقاً بالباب، فإذا فتحوه وجدوا طائفة من الضيوف، فيسألونهم: «من أنتم؟» فيقولون لهم: «نحن أخوات كان».

وبَعْدَ أَخِذِ وَرَدِ يَظْفَرُنَ بمثل ما ظفرت به كان. فإذا جاء اليوم التالي جاءت «إن» زائرة، وطلبت إليهما أن يُمْنَحَاها مِيزَةً كما مَنَحَـاـ كانـ بالـأـمـسـ.

فيتقدم المبتدأ في هذه المَرَّة مُرْحِبًا بشرطها، ولا يكاد يفعل حتى تأتي جميع أخوات إن طَالِبَةً مثل طلبها فيَظْفَرُنَ به.

هكذا كان يسلُّك ذلك المُدرِّس الظريف في شرح النحو وتحبيبه إلى نفوس الطلبة، وهي طريقة طَرِيقَةً كانت تُحبِّبُ الطلبة في دروسه، وترغّبهم في الاستفادة من علمه.

وكتيرًا ما لجأ أبي — في تربيتي — إلى ضرب الأمثلة، والقصص. أذكر لكم أن بعض أشقياء الصَّبَّيَةِ أَغْزَانِي بِتَسْلِقِ «التَّرام» — وأنا صغير — فرأني أبي وأنا أفعل ذلك ولم أرْهُ.

فلما عاد إلى المنزل قال لي: «لقد حدثالي يوم يا ولدي أمر عجيب، فقد هوى ولدُ شَقِّي تحت عجلات الترام فقطعته شَطْرِينِ، وظل الناس يلعنونه ويلعنون أهله. «وهنا ذَكَرْتُكَ يا ولدي فَحَمَدَ اللَّهُ عَلَى حُسْنِ أَدْبِكَ وَبَعْدَكَ عَنْ هَذِهِ الدَّنَائِيَا». أقول لِحَضَرَاتِكُمْ: إن الأرض كادت تَغُوصُ بي، وكان هذا آخر عهدي بهذا العمل الممقوت.

وفي ذات يوم قُلت له — وكنت طفلاً: «إني لأخشع العفاريت، والحشرات المؤذية حين أصدُّ سُلَّمَ الْبَيْتِ فِي ظَلَامِ الْلَّيْلِ». فقال لي: «من الذي يحرسُكَ وأنت نائم؟» قلت: «هو الله..».

قال: «أتظن أن من يحرسك وأنت نائم لا يحرسك وأنت يقظان؟» فكان ذلك آخر عهدي بالخوف أيها السادة.

ولقد قرأ لي أبي كثيراً من القصص في فجر حياتي، لا أزال مدينًا لها — إلى الآن — بما يظنه في بعض من يُحسّنون الظن بي من خيال وأدب.

ليست وظيفة الوعظ مُنْحَصِّرَةً في أن يقول للناس: «اتقوا الله واحشوا عذابه واحذروا ناره»، في كل أسبوع بعبارات مختلفة، وأن يقول:

عبد الله

أُوصِيكُمْ وَإِيَّاهُ بطاعةَهِ، وَأَحَدِّرُكُمْ وَإِيَّاهُ مِنْ عصيَانِهِ وَمِنْ خالفةِ أمرِهِ.

إلى آخر هذه الكليشيهات والعبارات المحفوظة حفظاً، والجمل المرصوفة رصفاً.

ولكن وظيفته وواجبه في أن يُحسِّنَ التعبير بما يشعر به من خوالج، وعواطف صادقة.

ولو كنت خطيباً في مسجد لما صَعِبَ عَلَيَّ أن أهتدي إلى موضوع صالح – كل يوم – بلْهُ كل أسبوع.

فأمّامي الحياة اليومية أقتبس منها ألف مثل مما أراه في الطرقات وغيرها.
وأمّامي التاريخ الحافل بالعظات، والعبر، والمثل العليا.

(١) موقعة أحد

خذوا مثلاً على ذلك موقعة أحد فهي وحدها تصلح موضوعاً لعدة خطب.

(١-١) عاقبة المخالفة

كان النصر محققاً لل المسلمين في بَدْئِهَا فلما خالفوا أمر النبي – عليه السلام – وانقلوا من موضعهم، كرّ عليهم المشركون، وقتلوا منهم عدداً كبيراً فيهم «حمزة» عم النبي ﷺ واستطاع العدو أن يخلص إلى النبي؛ فَيَرِمِيهِ بالحجارة. قالوا: «ووَقَعَ لِشَقِّهِ؛ فَأَصَبَّتْ رُبَاعِيَّتُهُ وَشُجَّ وجْهَهُ، وَكُلِّمَتْ شفتَاهُ، وَدَخَلَتْ حلقَتَانَ منْ حلقِ الْمُغَفِّرِ في وَجْنَتِهِ، وَسَقَطَ في إحدى الْحُفَرِ التي حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون ... إلخ». أليس هذا موضوعاً جليلاً يبين لنا عاقبة المخالفة؟

(٢-١) وفاة الصحابة

وفي هذه الموقعة يتَجَلّ لنا مَثْلُ عَالٍ من أمثلة الإخلاص، والتفاني في الوفاء؛ إذ يُقْبَلُ الصحابة على النبي مُسْتَبْسِلِينَ يُفدوْنَهُ بأرواحهم، يأخذه عَلَيْ بِيدهِ، ويرفعه طحة بن عبيد الله، ويحيط به جماعة من الأنصار والمهاجرين؛ ليُقْوَهُ السوء بنفسهم، وتتجَّل شجاعة المرأة العربية واضحة، فلا تقل عن شجاعة «جان دارك» التي لا يكاد يخلو من ذكرها كتاب فرنسي من كتب التاريخ، والتي ملئوا الدنيا إعجاباً بها.

تنحاز «نسيبة بنت كعب» إلى النبي ﷺ وتفاني في الذُّود عنه – وكانت تسقي في أول النهار – فلما رأت هزيمة المسلمين أسرعت إلى النبي تفديه بنفسها، ضاربة بسيفها مرة، ورامية عن قوسها أخرى، حتى أَثْخَنَتْها الجروح.

أتريدون أمثلة أخرى من هذه الموقعة؟ لو شئتم لما وَقَتِ الليلة كلها إذا فَصَرْنَاها على هذه الموقعة وحدها، فلنختزئ بذلك ففيه الكفاية. أتريدون أمثلة على فضل الصبر؟

فضل الصبر (صبر الصحابة)

كان النبي يذكر يوماً ما لقي من قومه من الجهد والشدة، قال: «لقد مكثت أياماً وصاحبـي هذا (يُشير إلى أبي بكر) بضع عشرة ليلة ما لنا فيها من طعام إلا البرير «ثمر الأراك» في شـعب الجبال».

وكان «عتبة بن غزوـان» يقول — إذا ذـكر البلاء، والشدة التي كانوا عليها بمكة: «لقد مكثـنا زماناً، ما لنا من طعام إلا ورق البشام، أكلناه؛ حتى تـقرـحتـ أـشـدـاقـنا، ولقد وجدـت يومـاً تـمـرـةـ، فجعلـتها بيـنـيـ وبينـ سـعـدـ، وما منـاـ الـيـومـ إـلاـ وهوـ أـمـيرـ عـلـىـ كـوـرـةـ». وكانوا يقولـونـ في مـنـ وـجـدـ تـمـرـةـ فـقـسـمـهاـ بيـنـهـ وـبـيـنـ صـاحـبـهـ: «إـنـ أـسـعـ الرـجـلـينـ مـنـ حـصـلـ النـوـاـةـ فـيـ قـسـمـهـ يـلـوـكـهـ طـوـلـ يـوـمـهـ وـلـيـلـتـهـ مـنـ عـدـمـ الـفـوـتـ». قال رسول الله: «لـقـدـ رـعـيـتـ غـنـيـمـاتـ أـهـلـ مـكـةـ لـهـمـ بـالـقـرـارـيـطـ».

أتريدون أمثلة على الاعتداد بالنفس؟!

جاء رسول الله يوماً ليدخل الكعبة فدفعـهـ «عثمان بن طلحة العبدـريـ» فقال: «لا تـفعـلـ يا عـثـمـانـ، فـكـانـ بـمـفـاتـحـهاـ بـيـديـ أـضـعـهـ حـيـثـ شـئـ!ـ» فقال: «لـقـدـ ذـلـلتـ قـرـيـشـ وـقـلـتـ». قال: «بلـ كـثـرـتـ وـعـرـتـ».

وانظروا إلى حواره رسول الله مع قريش حين قالت له تـفـاخـرـهـ: «أـتـبـاعـكـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـمـوـالـيـ» (كـبـلـاـ، وـعـمـارـ، وـصـهـيـبـ) خـيـرـ مـنـ قـصـيـ بنـ كـلـابـ، وـعـبـدـ مـنـافـ، وـهـاشـمـ، وـعـبـدـ شـمـسـ؟ـ» فقال: «نعم، والله لـئـنـ كـانـوـاـ قـلـيلـاـ لـيـكـثـرـنـ، وـلـئـنـ كـانـوـاـ ضـعـفـاءـ لـيـشـرـفـنـ، حتى يـصـيـرـوـاـ نـجـوـمـاـ يـهـتـدـيـ بـهـمـ وـيـقـتـدـيـ فـيـقـالـ: «هـذـاـ قـوـلـ فـلـانـ»ـ وـذـكـرـ فـلـانـ». فلا تـفـاخـرـونـيـ بـآـبـائـكـ الـذـينـ مـوـتـوـاـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ فـلـماـ يـدـهـدـهـ الـجـعـلـ بـمـنـحـرـهـ خـيـرـ مـنـ آـبـائـكـ الـذـينـ مـوـتـوـاـ فـيـهـاـ. فـاتـّـعـونـيـ أـجـعـلـكـ أـسـبـابـاـ. وـالـذـيـ نـفـسيـ بـيـدـهـ، لـتـقـتـسـمـنـ كـنـوزـ كـسـرـىـ وـقـيـصـرـ!ـ» فقال له عـمـهـ أـبـوـ طـالـبـ: «أـبـيـقـ عـلـيـ وـعـلـىـ نـفـسـكـ!ـ» فـظـنـ النـبـيـ أـنـهـ خـاذـلـهـ فقال: «يا عـمـ، والله لـوـ وـضـعـوـاـ الشـمـسـ فـيـ يـمـيـنـيـ وـالـقـمـرـ فـيـ شـمـالـيـ عـلـىـ أـنـ أـتـرـكـ هـذـاـ الـأـمـرـ حـتـىـ

يُظْهِرُهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلَكَ فِيهِ مَا تَرَكَتْهُ». ثُمَّ اسْتَعْبَرَ بِاكيَا، ثُمَّ قَامَ فَلْمَا وَلَّ نَادَاهُ: «أَقْبَلَ يَا ابْنَ أَخِي». فَأَقْبَلَ فَقَالَ: «اذْهَبْ وَقُلْ مَا شَتَّى، فَوَاللَّهِ لَا أَسْلَمْتُكَ لِسُوءِ أَبَدًا!!»

أرأيتم خيرًا من هذه الأمثلة يُسُوقُهَا الخطيب يَعْظِمُ بِهَا قَوْمَهُ، ويُضْرِبُ لَهُمْ بِهَا أَعْلَى الْأَمْثَالِ؟

مثال الطمع وعاقبته

فإذا شاء الخطيب أن يُقرِّبَ للناسِ مَثَلَ الطمع وعاقبته، فلعلَّ أبلغَ مثالَ يسوقه إليهم هو أن يُؤْخِذَ عليهم: «حكاية الدرويش وصاحب الجمال»

وخلالصتها أن رجلاً كان يملك ثمانين جَمَلًا، فكان يستأجره الناس لحمل مَتَاجِرِهِمْ من بلد إلى بلد، ففي ذات يوم كانت جماله الثمانون تَحْمِلُ خشبيًّا من بغداد إلى البصرة؛ فلقيه في طريقه درويش وسار معه زمنًا، ثم جاء وقت الغداء فأكل الدرويش معه، وبعد قليل قال له الدرويش: «لقد صرنا رفيقين وصديقين، وسأرشدك إلى كنز ثمين تحمل منه ما شئت من ذهب ولآلئ — على جمالك — ثم نقسم هذا الغنم معًا، فما رأيك؟» فَهَبَ الرَّجُلُ، وطار فرحاً بهذه الصفة الرابحة التي تضمن له الغنى طول حياته. وقاده الدرويش إلى ذلك الكنز الثمين، وفتحه، وَحَمَلَ الْجَمَالَ الثَّمَانِينَ مَا استطاعت حمله من نفائس وذخائر.

ورأى الدَّرَوِيْشُ صُنْدُوقًا صغيرًا من الخشب فأخذه ثم سارا معًا إلى مفترق الطريق، فَتَعَانَقَا بشوق شديد، وأخذ كل منهما أربعين جملًا وسار في طريقة، ولم يَكُنْ الرَّجُلُ يبتعد قليلاً حتى وَسُوسَ لِهِ شَيْطَانُ الطَّمَعِ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «تُرِى لَوْ طَلَبْتُ مِنْ ذَلِكَ الدَّرَوِيْشَ عَشْرَةَ جَمَالٍ أَكَانَ يَرْفَضُ طَلَبِي؟» وَلَمْ يَكُنْ يَمْرِ بِذَهْنِهِ هَذَا حَتَّى أَسْرَعَ يَجْرِي إلى الدرويش ويناديه بأعلى صوته وَيُلْوِحُ لَهُ بِيَدِيهِ: «يَا دَرَوِيْشَ! يَا دَرَوِيْشَ!» فعاد إليه الدرويش وسأله: ما الخبر؟ فقال له: «ماذا عليك إذا أعطيتني عشرة جمال من جمالك وأنت رجل زاهد لا يعنيك من أمور الدنيا شيء؟» فقال له الدرويش: «لك ما طلبت». ففرح الرجل بذلك، وأخذ الجمال العشرة مُغْتَبِطًا، ثم وَدَعَ صاحبه وعاد إلى طريقه. ولكنه لم يَكُنْ يَسِيرُ قليلاً حتى وَسُوسَ لِهِ شَيْطَانُ الطَّمَعِ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «إِنَّهُ رَجُلٌ طَيِّبٌ الْقَلْبُ لِيَنِّي الْعَرِيْكَةُ، وَمَا أَحْسَبَهُ يَرْفَضُ أَنْ يَعْطِيَنِي عَشْرَةَ جَمَالٍ أَخْرَى إِذَا طَلَبْتُهَا مِنْهُ».«

وما كاد يستقر في نفسه هذا الهاجس حتى أسرع يَعْدُو نحو الدرويش ويناديه بأعلى صوته: «يا درويش! يا درويش!» فلما عاد إليه الدرويش وسأله عما يريد، قال له: «ألا تسمح لي بعشرة جمال أخرى أَيُّها الرجل الكريم؟» فقال له الدرويش: «لك ما طلبت يا أخي.»

ففرح وأخذ منه الجمال العشرة، ولم يك يوْدِعه ويسير بضع خطوات، حتى عاوده الطمع فقال: «إن الجمال جمالي، ولو لاهما لما استطاع أن يحمل هذه النفائس الكثيرة، ثم إن هذا الدرويش زاهد في الدنيا، وأحسب أن عشرة جمال مُحَمَّلة نفائس وذخائر ثمينة تَكْفِيه وتُغْنِيه طول حياته.» وَتَمَّةً أسرع يجري نحو الدرويش ويناديه: «يا درويش! يا درويش!» فعاد إليه الدرويش مُسْتَفْسِرًا عما يريد فقال له الرجل: «إنك قد غمرتني بفضلك وكرمك، وأحسبني إذا طلبت منك عشرة جمال أخرى، لم تُخَيِّب رجائي.» فقال له الدرويش: «خذ ما شئت». فأخذها ووَدَعه، ثم عاوده الطمع مرة ثالثة في نفسه: «وما فائدة هذه الجمال العشرة لهذا الزاهد المُشْتَغل بعبادة الله، إنه رجل مُتَقْشَف وربما شَغَلَتْه عن دينه، هذا إلى أنه رجل ضعيف وليس في قدرته أن يمنعني ما أطلب، وما أَجْدَرَنِي أن أنتهز هذه الفرصة النادرة فآخذ منه بقية جمالي؛ فإذا أَبَى أن يُعْطِنِيه قتله أو أخذتها منه قَسْرًا.»

وَتَمَّةً أسرع إلى الدرويش، وقال له: «أنت رجل زاهد متقوش، ولست في حاجة إلى هذه الجمال العشرة، فماذا عليك إذا سمحت لي بها وأضفت إلى إفضالك فضلًا آخر لا أنساه لك ما حيت؟» فقال له الدرويش: «لك ما طلبت.» فشكراه ووَدَعه وأخذها وانصرف، ولكنه لم يك يبتعد عنه قليلاً حتى ذكر الصندوق الصغير الذي أخذه الدرويش من الكنز، فقال في نفسه: «لو لا أن لهذا الصندوق الصغير قيمة أثمن من كل هذه النفائس لما سمح لي الدرويش بها جميًعا راضياً مُغْتَبِطاً!»

وما كاد يَطِيفُ بذهنه هذا الخاطر حتى أسرع يجري نحو الدرويش، فلما أدركه قال له: «لقد رأيْتُك تأخذ صندوقاً صغيراً من الكنز، وأحب أن أعرف فائدة هذا الصندوق!» فقال له الدرويش: «فائدة هذا الصندوق أن من يَكْحُلُ به إحدى عينيه يرى كنوز الأرض قَاطِبَةً؛ فإذا كَحَلَ عَيْنَهُ الأخرى عَمِيَّتْ عيناه جميًعاً.» فقال له الرجل: «إذن فاكحل عيني.» ولم يك الدرويش يفعل حتى رأى الرجل كنوز الأرض كلها أمام عينيه، فقال في نفسه: «إذا كان من يَكْحُلُ عيناً واحدة يرى كل هذه الكنوز، فكيف بمن يَكْحُلُ عينيه جميًعاً! لا شك أن هذا الدرويش يخدعني ويحرص على أن يحرمني فوائد عظيمة!»

ثم التفت إلى الدرويش وقال له: «اَكْحَلْ لِي عَيْنِي الْأُخْرَى». فحذّره الدرويش من عاقبة هذا الشّطط؛ فلم يزدُه التّحذير إلّا إلحاً وعِناداً، وبعد لجاجة طولية أذعن له الدرويش وَكَحَلَ له عينه الأخرى؛ فعميت عيناه جمِيعاً، فأخذ الدرويش حِمَالَة الشَّمَانِين وسار بها إلى حيث شاء وترك صاحبنا يلقى جزء طمعه وأنانيته.

أتَرَوْنَ أَيْهَا السَّادَة أَبْلَغَ مِنْ هَذِهِ الْحَكَايَةِ يُقْصُّهَا الْخَطِيبُ؛ لِيَقُرَرَ لِلنَّاسِ عاقبة الطمع؟! إِلَيْكُمْ مُثَلًا آخر:

عاقبة الغفلة

زعموا أنه كان أسد في أَجَمَة، وكان معه ابن آوى يأكل من فواضل طعامه فأصاب الأسد جرب، وَضَعْفٌ شدِيدٌ وَجُهْدٌ؛ فلم يستطع الصيد، فقال له ابن آوى: «ما بالك يا سيد السبع، قد تغيرت أحوالك؟»

قال: «هذا الجرب الذي قد أجهدني وليس له دواء إلّا قلب حِمَارٍ وَأَذْنَاهُ». قال ابن آوى: «ما أيسر هذا وقد عرفت بمكان كذا حماراً لِقَصَارٍ يحمل عليه ثيابه، وأنا آتيك به». ثم دَلَّ إلى الحِمَارِ فتأهَّلَ وسلم عليه، فقال له: «ما لي أراك مَهْزُولاً؟» قال: «ما يطعني صاحبي شيئاً». فقال له: «وكيف ترضى المقامَ معه على هذا؟» قال: «فما لي حِيلَةٌ في الهرب منه، كلما أَتَوْجَهَ إِلَى جهة أَسْرَ بي إِنْسَانٌ فَكَدَّني وأَجَاعَني، قال ابن آوى: «فَأَنَا أَذْلُكَ عَلَى مَكَانٍ مَعْزُولٍ عَنِ النَّاسِ لَا يَمْرُ بِهِ إِنْسَانٌ؛ خَصِيبُ الْمَرْعَى، فِيهِ قَطِيعٌ مِنَ الْحُمُرِ لَمْ تَرَ عَيْنَ مِثْلَهَا حُسْنَا وَسِمْنَا». قال الحِمَارُ: «وَمَا يَحْبِسُنَا عَنْهَا؟» فانطلق به ابن آوى نحو الأسد، وتقدم ابن آوى ودخل الغابة على الأسد، فأخبره بمكان الحمار فخرج إليه وأراد أن يَثِبَ عليه فلم يَسْتَطِعْ لضعفه، وتخلص الحمار منه، فَأَفْلَتْ هَلْعاً على وجهه، فلما رأى ابن آوى الأسد لم يقدر على الحمار، قال له: «أَعْجَزْتَ يَا سيد السبع إلى هذه الغاية؟» فقال له: «إِنْ جَئْتَنِي بِهِ مَرَةً أُخْرَى فَلَنْ يَنْجُو مِنِّي أَبْدَا». فمضى ابن آوى إلى الحمار فقال له: «ما الذي جرى عليك؟ إن أحد الْحُمُرِ رَأَكَ غَرِيباً فخرج يتلاقاك مُرْحَبًا بك، لو ثَبَتَ لَآنْسَكَ وَمَضَى بك إِلَى أَصْحَابِهِ!»

فلما سمع الحمار كلام ابن آوى — ولم يكن رأى أسدًا قط — صَدَّقَهُ وأخذ طريقه إلى الأسد، فسبقه ابن آوى إلى الأسد، وأعلمته بمكانه، وقال له: «اسْتَعِدْ لَهْ فَقَدْ حَدَّعْتُهُ لَكَ، فَلَا يُدْرِكُنَّكَ الْضَّعْفَ فِي هَذِهِ النَّوْبَةِ فَإِنْ أَفْلَكَ فَلَنْ يَعُودْ مَعِي أَبْدًا».

فَجَاهَشَ جَاهْشَ الْأَسْدِ؛ لِتَحْرِيْضِ ابن آوى، وَخَرَجَ إِلَى مَوْضِعِ الْحِمَارِ فَلَمَا بَصَرَ بِهِ عَاجِلَهُ بِوَثْبَةٍ افْتَرَسَهُ بِهَا، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ ذَكَرَ الْأَطْبَاءُ أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ إِلَّا بَعْدِ الْغَسْلِ وَالظَّهُورِ، فَاحْتَفَظْ بِهِ حَتَّى أَعُودْ فَأَكَلَ كُلَّ قَلْبِهِ وَأَذْنَبِهِ وَأَتْرَكَ لَكَ مَا سُوِيَ ذَلِكَ قُوَّاتِنَا». فَلَمَّا ذَهَبَ الْأَسْدُ لِيغْتَسِلَ عَمْدَابِن آوى إِلَى الْحِمَارِ فَأَكَلَ قَلْبَهُ وَأَذْنَبَهُ رَجَاءً أَنْ يَتَطَهِّرَ الْأَسْدُ مِنْهُ فَلَا يُأْكَلُ مِنْهُ شَيْئًا، ثُمَّ إِنَّ الْأَسْدَ رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ فَقَالَ لِابْنِ آوى: «أَيْنَ قَلْبُهُ وَأَذْنَابُهُ؟» فَقَالَ لَهُ: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ يَفْقَهُ وَأَذْنَانٌ يَسْمَعُ بِهِمَا لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْكَ بَعْدَمَا نَجَّا مِنْ الْهَلَكَةِ؟!»^١

أَلِيسْ هَذِهِ مَصَدَّاقُ الْحَدِيثِ: «لَا يُلْدُغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرْتَنِ»؟

ثُمَّ ذَكَرَ الْمَحَاضِرُ أَمْثَالَةِ أُخْرَى كَثِيرَةً وَخَتَمَ مَحَاضِرَتَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّا أَرْدَتَ مَثَلَ الْعَقُوقِ وَمَثَلَ الْوَفَاءِ فَأَمَامُكَ حَكَايَةُ «أَبِي صِيرْ وَأَبِي قِيرْ» وَهِيَ فِي الْأَلْفِ لَيْلَةِ، وَإِنَّا أَرْدَتَ مَثَلَ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ؛ فَأَمَامُكَ حَكَايَةُ «الْمَلَكِ عَجِيبٍ» وَهِيَ فِي الْأَلْفِ لَيْلَةِ أَيْضًا. وَإِنَّا أَرْدَتَ مَثَلًا عَلَى أَنَّ لَكَ مَقَامًا مُقَالًا فَاقْرَأْ حَكَايَةَ الْعُمَّ «عَمَارَة» وَهِيَ مَشْهُورَةٌ لَا حَاجَةَ بِنَا لِذِكْرِهَا».

وَجَمَاعُ الْقَوْلِ أَنَّ الْقَصَصَ وَضْرِبَ الْأَمْثَالَ مُحِبِّبَانَ إِلَى نُفُوسِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ مَعًا، وَهُمَا مِنْ خَيْرِ الْوَسَائِلِ الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا الْخَطِيبُ لِتَقْرِيرِ فَكْرَةٍ أَوْ تَعْزِيزِ مِبْدَأٍ فِي أَذْهَانِ سَامِعِيهِ.

هوامش

(١) من كتاب «كليلة ودمنة».

الوعظ الكاذب

أيها السادة:

قال لي ولدي مصطفى — ذات يوم — وعلى وجهه أمارات الدهشة والعجب: «إنك توصيني يا أبي بالصدق!» قلت: «نعم!» قال: «تهانني عن الكذب!» قلت: «نعم.» قال: «ذلك تقول المعلمة!» قلت: «حسن، فماذا حدث؟»

قال: «حدث أن معلمتي — التي توصيني بالصدق وتمدحه لي وتهانني عن الكذب وتبغضني فيه — قد كذبت!» قلت: «وكيف كذبت يا مصطفى؟» قال: «إنها ضربتني بشكتها إليك، فلما سألتها أنكرت!» فماذا ترون أيها السادة؟

إذا كان هذا الطفل — وهو لم يُعد السادسة من سنّي حياته — قد فطّن إلى التناقض بين قول المدرّسة وفعلها، وأدرك أنها تأمر بما لا تأتّمّر به، أترونني قد بالغت إذا قلت: إن أذهان العامة لن تكون أقل من ذهن هذا الطفل إدراكاً وفهمًا لما يقع من التناقض بين أقوال وعاظِهم ومُرشديهم وأفعالهم؟

الحق أن العامة — مهما بلغ بهم الجهل — لن يكونوا أقل انتقاداً لوعاظهم من الأطفال.

ولست أدرى كيف يأمرنا الوعظ بالصدق ويكذب، وكيف يأمرنا بترك الحليف ويحلف، كذلك الذي يقول: «والله ما حَلْفْتُ صادقاً ولا كاذباً». أو كذلك الذي أراد أن لا يُبوح بحب معشوقة فباح بها في قوله:

لا لا أبوح بحب بُثنة إنها أخذت على مواثقاً وعهوداً

وكيف يأمرنا الوعاظ بحسن المعاملة وهو نفسه أسوأ مثال للمعاملة؟ وكيف تمتلئ قلوبنا خشية من واعظ منافق يأمر بما لا يأتمُر به ويقرر ما لا يفعل؟! وكيف نخلي بثقتنا إلى رجل:

يَصِفُّ الْحَسَابَ لِأَمَةٍ لِنِهْوَلَهَا
أَضْحَى يُمَثِّلُ فِي النُّفُوسِ نُهْوَلَهَا

طلبَ الْخَسَائِسِ وَارْتَقِي فِي مِنْبَرٍ
وَيَكُونُ غَيْرُ مُصَدِّقٍ بِقِيَامَةٍ

نعم، كيف نُصْغِي إلى واعظٍ وصفه أبو العلاء وأبدع في وصفه فقال:

بِصَاحِبِ حِيلَةٍ يَعِظُ النِّسَاءَ
وَيُشَرِّبُهَا — عَلَى عَمْدٍ — مَسَاءً
وَفِي لَذَاتِهَا رَهْنَ الْكَسَاءِ
فَمِنْ جَهْتَيْنِ — لَا جَهَةً — أَسَاءَ

رُؤَيْدَكَ قَدْ غُرِبْتَ — وَأَنْتَ نَذْبُ —
يُحَرِّمُ فِيْكُمُ الصَّهْبَاءَ صُبَحًا
يَقُولُ «لَقَدْ غَدَوْتُ بِلَا كِسَاءِ
إِذَا فَعَلَ الْفَتَى مَا عَنْهُ يَنْهَى

فإن كان بعض الوعاظ يحسب أن ما يقتفيه سرًا من الشنح مستور غير معروف ولا ذائع مما أشد ضلالته ووهنه! قال كاتب إنجليزي:

إذا دار بِحَلِيكَ — لحظة واحدة — أن أَخْفَى أَسْرَارَكَ التي تحرص عليها
وَتَمْعِنُ فِي تَكْتُمِهَا لَمْ يَعْرِفَهَا النَّاسُ جَمِيعَهُ فَقَدْ خَدَعَتْ نَفْسُكَ خَدَاعًا بَيْنًا.

وقال الشاعر العربي:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرَئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ
إِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ

أيها السادة:

لقد استفاد الناس من أخلاق النبي، وأعماله أضعاف ما استفادوا من أقواله ومواعيذه. كذلك كان الصحابة والخلفاء الراشدون أمثلة عملية للأخلاق الفاضلة؛ فاستفاد الناس من أفعالهم أضعاف ما استفادوا من أقوالهم.

ألا ترون مثلاً إلى عمر بن الخطاب يجلد ولده — عقاباً له — ولا يتهاون في إقامة الحد عليه؟

ثم ألا ترون إليه وهو يعذّب ابن العاص بقولته الحكيمـة المأثورة: «متى اسْتَعْبِدُهُمُ الْأَنْاسُ وَقَدْ وَلَدْتُهُمْ أَمْهَاتُهُمْ أَحْرَارًا؟»

ألا ترون إليه تُحَكِّمُهُ امرأةً فتحجّهُ فيعرف لها بالغلبة ويُدْعِنُ للحق إذعانًا ويقول قوله المشهورة: «أخطأ عمر وأصابت امرأة».»

وليس هذا إلا مثلاً من أمثلة عدة يُعيّنـا أن تَتَقَصَّـها.

ألا ترون إلى «كاميل فلاماريون» مثلاً كيف عاقب نفسه بغرامة وقد كان قاضياً فأصدر على نفسه حُكْمـاً كما يصدره على عامة الناس.

ألم تسمعوا قصة القاضي الذي أهانه ابن ملـيكـه وهو في مِنْصَـةـ القضاء؛ فرَجَـ به في السجن؛ فلما علم الملك بذلك فرح أشد الفرح وقال: «الحمد لله الذي جعل في بلادي قضاة يقيـمون العـدـلـ حتى على ولـديـ نفسهـ!»

هذه — أيها السادة — أمثلة عملية قليلة من أمثلة كثيرة يَجُدُـونـهاـ يـتـصـدوـنـ للـنـصـحـ أنـ يـتـخـذـوـهاـ نـمـوذـجاـ لـهـمـ؛ ليـكونـواـ جـديـرـينـ بـوـعظـ النـاسـ وإـرـشـادـهـمـ، فـإـنـ النـاسـ يـسـتـفـيدـوـنـ

منـ النـمـوذـجـ العـالـيـ أـكـثـرـ مـاـ يـسـتـفـيدـوـنـ مـنـ الـحـكـمـ وـالـمـوـاعـيـظـ الـخـطـابـيةـ.

وـفـيـ قـدـرـةـ كـلـ مـنـكـمـ أـنـ يـكـونـ مـثـلاـ أـعـلـىـ لـأـبـنـائـهـ، وـأـفـرـادـ أـسـرـتـهـ، وـعـشـيرـتـهـ، وـجـيرـانـهـ؛

لـيـقـلـدـوـكـمـ فـيـ ذـلـكـ.

وـأـنـاـ أـضـرـبـ لـكـمـ مـثـلاـ يـبـيـنـ لـكـمـ فـائـدـةـ هـذـهـ النـمـاذـجـ الصـالـحةـ؛ وـجـدـتـ أـبـيـ — وـأـنـاـ طـفـلـ — لـاـ يـكـادـ يـتـرـكـ الـكـتـابـ مـنـ يـدـهـ، فـأـحـبـتـ أـنـ أـكـوـنـ مـثـلـهـ وـقـلـدـتـهـ فـيـ ذـلـكـ حـتـىـ أـصـبـحـ ذـلـكـ ذـأـبـيـ إـلـىـ الـآنـ، وـانـقـلـبـ الـتـاطـبـ طـبـاـ أـصـيـلـاـ، وـوـجـدـتـهـ يـصـلـ الرـَّجـمـ فـقـلـدـتـهـ فـيـ ذـلـكـ، وـلـوـ رـأـيـتـهـ — عـلـىـ عـكـسـ هـذـهـ الصـفـاتـ — لـقـلـدـتـهـ فـيـهـ ذـلـكـ، وـمـاـ أـصـدـقـ قـوـلـ الـقـائـلـ:

فَقَلَدَ شَكْلَ مَشْيَتِهِ بَنُوهُ
بَدَأَتْ بِهِ فَنَحْنُ مُقَلَّدُوهُ
فِإِنَا — إِنْ عَدْلَتْ — مُعَذَّلُوهُ
يُجَارِي بِالْخُطَىٰ مَنْ أَدَّبُوهُ

مَشِي السـرـطـانـ يـوـمـاـ باـعـوـجـاجـ
فـقـالـ: عـلـامـ تـنـحـرـفـونـ؟ قـالـواـ:
فـحـاـلـفـ سـيـرـكـ الـمـعـوـجـ وـاعـدـ
أـمـاـ تـدـرـيـ أـبـانـاـ كـلـ فـرـعـ

وينشأ ناشئ الفتى منا على ما كان عَوْدُهُ أبواه!

فما أجر وُعَاظَنَا وَمُرْشِدِينَا أَن يُعْنِوا بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، فَلَا يَكْتُفِي الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِسِرْدِ
تَلْكَ الْأَلْفَاظِ الْمِيَّةِ الَّتِي أَلْفُوا تَرْدِيدَهَا فِي خَطْبَهُمْ، مَقْتَصِرًا عَلَى تَلَوُّهُ عَبَاراتٍ مَرْصُوفَةٍ
مَحْفُوظَةٍ وَاصْطَلَاحَاتٍ عَتِيقَةٍ بَالِيهَ لَا تَعْبُرُ عَنْ نَفْسِهِ؛ فَإِنْ مَنْ يَسْلُكْ هَذِهِ الْطَرِيقَ مُسِيءٌ
لَا مُحْسِنٌ، وَرُبَّ دَاعٍ إِلَى الْفَضْيَلَةِ هُوَ – عَلَى الْحَقِيقَةِ – أَشَدُ خَطَرًا عَلَيْهَا مِنْ أَلْفِ دَاعٍ
إِلَى الرَّذِيلَةِ.

وَأَنَا أَخْتَمُ هَذِهِ الْمَحَاضِرَةِ بِالْقَصِيَّدَةِ التَّالِيَةِ الَّتِي تَلْخُصُ لَكُمْ أَثْرَ الْوعْظِ الْكَاذِبِ فِي النُّفُوسِ
– وَقَدْ تَرَجَّمْتُهَا عَنِ الْفَرْنَسِيَّةِ – وَأَظُنُّهَا تَعْبُرُ عَنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى أَدْقَ تَعبِيرٍ.

الباز والقلق



وعلَّا البَشْرُ مَنْظَرَهُ
ورمَى الباز بالشَّرَهُ
ثُأْتَ بِرًا وَمَأْتَهُ
تحرم النَّاسُ مصْدَرَهُ
كَصِيَالٌ وَمَقْدِرَهُ
ةً جَمِيلًا فَتَشْكُرَهُ

قَنَصَ الْبَارُ قُنْبُرَهُ
فَانْبَرَى لَقْلُقُ لَهُ
قال: أَطْلَقْ سَرَاحَهَا
صَوْتَهَا سَاحِرْ فَلَا
ضَعَفَهَا ظَاهِرْ وَفِي—
فَاحْبُبَهَا نَعْمَةُ الْحَيَا

* * *

| | |
|--|---|
| سيدِي! أَلْفُ مَعْذِرَه فِعْلَةُ مِنْكَ مُنْكَرَه كَتْرُجِيَهِ كَالْكُرَه كَصِيَالُ وَمَقْدِرَه ةِ جَمِيلًا فِيشَكَرَه ت طَرِيقًا مُّيَسَّرَه ثُمَّ لُمْنِي عَلَى الشَّرَه | هَزِئَ الْبَازُ قَائِلًا: غَيْرَ أَنِي تُرِيبَنِي ضِفْدَعُ بَيْنِ مَخَابِي ضَغْفُهُ ظَاهِرٌ، وَفِي فَاحْبُهُ نِعْمَةُ الْحَيَا إِنَّ لِلْخَيْرِ إِنَّ أَرْدَ فَافَعِلِ الْخَيْرَ بَادِئًا |
|--|---|

* * *

| | |
|---|---|
| رَمْ قَدْ حَثَ مَعْشَرَه رَلَحَاهُ وَعَيْرَه هَا ذُنُوبًا مُكَبَّرَه هَنَوَاتُ الْوَرَى يَرَا جَعْلَ النُّصْحَ مَتْجَرَه عُ وَغِشُّ وَثَرْثَرَه! | كَمْ خَطِيبٌ عَلَى المَكَا إِنْ رَأَيْ نَاكِيًّا عَنِ الْخِيَ— هَنَوَاتُ الْوَرَى يَرَا ثُمَّ يُلْفِي ذُنُوبَه مِثْلُ هَذَا مَنَافِقُ نُضْحَهُ كَلَّهُ خَدَا |
|---|---|

ابن الرومي^١

كيف أغفله صاحب الأغاني

لو نطقَ الدَّهْرُ هَجَا أَهْلَهُ
كأنه الرومي أو دَعْلَهُ

أبو العلاء

ألف أبو الفرج كتابه الأغاني لغرض خاص هو إثبات المائة الصوت التي اختارها المرشد، ثم جرّه ذلك إلى الاستطراد، فذكر من الطُّرُفِ والبدائع شيئاً كثيراً حتى أصبح كتابه گنزاً من كنوز الأدب العربي لا مثيل له.

فإذا أغفل أبو الفرج التنويه بشاعر فَحْلٍ كابن الرومي، فهل نجد من يَحْتَجُ له بهذا العذر، وأية دهشة تتملّكتنا، بل أية حَيْرة تملأ نفوسنا حين نُجِيلُ البصر في هذه المجلدات الضخمة التي تؤلف دائرة معارف أدبية نادرة، فنرى مؤلفها الذي أغفل ابن الرومي قد اسْتَطَرَدَ أكثر من ألف مرة إلى ذكره من يستحق الذكر ومن لا يستحقه والتنويه بشعراء

^١ نشرت بمجلة المقتطف.

— إن أَجْلَنَا هُمْ مِرَةً — نَزَّهُنَا ابن الرومي عن أن يُوَضَّع معهم في ميزان أو يُقَاسُ إِلَيْهِم بمقاييس، ورأيناهم — إلى جانبه — أَفْرَاماً أَمَامَ عَمَلاً! فإذا زعم زاعم أن شعر ابن الرومي لم يُغْنِ به، قلنا له: هذه «مسألة فيها نظر» وليس لدينا الآن ما نَدْحَضُ به زعمه، فإن أخبار ابن الرومي لم يصلنا منها شيء يُذَكِّر، وقد أجمع المؤرخون — أو كادوا يُجْمِعون — على إغفال هذا الشاعر العظيم كما تعمد أبو الفرج أن يُغفل ذكره إِغْفَالاً يكاد يكون تاماً، في حين أنه ملأ الدنيا بأخبار البحتري الذي كان يُعاصر ابن الرومي، وأخبار أبي تمام أَسْتَاذ البحتري وكثير من معاصريهما، وغيرهم من المشهورين كأبي نواس ودعبيل ... إلخ، وقد عُنِيَ أبو الفرج — في غير كتابه الأغاني — بدواوين من يحبهم من الشعراء؛ فجمع ديواني أبي تمام والبحتري، ورتب ديوان كل منهما على الأنواع — لا على الحروف — كما عُنِيَ بجمع ديوان أبي نواس! وَتَعَمَّدَ الإِغْفَال ظاهر، فإن أبو الفرج لم يذكر ابن الرومي في كتابه (الأغاني) إلا مرتين، وكأنه لم يذكره إلا لِيُسْيِءُ إِلَيْهِ بَدْلًا من أن يُشَيِّدَ بِذَكْرِه.

فقد ذكره في الموضع الأول؛ بمناسبة انتقاله بيَّنا من الشعر لإبراهيم بن العباس،^١ وذكره في مكان آخر من الكتاب؛ بمناسبة نكبة سليمان بن وهب وابنه^٢ ليظهر لنا بمظهر الشامت وكل الموقفين لا يُشَرِّف صاحبه. وفي الموقف الأول: يعرفنا به سارقاً مُنْتَحلاً بيَّنا من الشعر.

وفي الموقف الثاني: يقدمه لنا هاجياً في غير موقف هجاء؛ لِيُثْبِتُ أبو الفرج — في نفس الصفحة — رثاء البحتري لسليمان بن وهب الذي جَوَّدَ فيه — كما يقول أبو الفرج — ثم يُتَّسِّعُ ثَنَاءُهُ على البحتري بإِطْرَائِهِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْعَبَّاسِ، وَالإِشَادَةُ بِذَكْرِهِ! فإذا لم يكن ذلك إِغْفَالاً فهو عندنا شر من الإغفال، وإذا لم يكن أبو الفرج الْأَرِيبُ الفطن الرواية قد تعمد الإساءة إلى ابن الرومي فكيف يكون تعمد الإساءة بعد ذلك؟

لم يكن ابن الرومي خاملاً في عصره حتى يقتصر أبو الفرج على رواية أربعة أبيات من شعره في هذه الموسوعة الضخمة، وقد زعم بعض الأدباء أنه كان خاملاً وهو وَهْمٌ يُفْنَدُ الواقع، فلم يكن ابن الرومي خاملاً — لا في عصره ولا بعده — ولكنَّه كان مكروهاً من الناس؛ لإفحاشه في الهجاء حتى لم يكِدَ يَسْلَمُ من لسانه إنسان له خط!^٣ فإذا قال قائل: «ولماذا نَوَّهَ أبو الفرج بدعل وذكر كثيراً من أخباره وهو كابن الرومي في سلطة اللسان والإِقداع في الهجاء؟»

قلنا: إن عصر دعبدل قد تقدم عصر ابن الرومي بقليل وقد مات من أساء إليهم دعبدل وقلَّ حقد الناس عليه، فلم يبقَ هناك بأس من الإشادة بذكره والتنويه بفضلة. أما ابن الرومي فقد أساء إلى أعيان الدولة، وكبار رجالها، كما أساء إلى شيخ الأدب وزعماء الشعر، ولم تزل إساعته – إلى زمن أبي الفرج – عالقة بالأدهان. ولا زال بعضَ من أفحش ابن الرومي في هجائهم عائشًا في زمن أبي الفرج، وربما كان من بينهم أقاربه، وأصدقاؤه، ولقد كان أبو الفرج من المتشيّعين، وكان ابن الرومي متهمًا بالتشييع، ولم تكن هذه الصلة شفيعًا له عنده ولا سببًا يدعوه إلى التنويه بذكره.

(١) هجاء البحترى والأخفش

ولقد هجا ابن الرومي البحتري الشاعر هجاء مقدعاً وأفطر في شتمه، وكان للبحتري مكانة بين أعيان الدولة، وكم يذكر رجالها - حتى بعد موته - وقد رأيت أن أبا الفرج كان يحبه وي Shirley بذكره ويعنى بآثاره ... ولا يتسع هذا المقام الضيق للإسهاب في ذلك وشرح الأسباب التي دعت إليه، فلنجزئ بقوله في هجائه من قصيدة:

قد قلتُ إذ نحلوه الشعر: حاش له إن البروك به أولى من الخبر

وَفِيهَا يَقُول:

وحسبه من حباء القوم أن يهبووا له قفاه — إذا ما مر — بالعصب^٤

شیعیان

الحظ أعمى ولو لا ذاك لم تره للبحترى بلا عقل ولا أدب

وفي هذه القصيدة يقول:

قبّحاً لأشياء يأتي البحترى بها
كأنها حين يصغى السامعون لها
رُفقي العقارب أو هذر البناء إذا
من شعره الغث بعد الكد والتعب
ممن يميّز بين النبع والغرب
أضحوا على شعب الجدران في صخب

وللأوائل ما فيه من الذهب
والغث منه صريح غير مختب
أحاد لصا شديد البأس والكلب

وقد يجيء بخلط، فالنحاس له
سمين ما نحلوه من هنا وهنا
يسيء عفأ، فإن أكدت وسائله

شم يقول:

حر الكلام بجيش غير ذي لجب
أسلاب قوم مضوا في سالف الحقب
ويشنّد الناس إيه على رقب

عبد يغير على الموتى فيسلبهم
ما إن تزال تراه لابساً حلاً
شعرٌ يغير عليه باسلاً بطلًا

إلى آخر هذه القصيدة الطويلة التي لا نسمح لأنفسنا بنقل ما ورد فيها من الهجاء المقدع، والفحش الشنيع في مثل هذا المقام، فلترجم إلية القارئ في ديوانه إذا شاء.

ولا تنـس هـجـاء ابنـ الرـومـي لـلـأـخـفـش - أـسـتـاذـ أـبـيـ الفـرج - فـقـدـ كـادـ ابنـ الرـومـيـ يـقـفـ حـيـاتـهـ عـلـىـ هـجـاءـ الـأـخـفـشـ، وـكـادـ الـأـخـفـشـ يـقـفـ حـيـاتـهـ عـلـىـ التـشـنـيـعـ بـهـ وـالـزـرـاـيـةـ عـلـىـهـ، فـلـاـ غـرـوـ أـنـ يـغـرـسـ الـأـسـتـاذـ فـيـ نـفـسـ تـلـمـيـدـهـ بـذـورـ الـكـراـهـيـةـ وـالـبغـضـ لـابـنـ الرـومـيـ - مـنـذـ الصـغـرـ - أـوـ يـغـضـبـ الـتـلـمـيـدـ لـأـسـتـاذـهـ فـيـتـعـمـدـ إـغـفـالـ منـ جـعـلـ هـمـهـ الـأـوـلـ شـتـمـ أـسـتـاذـهـ وـالـتـشـهـيرـ بـهـ «ـوـاقـةـ الرـأـيـ الـهـوـيـ!ـ»

وإلى القارئ شيئاً من هجاء ابن الرومي للأحفش ليتبين صحة ما ذهبنا إليه، قال من قصيدة طوبيلة رائعة:

فَشَّ مَا قَلْتَهُ فَمَا حَمَدَهُ
عَلَى مَبِينِ الْعُمَى إِذَا انْتَقَدَهُ
ثَعَابَهُ كَانَ، لَا وَلَا أَسْدَهُ
تَرْ جَهَّالًا بِكُلِّ مَا اعْتَقَدَهُ
لَمْدَحَهُ؟ فَالذَّلِيلُ مِنْ عَضْدَهُ
لَثَلِيهُ؟ فَالسَّلِيمُ مِنْ قَصْدَهُ

قلت لمن قال لي: عرضت على الآخر
قصرت بالشعر حين تعرضه
ما قال شعراً ولا رواه، فلا
فإن يقل: «إنني رويت» فكالدافت
أرمت زيني بأن تعرضني
أم رمت شيئاً بأن تعرضني

إلى أن قال:

ثم قال بعد أبيات:

و لا سقى قبر والد ولده
أعور جم العوار لو وأدبه!
ما سمع الله حمد من حمده

لَا رَحْمَةُ اللَّهِ أَمْ أَخْفَشُكُمْ
مَاذَا عَلَيْهِ وَقَدْ رَأَى وَلَدًا
سَأْسِمُ النَّاسَ ذَمَّهُ أَبْدَا

وفي هذه القصيدة أيضًا من هجر القول ما لا يسمح بذكره المقام.
وقال من قصيدة أخرى:

لَا يَأْمُنَ السَّفِيهُ بِاَدْرَتِي
عِنْدِي لَهُ السُّوْطُ إِنْ تَلَوْمُ فِي السَّيِّ

وفيها يقول:

ه عليه ونلت منه رضا
يا، وصم الصفا إذا امتعضا
حربي، فما مثله بها نهضا

أضحي مغيطاً على أن غضب الله
قولا له: ينطح الجدار إذا أعت
ولا يحمل ضعيف مئته

إلى أن يقول:

أقسمت بالله لا غرفت له إن واحد من عروقه نبضا

فإذا ذكرنا — إلى ذلك الهجاء المذع — أن في التنويه بابن الرومي إساءة إلى جمهرة من أعيان الدولة، وكبار رجالها الذين هجاهم ابن الرومي أو هجا آباءهم — كما أسلفنا القول — عرفنا السر في هذا الإغفال.

هوامش

- (١) ارجع إلى ج ٩ ص ٢٨ من كتاب الأغانى.
- (٢) ارجع إلى ج ٢٠ ص ٧٢ من كتاب الأغانى.
- (٣) وكان الهجاء سبب قتله.
- (٤) جماعات الناس.

ما رأيك؟^١



^١ من كتاب محفوظات الأطفال الذي لم يطبع بعد، وهذه المقطوعة مترجمة عن الإنجليزية.

عجوز أظهرت دهشاً كبيراً
أتعز كل دهشتها لماذا؟
شرت لقرينها خبزاً، فلما
أدت ألفته مات، فكان مازاً
 فألفته صحا، دهشت لهذا
شرت كفناً له تواً وعادت

أبو العلاء المعري في لزومياته

أبو العلاء رجل سوداوي المزاج؛ معنٌ في السخط على الحياة، بالغٌ في سخته وبرمه مدّى لا يشركه فيه إلا القليل النادر من الفلاسفة المتشائمين.
وهو مطلع واسع الاطلاع على آداب أكثر الأمم التي نقلت آدابها إلى العربية، وعالمٌ
واعٍ أخبارها، صادق حين يقول:

ما مر في هذه الدنيا بنو زمٍنٍ إلا وعندِي من أخبارهم طرف

وهو — مع هذا العلم الغزير بتواريخ الأمم المختلفة، والرواية الواسعة لآدابهم
المتباعدة — محمّص فطنٌ خبير بتمييز الأخبار، دقيق في نقد زائف القول من صحيحه.
وأبو العلاء مفكّر؛ عميق التفكير، ملهم المعنى ملقي الحجة، وعالم من أكبر أساطين
اللغة المشهود لهم بالسبق والتفوق.

وهو — إلى ذلك — شاعر فنان، عريق في الفن، عارف بروائعه، خبير بأسرار
الجمال، مواطن الجلال، وهو حر الفكر واسع الخيال فياض المعاني مشرق الدبياجة
لا يعوقه عن بلوغ غايته شاؤُ، ولا يقف في سبيله حاجز.

هذه الميزات الباهرة هي أول ما يبدهك من شعر أبي العلاء — الحافل بروائع الفن
والفلسفة — حين تقرأ كتاب اللزوميات؛ فتطالعك كل صفحة منه بما يزيدك اقتناعاً
بتلك المزايا العالية التي أفردت لها العلاء فأحّله أسمى مكان بين شعراء العربية جميعاً،
وتعاونت على تكوين شخصيته الجذابة فمازته من بين جبابرة الفكر وأساطين الفن
المبرزين.

وأي روضٍ من رياض الفكر، أحفل بروائع الفلسفة والفن من ذلك الروض الفكري البهيج الذي تتملى به في كل صفحة من صفحات اللزوميات؛ إذ تقرؤها فتطالع فيها سفراً من أسفار الحياة حافلاً بأسمى وأروع ما يبدعه العقل الإنساني، ونتمثل فيها الخواج النفسيّة واضحة جلية، لا لبس فيها ولا إبهام.

اقرأ كل صفحة من صفحات الكتاب بروية وأناء، وأنا الزعيم لك بأنك لن تجد إلا ما حدثتك عنه من الروعة والجلال، فإذا حال دون إمتناعك به كلمة غريبة عنك، أو لفظة تنبو عنها أذناك، فخذار أن تعجل بالحكم على الرجل قبل أن تتثبت من وجهها الصحيح، فليس هذا ذنبه، وليس من العدل أن يؤخذ بتبعته، وإنما إثم ذلك عائد إلى تسرعنا في الحكم أو قلة محسوننا اللغوي، أو عدم إلمامنا بقسطٍ كافٍ من تاريخ الأمم العربية والأمم الأخرى التي أثرت في تاريخها، وفي أدبها معًا، أو قصورنا في درس جغرافية تلك البلاد.

وليس على أبي العلاء إثم إذا عثرت كذلك في شعره بكلمةٍ غريبة، وتبادرت إلى ذهنك كلمة حسبتها أليق منها وأبلغ في أداء المعنى، فمضيت في حكمك لا تلوى على أحد! نعم! فإن الرجل دقيق يعني ما يقول، وليس مغروزاً يولع بالبهرج، ولا منافقاً يكذب نفسه، ولا قليل البضاعة يزجيها عليك؛ ولكنه رجل واسع الفكر بعيد المرمى، وليس أجرد بالروية والأئنة من قارئ الأدب العلائي، فإذا وقع بصرك على مثل قوله:

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته
فقييرٌ موريٌّ، أو أميرٌ مدوجٌ
وقد يرزق المجدود أقواتٍ أمّةٍ
ويحرم قوتاً واحداً وهو أحوج

فتتباذر إلى ذهنك أن كلمة «مدوج» ثقيلة على السمع، وأن التزامه الإغراب هو السر في التجاهم إليها، وأنه كان جديراً أن يقول بدلها «متوج». وما أليق هذه الصفة بالأمير! وما أخفها على السمع وألطف مدخلها في القلب...!
فترثث قليلاً، وانظر إلى المعنى — بعد أن فتنك بهرج اللفظ — وخُبِّرنِي بعد ذلك:
«أيقابل عري الفقير تاج الأمير؟» وقل لي بربك: «كم تفقد تلك الصورة الشعرية من الجمال إذا وضع هذا اللفظ بدل ذاك؟»

إذن فقد أراد أبو العلاء اللفظة الأولى، وقصد إليها قصداً، ولو كان يتكلم نثراً لأتى بها ولم يرض عنها بديلاً، وما أروع تلك الصورة الشعرية الجميلة التي تتمثلها في هذا البيت الدقيق؛ إذ «ترى الشتاء زاحفاً بقرّه ومطره وزمهريره، وترى فقيراً باسساً يستقبل هذا الفصل القاسي عارياً لا يجد ما يدفعه أو يقيه غائلة البرد، ثم ترى – إلى جانبه – أميراً مثرياً متدرّباً بلحاف فوقه لحاف، لا يكاد يشعر بألم البرد القارس أو يحس زمهريره. وترى في البيت الثاني مجدواً، تكست أمامة أقوات أمة بأسرها؛ وإلى جانبه مسكين قد حرم قوت يومه!»

حسبنا هذا المثل من أمثلة عديدة يعيينا استقصاؤها ولا يتسع الوقت لذكرها، ولكن حذار أن يدخل في روعك، أو يدور بخلدك – لحظة واحدة – أتنا ننزع أبا العلاء عن الزلل؛ وأننا نطلق القول إطلاقاً، فنعصمه من كل خطأ أو نزعم له شيئاً من ذلك، فإنما هو إنسان قبل كل اعتبار وبعد كل اعتبار.

ولكن كل ما نقوله: «إننا أَلْفَنَا منه الدقة والإحكام؛ ولم يعُودنا الثرثرة، والهذيان، وإننا وضعنا في البوتقة جُلَّ ما قدمه لنا من المعادن؛ فألفيناه ذهباً حالصاً غير مختلط بنحاس، فإذا شذ من ذلك شيء فهو الفكر الإنساني الذي لا يسلم صاحبه من عثارٍ أو كبوةٍ إلى الأرض – أبناء تحليقه في سماواته العلي – وهو الشعر كالشجر:

ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشك بينه الثمر

ونوجز فنقول: «إننا إذا عدنا نخبة المفكرين، وال فلاسفة المعودين الذين تركوا أوضح أثر في تاريخ الفكر الإنساني والذين هم أبعد الناس عن الإسفاف واللغو، فإن أبا العلاء بلا شك يكون في أعلى ذروة يجلس فيها أساطينهم وجبارتهم». وهذا كلام نؤكد للقارئ أتنا نعنيه تماماً وأتنا نقوله جادين، وأننا أبعد الناس عن المبالغة حين نقرره.

فليس يمتري أحد درس أبا العلاء حق دراسته في أنه قد خط للشعر العربي طريقاً جدية فلسفية، وأنه قد أودع لزومياته أسمى المبادئ الاجتماعية، وأرقى أساليب النقد الصحيح، والسخرية الخفية اللاذعة، والدعاية القاسية التي تحوي الجد المر بين ثناياها، والتي تكشف عن النفس الإنسانية، وعن الطبيعة الخالدة سجفها، وأستارها الكثيفة؛ فتجليها في أبهى حلتها، وتطلع الإنسان على أخفى خفاياها.

وهذه الميزات الباهرة التي نكبرها في «أبي العلاء» والتي نعجب بأدبه من أجلها وندعو الناس إلى الإقبال على آثاره الخالدة؛ ليتمتعوا أنفسهم بها، هي وحدها السر في عزوف فريق الأدباء الجامدين عن كتب أبي العلاء، وبغضهم للأدب العلائي والفلسفه العلائيه، فإن أذهانهم الضيقه لا تتسع لفهم معانيه العميقه، وتصورهم الحرجه لا تنفسح لحرفيته البعيدة المدى.

ولا غرو إذا عجزوا عن فهم شعره فنتقصوه وعابوه، فقد ألفوا من الشعر لغواً وهذياناً، ودعابةً، وتردید معانٍ سخيفٍ أنهكها التكرار الممل، ونوعاً من الشععبدة الكلامية تلتئم مع طبائعهم المسوخة وأذهانهم المتلوية الفاسدة. وما أجر هؤلاء أن يبغضوا شعر أبي العلاء ويعزفوا عنه! وما أخلفهم أن لا يصدعوا أدمغتهم بجده القاسي الذي لا تحتمله أذهانهم اللطيفة!

إذا كان لا بد لهم أن يحفظوا شيئاً يتذرون به من كلام أبي العلاء ليتمموا به سلسلة محفوظاتهم الأدبية، فأمامهم بعض قصائد قالها في أول حياته الأدبية — في كتاب سقط الزند — وتبرأ منها في مقدمته؛ كقوله مثلاً:

إذا خفت لمغربها الثريا توقّت من أسنته اغتيالاً

وقوله:

ولو أن الرياح تهب غرباً وقلت لها: «هلا» هبت شمالاً
وأقسم لو غضبت على ثيبر لأنزع عن محلته ارتحالاً

وقوله:

يذيب الرعب منه كل عضٍ فلولا الغمد يمسكه لسالا

وقوله:

وكأن الهلال يهوى الثريا فهما للوداع معتنقان

وقوله:

وعلى الأفق من دماء الشهيديـ نـ عـلـيـ وـنـجـلـهـ شـاهـدـاـنـ

إلى آخر ذلك الهدر والعبث الذى يلائم مزاج تفكيرهم وأسلوبهم.

على أنهم سيجدون — حتى في هذه القصائد الأولى وأشباهها — بعض أبيات فلسفية رائعة تتغاضهم في شعر أبي العلاء، وتستدر نقمتهم على أدبه! ولكن ما لنا ولهذه الفئة الأممية الفكر الحقيرة الشأن، وقد أوشكت تنكرض وسمعنا صوت احتضارها الخافت، لا شأن لنا بهم بعد أن اكتسحت نهضتنا المباركة أكبر زعمائهم — فيما اكتسحته — وستأتي على الباقيين منهم في القريب العاجل! فلنترك إذن هذه الفئة تحتضر، ولنفبط برواج الأدب الحي، وانتشار الفن الصحيح بين أبناء الشرق الناهض، فليس أدعى إلى الاغتناب من نقاد طبعات ثلاثة من هذا السفر الأدبي النفيس، وشدة الإللاح المتواصل في طلبه. وما أجر الأدباء بذلك، وما أجر الأدب العلائي أن يجذب إليه أنظار المفكرين في هذا العصر الناهض الحافل بالجد والحياة! وأخلق بذلك الإقبال أن يتخذ دليلاً لا يقبل الشك، على صدق نهضة الشرق، وعنائه بالأدب الصحيح، والفن العالي! وفي بعض هذا ما يفسح مجال الأمل في رقيه، ويدعو إلى التفاوؤل الصادق بنجاح سعيه، وإدراك غايتها النبيلة التي يسعى إليها بخطواته السديدة، فقد فرغ الباحثون من التدليل على أن كل نهضة لا تعتمد على الأدب زائفه وشيكة الإخفاق، وأن الأدب الصادق أساس كل نهضة حقة، ورائد كل حركة قومية منتجة.

وأي أدب أصدق من الأدب العلائي الذي يحوي لب اللباب، ويشرح أخفى الخوالج الإنسانية، ويوضح أدق وأسمى إحساسات النفوس العالية؟

ظلي^١

أنت يا ظلي رفيق عمري
أنت يا ظلي عجيب الأمر
كم تطول
ثم تبدو غاية في القصر
أو تزول
ثم تعود — بعدها — في أثري

* * *

إن ظلي مشبهي كل الشبه
كلما استيقظت ألفيه انتبه
قافزًا خلفي — طورًا — وأمامي
صامتًا لم يدر ما معنى الكلام
حركاتي كلها يأتي بها لا يبالي سهلها من صعبها

* * *

أنت قد حيرتني في أمري
أنت خلفي — حين أجري — تجري
أنت — إن أبطئ — بطيء السير

^١ من كتاب محفوظات الأطفال، وهذه القطعة مقتبسة من الإنجليزية.

الوعظ القصصي

أي نفع لك؟ لست أدرى

الخسوف والكسوف^١

(١) ذعر الأقدمين منهمما — وبضع أساطير الأولين عنهمما

لا نكاد نسمع — في هذه الأيام — بقرب حدوث خسوف أو كسوف؛ حتى نترقبه بفارغ الصبر، فإذا وقع اندفعنا إلى رؤيته متهافتين تحفزنا الرغبة العلمية الصحيحة، أما في غابر الأزمان فقد كان للناس شأن آخر — على نقىض ذلك — إذ لم يكونوا يفهمون لحدوثرهما معنى؛ إلا الإنذار بوقوع نكباتٍ وويلاتٍ عاجلة.

أثر الخسوف في جيش الإسكندر

ولقد كاد يتحتم الفشل على الإسكندر في موقعة «إربل»، وكاد يكتب لجيشه الخذلان بسبب الخسوف؛ إذ جنَّ الليل، وخسف القمر على مرأى من رجال الجيش الذين أيقنوا أنه نبوءة صادقة بالهزيمة؛ فدبَّ الخوف في قلوبهم، وسرى الوهن والفتور إلى عزائمهم، لولا ما بذله الإسكندر من جهد في تسكين روعهم، وإعادة الحماسة إليهم، وليس هذا إلا مثلًا واحدًا لما كان يسود الناس في تلك الأزمان من الأوهام التي نجمت عن جهلهم علم الفلك، وقوانين الطبيعة.

^١ قدمت مجلة الإخاء هذا المقال بالكلمة التالية: «هذه إلمامة رائعة تمثل ذعر الأقدمين من الخسوف والكسوف، وبعض أساطيرهم العجيبة التي كانوا يتناقلونها ويعملون بها حدوثهما، وهي — إلى طرائفها — تلخص لنا رأي الأقدمين في الخسوف والكسوف، واعتقادهم في الشمس والقمر، أحسن تلخيص».

أثر الخسوف في نجاح كولب

ويذكر لنا المؤرخون الذين كتبوا عن اكتشاف أمريكا، أن «خرستوف» مدینُ بحياته وحياة رجاله لعلم الفلك، ولولاه لاتوا جوغاً، فقد نفت ذخيرتهم في «جمايكا»، وضن عليهم الأهلون بالزاد لما كانوا يشعرون به من الكراهة لهؤلاء الغرباء، وكان «كولب» يعلم أن القمر لا بد أنه مكسوف في الليلة التالية؛ فجمع رؤساء العشائر وخطبهم متوعداً إياهم بشر النكبات إذا أصرروا على عنادهم وأبوا أن يلبوا طلبتة، ومما قاله لهم: «سترون غداً مبلغ سلطاني على الطبيعة؛ حين أبدأ بحرمان بلادكم ضوء القمر!»

والحق أن رؤساء القوم قد ساورهم القلق حين سمعوا منه هذا الوعيد، وتملك نفوسهم ذعرٌ غامض لا يعرفون كنهه، فقد كانوا يخشون سطوة هؤلاء البيض الذين جابوا الأرض والمحيط حتى وصلوا إليهم، على أنهم أخفوا ذلك القلق، وأظهروا «لkulib» كثيراً من التجدد؛ إذ لم يدُر بخلدهم أن قوتة – مهما عظمت – تستطيع أن تغير من نظام الشمس أو القمر؛ فخرجوا من عنده يهزون أكتافهم ساخرين.

فلما حانت الليلة التالية ورأوا بأعينهم ضوء القمر يتضاءل ثم يتلاشى بعد ذلك خلع الذعر قلوبهم؛ فأسرعوا ضارعين إلى «كولب» أن يرفع عنهم تلك النقمـة. وبهذه الحيلة ظفر «كولب» بكل ما يحتاجه من الزاد بعد أن وعدهم بإرجاع الضوء إلى القمر في الحال، وما كادوا يبصرون البدر مؤتلاً زاهياً في السماء بنوره الفضي حتى آمنوا بقدرة «كولب» وهيمنته على عناصر الطبيعة كلها.^۱

أمثلة من خرافات المتقدمين

ولقد كان المتقدمون – سواء منهم الغربيون والشرقيون – يذعون أشد الذعر كلما وقع كسوف أو خسوف، وكان للخرافات عندهم سوق رائجة؛ وإليك بعض ما كانوا يتناقلونه ويؤمنون بصحته من تلك الأساطير:

كان يعتقد بعضهم أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا إذا وقعا فريسةً لشرير من العمالة أو المرة التي تسعى لاتهامهما، فكان «الأوريون» ينسبون ذلك إلى مارد عملاق اسمه «مابوبيا»، يعزون إليه كل ما يصيبهم من شر أو يحل بأرضهم من طوفان أو بلاء، بينما يتخيل «الهنودوس» أن ذلك المارد على صورة حية هائلة، ويعتقد جيرانهم أنه نمر غاية في الضخامة، ويتمثله آخرون كلباً عظيم الجرم من كلاب البحر؛ أما أهالي

سومطرة وملقا فكانوا يدينون بأن القمر والشمس لا ينكسفان إلا لأن حية كبيرة تلتقي حول أحدهما لتخنقه.^٢

وفي أسطoir بعض الأمم «أن الشمس والقمر امرأتان، وأن النجوم بنات القمر، وأن الشمس قد كان لها في غابر الزمان ببنات كبنات القمر».

قالوا: «ثم خشيتا^٣ أن يعجز الناس عن احتمال كل هذا النور والحرارة؛ فاتفقنا على أن تأكل كل منها بناتها، أما القمر فنكلت بعهدها، وأخلفت بناتها عن عين الشمس التي برّت بوعدها ولم تتردد في أكل بناتها، على أنها لم تك تفعل حتى أظهرت القمر بناتها من مخبئهن؛ فلما رأت الشمس ذلك غيظت من القمر، وأنشأت تطاردها لقتلها، ولا تزال كذلك إلى اليوم، وقد تدنو منها فتعوضها وهذا هو الخسوف».

رأي الهند في النيرين

«ومن سنة بعض حكماء الهند — فيما يقول الشهيرستاني — أنهم إذا نظروا إلى الشمس قد أشرقت سجدوا لها، وقالوا: «ما أحسنت من نور! وما أبهاك وما أنورك! لا تقدر الأ بصار أن تلذ بالنظر إليك!»

فإن كنت أنت النور الأول الذي لا نور فوقك فلك المجد والتسبيح، وإياك نطلب، وإليك نسعى لندرك السكنى بقربك، وننتظر إلى إبداعك الأعلى، وإن كان فوقك وأعلى منك نور آخر — أنت معلول له — فهذا التسبيح وهذا المجد له، وإنما سعينا وتركتنا جميع لذات العالم لنصير مثلك، ونلحق بملكك، ونحصل بمساكنك. إذا كان المعلول بهذا البهاء والجلال فكيف يكون بهاء العلة وجلالها ومجدها وكمالها؟! فحق لكل طالب أن يهجر جميع اللذات ليظفر بالجوار بقربيه، ويدخل في غمار جنده وحزبه».^٤

وفي الهند فرقتان تعبد إحداهما الشمس، والأخرى القمر:

عبدة الشمس: «فأما عبدة الشمس — كما يقول الشهيرستاني — فقد زعموا أن الشمس ملك من الملائكة، ولها نفس وعقل، ومنها نور الكواكب وضياء العالم، وتكون الموجودات السفلية، وهي ملك الفلك يستحق التعظيم والسجود والتخير والدعاء.

ومن سنتهم أن اتخذوا إليها (صنمًا) بيده جوهر — على لون النار — وله بيت خاص باسمه، وقفوا عليه ضياغاً وقرابين، وله سدنة وقوام، فيأتون البيت ويصلون ثلاث كرات، ويأتيه أصحاب العلل والأمراض فيصومون له ويصلون ويدعون ويستشفون به».??

عبدة القمر: «وأما عبدة القمر، فقد زعموا أنه مَلِكُ من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبر هذا العالم السفلي والأمور الجزئية فيه، ومنه تتضح الأشياء المكونة واتصالها إلى كمالها، وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات، وهو ثلو الشمس وقرينها، ومنها نوره، وبالنظر إليها زيادته ونقصانه.

ومن سنتهم أن اخذوا صنماً — على صورة عجل — وبيد الصنم جوهر. ومن دينهم أن يسجدوا له ويعبدوه، وأن يصوموا النصف من كل شهر ولا يفطروا حتى يطلع القمر، وهم يأتون صنمه بالطعام والشراب واللبن، ثم يرغبون إليه، وييذرون إلى القمر ويسألونه حواجهم، فإذا استسهل الشهر علوا السطوح، وأوقدوا الدخن، ودعوا عند رؤيته ورغبوا إليه، ثم نزلوا عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح والسرور، ولم ينظروا إليه إلا على وجوه حسنة.° وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار؛ أخذوا في الرقص واللعب والمعازف بين يدي الصنم والقمر».??

كيف كانوا يدفعون عنهم نكبات الخسوف والكسوف

وهكذا كثرت الإشاعات، وتعددت الأوهام، فلم تسلم منها أمة قديمة من سكان المعمورة كلها.

أما الوسائل التي كانوا يدفعون بها تلك النكبات الموهومة التي يتربون وقوعها زمن الخسوف أو الكسوف فهي كثيرة؛ أهمها أنهم كانوا يتظاهرون — رجالاً ونساء — ثم يحدثون أقصى ما يستطيعون من جلة وضوضاء؛ ليخفوا تلك الجبارية — أو المردة — التي تحاول التهام الشمس أو القمر، فكنت ترى — في حيثما ذهبت — رجالاً يحمل معه طنبوراً أو بوقاً، وإلى جانبه امرأة أو فتاة معها دف — أو ما يقوم مقامه إن أعزها الدف^٦ — وربما ربط بعض الأمم كلابهم وانهالوا عليها جلداً بالسياط بكل ما فيهم من قسوة حتى يرتفع عواوتها إلى عنان السماء.

أما الصينيون فكانوا يضيفون إلى ذلك خروج جنودهم إلى ساحات الفضاء متذكرين أقواسهم فلا يزالون يطلقون سهامهم — بلا انقطاع — رغبةً في إنقاذ الكوكب المخسوف.

وقد كان بعض المقدمين يعلل الخسوف والكسوف — فيما يقول مؤرخو اليونان والمشاركة — بأنه ناجمٌ من طوفان أتي من الجحيم؛ فغم الشمس أو القمر وسيب

الكسوف، وكان هذا الاعتقاد يدفعهم إلى دق النواقيس — في كل مكان — استنزاً للرحمة، وطرداً لتلك الأرواح الشريرة التي سببت لهم هذا البلاء.

وكان من عادة الإيطاليين أن يلجهوا إلى ذلك حتى في أوقات اشتداد العواصف. ولم يكن الفرنسيون أقل هلعاً من غيرهم عند حدوث الكسوف، فلم تك تنكسف الشمس في يوم ١٦ يونيو سنة ١٤٠٦ حتى انخلعت قلوبهم من الذعر، وهرع جمهورهم إلى الكنائس معتقدين أن آخرة العالم قد حانت، مؤثرين أن يموتون في الكنائس شهداء أبداً، ولم يكن ربّعهم من الكسوف الذي وقع في شهر أغسطس من عام ١٦٥٤ بأقل من سابقه، ولقد مرض لويس الرابع عشر ملك فرنسا العظيم مرضًا خطيرًا بسبب ما لحقه من الرعب من كسوف ٣ مايو سنة ١٧١٥

وكان ذلك خاتمة الحوادث التي أثارها الكسوف والكسوف، ثم استثار الناس وعلموا حقيقة هذه الظاهرة، فلم يعد يخشاها أحد!

(٢) ابتهاج المتأخرین بهما

ولم يك يتقدم علم الفلك حتى عرف الناس ما لم يكونوا يعرفون، وأدركوا ما في تلك الأساطير من خطأ؛ فتبذل خوفهم أمّاً وطمأنينة، ماذا؟ بل انقلب الأمر من التقىض إلى التقىض؛ فأصبحوا يتربّون — بفارغ الصبر — رؤية الكسوف والكسوف، وأية ذلك ما أظهروه من الغيطة والفرح بالكسوف الذي وقع في باريس يوم ٢٢ مايو من سنة ١٧٢٤؛ فقد حدث ذلك قبيل الغروب، وكان بدئه في الساعة ١٨:٣٥:٥ مساء، وقبل أن تنقضى ساعة أصبح الكسوف تاماً، وغطت صفة الشمس كلها بظلام دامس؛ فبدل النهار ليلاً حالك الإهاب، وظهرت النجوم في السماء، ولكن فرح الجمهور المتلهف لم يطل، فقد أرخي الليل سدوله — بعد دققتين — قبل أن يتملى الناس برؤية هذا المنظر الرائع — منظر خروج الشمس من ذلك الظلام الحالك الذي غطى صفحتها — فقد توارت عن العيان، ومالت إلى الأفق الغربي بين أسف الجمهور ولهفته، وكان رجال البلات قد أعدوا عدتهم لرؤية ذلك الكسوف، وجلسوا في أعلى مكان في القصر الملكي — ومعهم نظاراتهم الفلكية — وفي وسطهم الملك الشاب «لويس الخامس عشر»، وكانت سنُه حينذاك أربعة عشر عاماً، وجلس إلى جانبيه الفلكلان الشهيران اللذان يعدان أكبر رجال الفلك في ذلك العصر؛ وهما «جاك كاسيوني» و«جاك مور الدي»، فكان لويس يشهد ذلك الكسوف من خلال مركب كبير أمامه، وكان يسمع منها غرائب ما يشرحان له من طرائف علم

الفلك بأذنٍ سميحة وقلبٍ واعٍ، ولم يكُن ينتهي ذلك الكسوف حتى أعقبته فكاهة طريفة ظلت حديث عصره ردحاً من الزمن: فقد رأى الملك سيدتين من سيدات البلاط تقبلان في اللحظة التي غربت فيها الشمس، فقال لهما مازحاً: «لقد فاتكم هذا الكسوف، فانتظرا الكسوف التالي بعد قرنين». ولكن إدحافهما ابتدتره قائلةً بسذاجة نادرة: «كيف؟ ألا يستطيع «كاسيني» الفلكي إذا أمرته جلالتكم أن يعيد لنا تلك الظاهرة من جديد؟» فأغرب الملك في الضحك وتبعه رجال حاشيته في ذلك مجازاً له، ولم يفتأ أحد ظرفاء ذاك العصر أن ينظم أغنيةً جميلةً ضمنها تلك النادرة!

وقد شغل الناس بالحديث عن ذلك الكسوف زمناً ما؛ فنسوا كل كلام سواه، وعلقوا على صدورهم شارات رمزوا بها إلى الكسوف، وصنعوا ألواناً من الحلوى أطلقوا عليها اسم الكسوف؛ منها رقاقة ابتكرها تاجر من تجار الحلوى أسمهاها «رقاقة الكسوف»، وهي رقاقة بيضاء مغطاة بطبقة سوداء من الشوكولاتة، رمزاً إلى نور الشمس المكسوف، كما مثّلوا على المسارح كوميديا ذات ثلاثة فصول اسمها كوميديا الكسوف! وفي هذا أكبر دليل على مقدار ما وصل إليه ابتهاج المؤاخرين بالكسوف واحتفائهم بوقوعه.

على أن الفلكيين كانوا في حاجة إلى الاستزادة من الدرس؛ فأخذوا يتربون بفارغ الصبر وقوع كسوف آخر.

ومضى على ذلك ثلاثة أرباع قرن سهلت في أثناها المواصلات، وأصبح من اليسير على العلماء أن يسافروا إلى أي مكان يقع فيه الكسوف، فلم يفتقهم أن يذهبوا إلى أواسط فرنسا لمشاهدة كسوف ٨ يوليوز ١٨٤٢، ولمشاهدة الكسوف الذي وقع في «الماليزيا» و«الهند» في ١٨ أغسطس سنة ١٨٦٨. ورحل العلماء من كل صوب لرؤية الكسوف الذي وقع في إسبانيا وشمال أفريقيا في ٣٠ أغسطس سنة ١٩٠٥، وكان كسوفاً كلياً توفروا على درسه بروية واطمئنان.

وفي السابع عشر من شهر إبريل سنة ١٩١٢؛ وقع في فرنسا كسوف لا يقل خطره عن كسوف سنة ١٧٢٤ الذي أسلفنا ذكره؛ فخفَّ سكان باريس وغيرهم إلى مشاهدته في الضواحي؛ لا سيما في منطقة «سان جerman».

فضل الطيران على رجال الفلك

ولا يفوتنا أن نذكر — قبل ختام هذا المقال — أولاً فضل أداة الطيران لرجال الفلك، وكيف أعادهم على درس الكسوف الذي وقع في ١٠ سبتمبر سنة ١٩٢٣ في « كاليفورنيا»؛ حيث ذهب العلماء من أقصى الأرض رغبة في درسه، ولقد كاد يعتريهم الخبال ويستسلمون لللناس؛ حين رأوا الضباب يحجب عنهم السماء وشمسها فلا يتبيّنون شيئاً، ولكن العلماء تمكنوا بفضل الطيارات من اجتياز هذه العقبة؛ فحلق سرب مؤلف من سبع عشرة طيارة إلى ارتفاع خمسة آلاف متر، ثم تمكنوا من رؤية السماء، وتصويرها، ونجحوا في إدراك ما يبتغيون.

ومع تلك الدgence الحالكة التي سببها الضباب، فإن العلماء لم يوفقا في حياتهم إلى مثل ما وصلوا إليه في هذه المرة — بفضل الطيران — من النتائج الباهرة!^٧

هوماش

(١) من ألطاف ما يرويه لنا المؤرخون عن كولب أنه رسا ذات يوم على بعض سواحل أمريكا، وبينما هو جالس مع أهل تلك الجهة ألقى عليهم بعض الأسئلة؛ فلما أجابوه طلب إلى كاتبه أن يكتب ما قالوا فعل، ولم يكدر يراه القوم سطراً بقلمه على الورق حتى ذعروا وفر أكثرهم من المجلس؛ لاعتقادهم أنه ساحر يخط رموزاً من السحر، وقد بذل كولب جهده حتى تمكن من إقناعهم بالبقاء.

(٢) وفي قصة «سيف بن ذي يزن» أسطورة ممتعة عن دابة هائلة الجرم «من دواب البحر» مولعة باختطاف الشمس، يصفها الشيخ «جواد» راوي تلك الأسطورة فيقول: «واعلم يا ولدي أن هذه الدابة خلقها الله وشغلها بالشمس، فإذا نظرتها — وهي مشرقة من الشرق — دارت بوجهها تروم اختطافها فلا تلحقها، فتخبط رأسها بالأرض حتى تندفع، فيدركها النوم فتنام حتى يحين موعد شروق الشمس، فتفيق الدابة من نومها فنجد الشمس قد ظهرت من المشرق فتنحرف إليها تريد اختطافها ف تكون الشمس قد ارتفعت، فتدور معها وهي ناظرة إليها إلى أن تغرب ... وهكذا».

ارجع إلى «ج ١ ص ٧٤» من القصة.

(٣) ليلاحظ القارئ أن الشمس والقمر في هذه الخrafة امرأتان، وأن الضمير يعود عليهما — لذلك — مؤنثاً.

- (٤) الشهستانى.
- (٥) لا يزال بعض الناس إلى اليوم لا ينظرون إلى القمر في أول استهلاكه الأعلى
وجه من يحبونه تفاؤلاً منهم بذلك.
- (٦) ولا تزال هذه العادة شائعة في أغلب القرى المصرية إلى اليوم بعد أن دخل فيها
قليل من التغيير.
- (٧) اقتباس وترجمة.

آلام الفقر^١

سألني الغني: «مَمْ يتألمُ الفقير؟» فأجبته أَن اتبعني — حيث أقودك — وأنا الكفيل
بإقناعك!

كنا في المساء، وكان منظر الطرقات — التي تراكمت على أرضاها الثلوج — يدعو إلى الانقضاض والوحشة، وكنا مرتدین لباساً سميكًا أحکمنا دثاره لشدة البرد، ولكن ذلك لم ينقذنا من قشريرته.

وإذا بشيخ مسنٌ مررنا به في طريقنا، ولم يكن في رأسه إلا خصلٌ قليلة من الشعر الأبيض، فسألته: «ما الذي أخرجك من بيتك؟ وماذا تعمل في هذه الليلة القراءة؟» فأجابنا: «حقاً إنها ليلة قاسية البرد؛ ولكنني لم أجد وقوداً في بيتي فاضطربت إلى مغادرته واستجداه الناس المעונה.»

ورأينا طفلة صغيرة عارية القدمين، تسأل الناس بصوت مرتفع جريء، فسألتها: «وماذا تصنعين هنا في هذه الريح الصرير؟»

فقالت: «إن أبي لا يستطيع مغادرة البيت الآن؛ فقد ألمه المرض فراشه، وثم اضطررت إلى الخروج أستجدي الناس لعلي أحصل على بُلْغةٍ^١ من العيش.»

^١ الشاعر الإنجليزي الذاهب الصيّت «سوندي».

ورأينا امرأة جالسة على صخرة تستريح، وعلى صدرها طفلة، وفوق ظهرها أخرى،
فسألتها: «وما الذي أخرجك في هذه الريح العاتية؟»
فالتفتت إلى طفلها الذي كان من خلفها، وأمرته أن يكُفَّ عن صياحه، ثم قالت
لنا: «إن زوجي جندي طَوَّح به القدر إلى مكانٍ قصيٍّ، فلم أجد مندوحة عن الذهاب إلى
الكنيسة متكتفةً».»

وهنا ألقتُ إلى صاحبي الغني — الذي وقف حينئذ واجماً — وقلت له: لقد سألتني:
«ممَّ يتَأْلَمُ الْفَقِيرُ؟».«
وقد أجابك كل هؤلاء!

(١) صحبة الكرام^٢

في طاقة الزهر مع القرنفل
ومن يصاحب ذا كمال يكمل

شقاقي النعمان ضَمَّتْ مِرَّةٍ
فاكتسبت — في لحظة — من طيبة

(٢) فخر المجد^٣

ولكنني — على صغرى — مجد
 وأنشط — نحو غايتها — وأعدوا
يُثْبِطُونِي عن العلياء جهد
إذا لم يغنه فهمُ ورشد
ليعرف قدره إن جد جد

أنا لا زلت تلميذاً صغيراً
أسير إلى العلا سيراً حثيثاً
وليس يضيرني صغرى، إذا لم
وما يغبني التي طول عرض
فليس يقاس إنسان بشبرٍ

* * *

ولكن هل له في النفع حد؟
به وهو الذي ما منه بد
قليل النفع يعجب حين يبدو

ونبت القمح مرتفع قليلاً
هو القوت الذي نحيا جميعاً
وقد يعلو سنابله نباتٌ

وَمَا هُوَ - رِفْعَةٌ - لِلْقَمْحِ نَدِ
وَإِخْلَاصٌ يَحْلِيهُ وَكَدِ

* * *

وَقَدِمًا أَحْرَزَ السَّبِقَ الْمَجْدَ
وَأَسْهَرَ لِلْعَلَا وَالْمَجْدَ بَعْدَ
وَحْسِبِيَّ - غَايَةً - شَرْفًا وَمَجْدًا

وَسُوفَ أَكُونَ مِثْلَ الْقَمْحِ نَفْعًا
نَعَمْ، وَأَحَبُّ فَعْلَ الخَيْرِ جَهْدِي
وَتَدْرِكَ هَمْتِي شَرْفًا وَمَجْدًا

(٣) أثر المصارحة^٤

السيد: هل لي أن أتعرف منك يا «جاك»، ما يقوله الناس عنِّي؟

جاك: نعم يا سيدي، متى وثبتت من أن ذلك لا يحتاج بحالٍ ما!

السيد: كلا، لن يضايقني أبدًا.

جاك: عافني من هذا، فإبني على يقين من أنه سيغضبك إغضاباً.

السيد: لا، أؤكّد لك لا ... إنه على العكس من ذلك، سيسريني إذ أعرف ما يقال

عنِّي.

جاك: إذا كانت تلك هي إرادتك فإبني مصارحك القول يا سيدي: إن الناس
ليسخرون منك في كل مكان.

وإنهم ليقذفونك بمئات من النكات من كل صوبٍ، وليس أتم لسرورهم، وأدعى
لتفكهتهم من روایة الكثير من الملح والنواذر التي لا نهاية لها عن بخلك المزري.

فيبينما يروي عنك أحدهم أنك تُعنى بطبع تقاويم خاصة تضاعف فيها أيام الصيام

المفروضة؛ لترجم عشراءك على عدم تناول طعام عندك في خلالها.

إذ يحدّث عنك آخر أنك على استعداد دائم لخلق شجار بينك وبين خدمك في صبيحة

اليوم الذي تطردهم فيه؛ لتجد لك بذلك مندوحةً لحرمانهم من أجورهم.

ويقص علينا ثالث أنك كسرت رجل قطة جارك؛ لأنها أكلت فضالة فخذ شاتك.

ويقول عنك رابع: إنك تسللت ذات ليلة لتسرق علف خيلك، ففاجأك حوزُك -

الذي كان عندك قبلي - فضربك بهراوته في الظلام. لا أدرىكم ضربة من الضربات

التي تحملتها مؤثراً لا تقول لأحد عنها شيئاً.

وبعد، أتريد أن أقرر لك أن الإنسان لا يكاد يهتدي إلى جهة واحدة يومها دون أن يسمع عنك ما تتواء بحمله من المطالب؟
فأنت المثل السيء، وأنت الأسطورة المضحكه التي يتلهى بها الناس، وأنت من لا يتكلم عنه أحد دون أن ينعته بالشحيم، الوغد، البشع، رمز الدنيا!
السيد يضرب جاك مغضباً: إنك لأحمق، خبيث، مختبل العقل.
جاك: لا بأس من ذلك، ولكن ألم أتنبأ بهذه النتيجة من قبل؟ على أنك لم تشا أن تصدقني حين أكدت لك القول بأن تقرير الحقيقة لا بد مهتاجك!
السيد: تعلَّم كيف تقول!

هوامش

- (١) ما يتبلغ به من الزاد.
- (٢) عن الفرنسية.
- (٣) من كتاب محفوظات الأطفال، وهي مترجمة عن الإيطالية.
- (٤) حوار ممتنع بين سيد وحوذيه، وظرفة مختارة من رواية «البخيل»، للكاتب الفرنسي الخالد «مولير».

فن الكتابة أو كيف ندرس فن الإنشاء^١

اقتباس وترجمة

ليست الصعوبة — التي تعترض الكاتب أو الشاعر — في أن يكتب أو ينظم في أي موضوع شاء؛ بل الصعوبة كلها في أن يقول ما يعنيه بالضبط في هذا الموضوع.

هكذا يقول بعض كتاب الإنجليز وأساطير مدرسي الإنشاء، وقد استشهدنا بهذا القول في مقدمة ديوان ابن الرومي حين عرضنا للكلام على دقته التي امتاز بها في شعره، كما استشهدنا بقول الشاعر العربي:

وَفَضَلَّنِي فِي الْقُولِ وَالشِّعْرِ أَنْتِي
أَقُولُ عَلَى عِلْمٍ، وَأَعْلَمُ مَا أَعْنِي

وهذه هي الغاية الجليلة التي يجب أن يفوق إليها كل رام سهامه و يجعلها نصب عينيه وحفل أذنيه، وهي الغاية التي نريد أن نبين الطريق المؤدية إليها، تاركين الكلام إلى أساتذة التربية، وكبار المنشئين الذين قضوا حياتهم في تدريس هذا الفن الجليل،

^١ فصل مختار من كتاب للمؤلف بهذا العنوان لم يطبع بعد.

ملخصين آراءهم حيناً، ومقتبسين بعض عباراتهم حيناً آخر؛ رغبة في الاختصار الذي تتحمّه علينا هذه المقالات الموجزة، وإلى القارئ خلاصة هذه الآراء:

(١) تمهيد

أول ما نرمي إليه بتأليف هذا الكتاب هو أن نرسم لطالب الإنشاء خطة واضحة المحجة، ونبين له منهاجاً يتّسّم خطاه؛ ليصل إلى غايته رأساً، دون أن يضيع وقته عبّاً في تمارين، لا نقول: إنها عديمة الفائدة فحسب، بل إنها — على الحقيقة — عائق يقف حجر عثرة في طريقه، ويحول دون نجاحه في الكتابة الصحيحة التي ينشدّها.

أما التمارين التي نعنيها بهذا النقد فهي تمارين الإعراب، وتصريف الكلمات، وحل الجمل حلاً لفظياً لا طائل تحته، فهذه — في نظرنا — وسيلة عقيمة بين الخطأ محققة الفشل، وهي كالمستنقع الضحاض الملوء بالوحش، لا يستطيع السالك أن يسبح فيه أو يمشي.

ولبعض المؤلفين ولع شديد بإرهاق النشاء بما يكتسه أمامهم من القواعد النظرية التي يحاول أن يقرّرها في أذهانهم ويجعل منها ضابطاً لا معدى للطالب عنه ولا مفر من اتباعه، وليس ذلك من همنا، فلتترك النظريات التي يستحيل اتباعها عملياً مولين وجهنا شطرًا آخر؛ فنعمل على أن نثبت أقدامهم، ومنكّنهم من الكتابة التي تجمع بين الرشاقة والقوة، وتكون — إلى ذلك — خالصة من الشوائب دقة التعبير حسنة الأداء.

للوصول إلى هذا طريق عملية واحدة؛ هي الإكثار من التمارين الإنسانية، إلى حد قد يظنه البعض غير ضروري، أو يرى فيه إسرافاً لا داعي إليه — إسرافاً في الجهود وإسرافاً في الزمن — ولكن سلوك هذه الطريق الطويلة ضروري لا مناص منه، وليس طول الطريق دليلاً على أن الطريق الأخرى — التي هي أقصر منها — خير منها.

ألا ترى إلى طالب العود أو البيان؟ قل لي بربك: كم عاماً يقضى في سبيل غايته؟ وكم من الزمن يمر عليه حتى يصل إلى درجة الإتقان، أو — على الأصح — حتى يدنو من درجة الإتقان؟

وإذا كان ذلك كذلك، فما بالك بمن يتطلع إلى إتقان الكتابة، والتصرف في فنون القول؟ ما بالك بمن تطمح نفسه إلى مثل هذا المطلب الوعر؟ وكم من السنين يجدر به أن يقضيها حتى يصل إلى غايته؟ «ومن يخطب الحسناء لم يغلها مهر».

ما بالك بمن يريد أن يمتلك ناصية البيان، ويسمو بأسلوبه عن الركاكتة، واللبس والتعقيد، وما إلى ذلك من عيوب الكتابة وصعاب اللغة، ويجمع – إلى ذلك – ذوقاً فنياً عالياً.

أضف إلى ذلك أن من ي يريد أن يتعلم فن الإنشاء إنما هو – على الحقيقة – ي يريد أن يتعلم كيف يفكر، فهو في بحثه عن الكلمة الصحيحة الفصيحة، وتخيره الأسلوب الدقيق الأداء الموفق التعبير، يسلك كثيراً من شباب القول وفنونه، ويمر بمنعجراته ومنعطفاته الكثيرة، باحثاً منقباً عن الفكرة المنشودة، متخيلاً من بينها أمثل طريق، وهو بهذا يتعلم كيف يتعرف الخطأ والصواب، ويميز بين الحسن والحسن، وكلما سار في هذه الطريق، تفتحت أمامه كنوز اللغة وفرائد المعاني، وكان مثاله كمثل «سول» ذلك الفتى الذي تحدثنا الأساطير أنه ذهب يبحث عن جحوش أبيه وعيرانه فظفر بملك عظيم.

(٢) تمارين الإنشاء

أما تمارين الإنشاء فيجب أن تكون قصيرة، وأن ألحف في الرجاء أن يعني حضرات المدرسين بهذا الأمر كل العناية، وأن يجتنبوا دائمًا المقالات الطويلة، بل أن يحرموها على طلبتهم بتاتاً؛ ذلك أنها منهكة لقواهم، مضيعة لوقت المدرسين بلا طائل، وهي – إلى ذلك – تعود الطلبة أن يجمحوا كثيراً، وربما تركوا جوهر الموضوع – كما يحدث ذلك أحياناً – وبعدوا عن أساسه. وشر عيوب الكتابة الشطط.

أضف إلى ذلك أن التطويل يعود الطالب الإهمال في صوغ عباراته بدقة، كما يعود الإهمال في تخير الألفاظ؛ فلا ترى له إلا كتابة مفككة الأوصال، ركيكة التعبير، على حين أنه لو كتب موضوعاً قصيراً لا يتجاوز عشرة أسطر – أحسن تنسيقها وعني بأدائها خير أداء – لكان ذلك أجدى عليه وأعود بالفائدة من كتابة موضوع مسهب في عشر صفحات قد رصفت فيه الكلمات رصفاً بلا روية ولا إحكام. ويجدر بالمدرس أن يرشد الطالب إلى الطريق التي يسلكها ثم يدع له وحده تخير الجمل، وصقل الأسلوب.

أما الطالب فهو خليق أن يتخير من الموضوعات والمعاني ما يلائم تفكيره ويتنااسب مع ميوله ومداركه؛ حتى يجيد أداءه.

ويجدر بالمدرس أن يصحح التمارين الإنشائية في الفصل – أمام التلاميذ – فإن ذلك أعنون على توسيع مدارك الطالب وتنمية عقله، ثم ليقرأ الطالب موضوعه بصوت عالٍ، وتبدأ المناقشة بين المدرس والطلبة في نقط الموضوع، وتبيان وجهات الخطأ

والصواب فيه؛ فتتاح للطلبة فرصة الانتقاد، والأخذ والرد، والمناقشة، ويتملئ الدرس حياة ونشاطاً، ويتعود الطلبة الكلام والمحاجة منذ حادثتهم.

(٣) حوار شائق بين طالب ومدرس

طالب ناشئ يريد أن يصل إلى درجة عالية في فن الإنشاء، ويصبح قادراً على التعبير عن أغراضه بعبارة بلغة وأسلوب دقيق، وقد امتلأ نفسه بهذه الرغبة – التي تملكت عليه مشاعره – فلم يجد أمامه من يسترشد به في معرفة الطريق التي يسلكها للوصول إلى تحقيق غايته غير أستاذه، ولم يك يوضح لأستاذه غرضه حتى دار بينهما الحوار التالي:

الطالب: «أريد أن أصل إلى درجة عالية في الإنشاء، وأن أصبح قادراً على الكتابة بأسلوب بلغ وعبارة مختارة، فما هي أقرب الطرق إلى ذلك؟»

المدرس: «إن غايةك التي ترمي إليها غاية نبيلة، ومطلبك الذي تسعى إلى تحقيقه مطلب سامٍ جليل، فليس أبهج للنفس من القدرة على أداء الأغراض، والتعبير عن خوالج النفس بعبارة صحيحة بلغة، وسترى من إحكام لغتنا العربية، ووفرة أساليبها، ودقة تعبيرها ما يساعدك على إدراك طلبتك، فلقد تكون لغتنا أغنى لغة في العالم كله!»

الطالب: «ألا تتصح لي بقراءة شيء من الكتب التي ألغفت في هذا الفن؟»

المدرس: «كلا كلا! لا حاجة بك إلى قراءة شيء من ذلك أبداً، أو – على الأقل – لا حاجة لك في هذه المرحلة الأولى التي تجتازها إلى قراءة تلك النظريات والقواعد البينية والبلاغية وما إليها!»

إن كل ما تحتاجه الآن هو المرانة على الكتابة، والتعبير عن أغراضك بأسلوب عربي واضح، ولك أن تمارس ذلك في أي يوم تشاء أو في كل يوم.

وأحب أن أقص عليك تلك الحكاية المشهورة التي يروونها عن سيدة فرنسية كانت مربية لأولاد «لويس الرابع عشر» ملك فرنسا العظيم، لترى فيها المثال الذي أريد أن أنبهك إليه، وخلاصة هذه القصة أن تلك المربية سالت ولداً من أبناء لويس الرابع عشر – هو الدوق دي مين – أن يكتب إلى أبيه كتاباً، فقال لها مدهوشًا: «أمثالني يستطيع ذلك وأنا لا أعرف كيف أخط جملة واحدة منه؟»

فقالت له المربية: «ألاست تفكر في أبيك أحياناً؟»

فقال: «أفكر فيه كثيراً، وأحزن لغيبته الطويلة عنِي أشد الحزن!»

فقالت له: «هذا حسن! هذا حسن! اكتب له ذلك إذن!»

ولكن خبرني، لهذا هو كل ما تفكَر فيه؟ ألا تشعر بشيء آخر؟»

فقال: «نعم؛ أود أن أراه، وسأكون سعيداً جداً إذا عاد إلينا من سفره!»

فقالت له: «ها هو كتابك قد تم إنشاؤه، ولم يبق عليك إلا أن تكتب له ذلك وتجعل له افتتاحاً وختاماً؟»

فقال لها متعجباً: «ما كنت أحسب أن كتابة الرسائل بمثيل هذه السهولة؟ فقد كنت أتخيل أن من يريد كتابة رسالة جديراً أن يملأها بالفاظ لغوية، وجمل منمقة لا يقدر على الإتيان بها إلا كبار البلغاء وأساطين الكتاب!»

فقالت له: «لا حاجة بك إلى شيء من هذا، وليس عليك إلا أن تكتب ما تشعر به بأسلوب واضح، وكلمات سهلة بسيطة!»

ولعلك تتبيَّن من هذا المثال الخطة التي أريد أن أرسمها لك لتنتهجها في فن الإنشاء.»

الطالب: «وما رأي سيدي الأستاذ في القواعد النحوية، والتمارين الصرفية وما إلى ذلك، ألسْت مضطراً إلى معرفتها؛ لرعايتها أثناء الكتابة؟»

المدرس: «كلا، لست في حاجة إلى ذلك كله؛ فستعرف الشيء الكثير منها أثناء الطريق. وأنت – إذا ملأت ذهنك بتلك القواعد في هذه المرحلة، وشغلت نفسك بها – كان مثلك كمثل من يود أن يتعلم المبارزة فيذهب إلى قاعة التمرين حيث يقلدونه حساماً؛ فيترك العناية بما جاء لأجله من التدريب إلى الاشتغال بالنظر إلى حسامه وكيفية وضعه، وربما عثر به أثناء التفكير فيه.

يجب أن ينصرف عقلك – أثناء الكتابة – إلى الموضوع الذي تكتبه، وألا يبقى في ذهنك أي فراغ للتفكير في قواعد النحو، والصرف، والبيان حتى لا يشغلك ذلك عن متابعة المعنى، وتفصيه، وتحريك الأسلوب الملائم الذي يؤديه أحسن أداء».

الطالب: «ولكنني – إذا فعلت ذلك – وقعت في أغلاطٍ لغوية، ونحوية!»

المدرس: «قد يكون هذا، ولكنك – بلا شك – ستقرأ موضوعك بعد أن تتم كتابته، وهذه فرصة حسنة تعنى فيها بتصحيح ما وقعت فيه من الأخطاء! أما وقت الكتابة فيجب أن ينصرف عقلك إلى التفكير في الموضوع الذي تتصدى لكتابته فيه!»

الطالب: «وما رأي سيدي الأستاذ في تمارين الإعراب والتطبيق — وما إلى ذلك — أليست تساعدني على التفوق على أقراني في الإنشاء؟ ألا ترى فيها مرشدًا لي؟»
المدرس: «بل أرى فيها شر مرشد يا ولدي، ويحدد بي أن أوضح لك ما أعنيه في هذه النقطة الدقيقة، وأن أجلي لك وهما يقع فيه كثير من أقرانك: إن فائدة هذه التمارين — الخاصة بالإعراب والتطبيق ونحو ذلك — تنحصر في شيء واحد، هو تدريب عقلك على تعرف سر تركيب الجمل، وموقع الفاعل والمفعول من الجملة ... إلخ.

ولكن الإنشاء شيء آخر غير هذا كله، شيء يخالف ذلك كل المخالفة، وأوجز ما أقوله لك: إن عملك في الإنشاء هو عكس عملك في الإعراب وتطبيق القواعد النحوية ... إلخ. ربما خطر ببالك أن التفوق في النحو — الذي يكسبك خبرة صحيحة بمواقع الكلمات من الجمل — سيكسبك نفس هذه الخبرة في إنشاء موضوع ما، وهذا وهو يكذبه الواقع، وتنتقضه التجربة؛ فليست هذه القواعد عديمة الجدوى في تفوقك في الإنشاء فحسب، بل هي — إلى ذلك — أكبر عقبة تعترض سبيلك وتعوقك عن التقدم في هذا الفن والنجاح فيه.

وما ظنك برجل يريد أن يعلمك المشي مثلاً، فلا يحفل بتدريبك عليه، بل يدع ذلك جانبًا؛ ويبداً بتعريفك كل دقة وجليلة من عضل الساق، وسر تركيبها، وعمل كل منها أثناء السير، وتوقف تحريك تلك العضلة على تحريك هذه، إلى آخر ذلك البحث المضني الشاق الذي لا يعني به إلا المختصون من الأطباء بدراسة التشريح.

إنك تستطيع أن تدرك — بأدنى تأمل — أنك في غير حاجة إلى تفهم كل هذه المباحث العويصة، وأنك في حاجة إلى التمرين — قبل كل شيء — وأن التدريب وحده هو خير الطرق لتعويذك المشي، وحسبك إذا شئت أن تعرف أسماء العضل الرئيسي في الساق تاركًا بقية التفاصيل إلى الأطباء المختصين، ولقد تعلم الناس المشي — منذ آلاف السنين — قبل أن يعرفوا أسماء هذه العضل، ولم يكلفهم ذلك أكثر منمحاكاة غيرهم وتقليلهم في ذلك.

واعلم يا ولدي أن المشي والكلام والكتابة غاية في اليسر، وأن كلامًا من هذه الأشياء الثلاثة لا يكتسب بغير المرانة، وأن على هذه المرانة وحدتها يتوقف سر النجاح فيها جميًعاً.

إن في هذه الكتب — التي يضعها مؤلفوها لتعليم الإنشاء — كثيراً من العجائب إن لم أقل السخافات، مثال ذلك:

اكتب ثلاث جمل في كل منها فعل يتعدى إلى مفعولين، أو ثلاثة مفاعيل، أو نحو ذلك، أنشئ ست جمل مبتدأة أولها بحرف ألف، وثانيتها بحرف باء ... إلخ. هذا نظام غير طبيعي، وهو نوع من التمارين الإنسانية المتكلفة التي لا تنطبق على حاجتنا في أداء أغراضنا ومعانينا في الحياة العملية، فإن أول شرط في الكتابة أن تكون طبيعية كالكلام والمشي، ولا جرم أن الإنسان – إذا تكلم أو كتب – لا يعني بأمثال هذه السفاسف، وهو لا يتكلم – أو يكتب – إلا معبراً عما يدور بخلده من المعاني والأغراض، ومن ثم تواتيه الكلمات والجمل – عفو الخاطر – حتى يتم موضوعه دون أن يحفل مطلقاً بجعل هذه الجملة قصيرة أو طويلة، فيها أفعال تتعدى إلى مفعول واحد أو ثلاثة مفاعيل، مبتدأة بحرف جيم أو حرف زاي، إلى آخر هذه الصغار!

وموجز القول أن الإعراب والإنشاء متعارضان كل التعارض، وأن نظام هذا وطبعه مناقضة كل المناقضة لنظام ذلك وطبعته.

فعمل الإعراب: هو تفكيك الجملة – بعد أن وجدت – وعمل الإنشاء هو خلق تلك الجملة قبل أن توجد، هذا يفهمك موقع الكلمات ووظيفتها؛ فيفكك أوصال الجمل للوصول إلى غرضك، وذلك يعلمك كيف تنشئ الجمل إنشاءً من العدم لتؤدي المعاني المطلوب أداؤها منك، هذا هدم وذلك بناء، أو – بعبارة أخرى – هذا يمثل الفناء وذلك يمثل الخلق.

واعلم أنك – إذا عنيت بال نحو والإعراب وما إليهما، وشغلت نفسك بمراعاة موقع الفاعل والمفعول، ونحو ذلك من كل جملة أثناء الكتابة؛ التوى عليك القصد وفسد المعنى، وجاءت كتابتك آية من آيات المسخ والتلف والتشويه، ووقفت تلك القواعد التي تحسبها معينة لك – عقبة كأدء في سبيل نجاحك وتفوقك في الإنشاء».

الطالب: «شد ما أدهشني يا سيدي الأستاذ! لقد كنت – إلى هذه اللحظة – أرى قواعد النحو والصرف أكبر معين لي على إدراك طلبي!»

المدرس: «إنك إذا أتقنت النحو والصرف وصلت إلى نتيجة أخرى، وهي تعرف صحة الجمل، وتمييز الخطأ والصواب فيما تقرأه من الكلام، ولكن هذا كله لا يفيدك في تنظيم أغراضك، ولا يعذّل من طريقة تفكيرك وكتابتك، بل أنا أقول لك: إن انشغال بالكل بال نحو والصرف، وانصرافك إلى التفكير فيما – أثناء الكتابة – قد يضرانك أشد الضرر، وربما جعلاك حذراً خائفاً تتوقع الخطأ في كل جملة تكتبها أو تقولها».

الطالب: «إذن يجدر بي أن ألقي بكتاب النحو والصرف، وأن أركن إلى نفسي ما دمت في غير حاجة إليها!»

المدرس: «إنك — إن فعلت ذلك — ارتكتب أشنع الخطأ؛ فإن لهذه الكتبفائدة كبيرة، و حاجتك إليها شديدة — على شرط أن تستعملها في مكانتها ووقتها الملائمين — ولكن هذه الكتب — بعد ذلك — لا تجدي في الإنشاء، ولا علاقة لها بضعفك أو تفوقك في هذا الفن، لأن النحو شيء والإنشاء شيء آخر!»

الطالب: «فبماذا إذن أسترشد، وبأي دليل أهتدي للوصول إلى غايتي في فن الإنشاء؟»

المدرس: «ليس لك إلا مرشد واحد، وهو انتهاج طريق الكتاب الممتازين، والإكثار من مطالعة كتاباتهم، وتفهم أسلوبهم الرصين وعباراتهم الرشيقية، أمامك رجال الفكر العربي، وأساطير الكتاب الممتازين — في مختلف العصور — فاقرأ كلامهم واستواعب كتابتهم؛ فإنك بذلك واصل إلى بغيتك.»

الطالب: «ألا يتفضل سيدي الأستاذ بذكر نخبةٍ يختارها لي من أقوال الكتاب الذين يعنيهم؟»

المدرس: «إنهم كثيرون، وإنني أذكر لك من هؤلاء الكتاب — على سبيل المثال — ابن المفعف، وأبا الفرج الأصفهاني، وعلي بن عبد العزيز الجرجاني، وعبد الحميد. كما أذكر لك خطب الحجاج وزياد، وأحب ألا تفوتك تلك المحاورات الشائقة التي دارت بين علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، ولا تلك المراسلات المعجبة التي دارت بين علي ومعاوية، فإن أمثل هذه الكتابات آية من آيات الدقة والإحكام، ونموذج عالٍ من نماذج الإبداع، والافتنان!»

ولا تنس قراءة كلام النابغين من كتاب عصرك، الذين امتازوا بتوكّي الدقة وحسن الأداء، ومتانة الأسلوب؛ هذا إذا أردت التفوق في الكتابة العربية، فإذا وليت وجهك شطر الأدب الإنجليزي وأردت التفوق في الكتابة بالإنجليزية؛ فاقرأ من نوابغهم أمثال «ماكولي» و«فرود» و«كنج ليك».»

وجماع القول أن الوسيلة الوحيدة للتفوق في الكتابة بأية لغة — أجنبية كانت أو قومية — هي الاطلاع الدائم على كتابة بلغاء تلك اللغة، وقادة الفكر والبيان فيها، ومحاكاة كتاباتهم بكل وسيلة ممكنة!»

الطالب: «وكيف أستطيع محاكاتهم في كتابتهم؟»

المدرس: «أما طريقة المحاكاة فسهلة هينة وهي:

إذا عثرت على قطعة مختارة مثل هؤلاء الكتاب الأفذاذ الذين ذكرتهم لك — مما يثير إعجابك — فاقرأها متأنياً فاحصاً، واكتب في ورقة بيضاء أهم نقاطها الجوهرية، ثم اترك القطعة التي قرأتها، والورقة التي كتبتها — يوماً أو يومين — ثم عد إلى ورقتك التي كتبتها مسترشداً بها في كتابة الموضوع — من جديد — مفرغاً قصارى جهدك في تقليد عبارة الكاتب وأسلوبه.

ومتى انتهيت من ذلك فارجع إلى أصل المقال، وقارن بينه وبين ما كتبت وأصلاح كل ما وقعت فيه من خطأ أو إهمال مما يؤدي إلى اختلاف في الأداء لا يتفق مع الدقة، والإحكام اللذين رأيتهما في الأصل.

عود نفسك ذلك التمرين مرتين أو ثلاثة في كل أسبوع؛ فإنك قادر على الكتابة — بعد قليل من الزمن — بأسلوب رائع!»

الطالب: «ولكنني — إن فعلت ذلك — كنت مقلداً، وقد أجمع المفكرون على أن التقليد شر لا خير فيه، ولا فائدة ترجى منه إلا الإملال، ولا شك أن المنقول أقل روعة وبهاء من النموذج!»

الأستاذ: «لا ريب أن الفن قائم على الابتكار، وأن التقليد فيه لا يكون إلا شرّا لأن كل صورة — مهما كانت جميلة — هي أقل بهاء وروعه من النموذج الذي أخذت عنه، ولكن الناشئ الذي يتعلم ليس أمامه إلا طريق واحدة للوصول إلى غرضه، وهي أن يجعل همه الأول تقليد أساتيد الفن الذي يتعلمه.

وهذه هي نفس الطريق التي سلكها «ستيفنسن» حين شرع يتعلم الكتابة، و«ستيفنسن» — كما يعرفه قراء الإنجليزية — منقطع النظير بين الكتاب الحديثين، وقلما داناه كاتب من كتاب الإنجليز، في جمال أسلوبه، ودقة عبارته، وروعه بيانه.

وقد كان في أيام الدرس والتحصيل — وهو في جامعة «أدنبرج» — يقلد كتابة «ماكولي» شهراً، ويسلك في تقليده تلك الطريقة التي شرحتها لك، ثم يدع «ماكولي» — بعد ذلك — ويأخذ في تقليد كتابة «فروود» شهراً آخر وهكذا، ولم يترك كاتباً من المشهورين إلا قلده، حتى «كارليل» وأخراه.

ولقد أدرك — بهذه الطريقة — التي كان يسميها «طريقة المواظبة على التقليد» كل ما يبغيه في فن الكتابة، وقرر — في صراحة وجلاء — أن لهذه الطريقة عليه أكبر

فضل، وقد عزا إليها كل ما في أسلوبه من قوة ورصانة، وميزات باهرة لا تزال موضع إعجاب قارئيه إلى اليوم.

كذلك كان «فيكتور هيجو» يقلد في أول نشأته «شاتوبريان» الكاتب الفرنسي العظيم؛ حتى كتب على مقعده في الفصل — وهو طالب: «أريد أن أكون «شاتوبريان» آخر!»

وليس التقليد عيباً في المرحلة الأولى من التعليم، فإن لكل طالب أستاذًا يراه الطالب محل إعجابه كما يراه نموذجاً جديراً بالتقليد والمحاكاة، ولقد كان أبو نواس في صباح يعجب بواحة بن الحباب، كما كان البحتري يعجب بأبي تمام ويقلده في صغره، وقد أبو العلاء المتibi في حداثته أيضًا.

فإذا شئت أن تتعرف مني الوسيلة الوحيدة التي تبلغ بها مأربك في فن الإنشاء فليس لي ما أقوله لك إلا هذه الكلمة: «التقليد! التقليد! التقليد!» أفهمت الآن يا ولدي؟ عليك بالتقليد وأنا الزعيم لك بأنك واصل إلى ما ت يريد».

الطالب (وقد بدت على وجهه دلائل الارتباك): «إذن فما فائدة كل هذه الكتب المؤلفة في فن الإنشاء؟ وما فائدة الكتاب الذي أفتته أنت في فن الإنشاء؟ ألتَّبع هذا الكتاب أم ألتَّبع البلغاء من الكتاب الممتازين الذين ذكرتهم لي الآن؟»

الأستاذ: «لقد أحسنت يا ولدي في هذا السؤال ويجدر بي أن أصارحك القول، وأن لا أكتنك شيئاً، فإني أرى وأنا على يقين مما أراه أنت — إذا استطعت أن تسلك الخطة التي شرحتها لك وأوصيتك باتباعها — ثم ثابتت عليها دائياً، كان ذلك — بلا ريب — أدنى لك من كل ما كتبه المؤلفون من الكتب في فن الإنشاء إلى اليوم.

بل أنا أقرر لك ما هو أغرب من ذلك، فإني أعتقد أن المعلم — في المرحلة الأولى التي تبدأ فيها قدرة الطفل على الكتابة — إذا عني بتمرين طفله على كتابة جملتين اثنتين في كل يوم، إدحاهما مما يذكره من الدرس الذي طالعه، والأخرى مما رأه أو عمله في يومه من الأعمال، أقول لك واثقاً: إن المعلم — لو سلك مع الطفل هذه الطريق — لم يلبث الطفل أن يصبح قادرًا على الكتابة بطريقه دون تكلفٍ وتصبح الكتابة عنده طبيعية كالكلام — سواء بسواء! — ومن ثم لا يصبح الإنشاء فناً كما يريده الأساتيد أن يمثلوه، بل يصبح طبيعة أخرى كطبيعة الأكل والتنفس والجري، فيكتب الطالب كما يتكلم، ويأكل، ويتنفس، ويجرى سواء بسواء!»

الطالب: «كل ما تقوله حسن يا سيدى الأستاذ، فما فائدة هذا الكتاب الذى أَفْتَه
في فن الإنشاء؟»

الأستاذ: «أردت بذلك أن أسد الفراغ الذى يشعر به طالب ناشئ مرّ بهذا الدور
من التعليم، ورأى عقم الطريقة التى يسلكونها معه للوصول إلى الدرجة العالية التي
ينشدها في فن الإنشاء.

أردت — بهذا الكتاب — أن أضع للطلاب كتاباً يعلّمهم الإنشاء بأسلوب جديد في
التربية، يخالف ذلك الأسلوب العقيم الذى أَفْتَه مدرسو الإنشاء ومؤلفو الكتب في هذا
الفن.

أردت أن أسلك بالناشئ منهجاً مجدياً نافعاً، فلم أملأ رأسه بالقواعد النحوية
والصرفية والبيانية وما إلى ذلك من الفنون التي لا تجديه في التفوق في الإنشاء ولا تغنى
أي غناءً!

فإذا أردت أن تتعرف فائدة هذا الكتاب، فليس لي ما أقوله لك أكثر من أنه كتاب
جمعت فيه عدداً كبيراً من التمارين المختلفة لتدريب الطالب على الكتاب — أو بعبارة
أدنى إلى فهمك — إنني هيأت في هذا الكتاب المواد الأولى التي لا غناءً من يريد الكتابة
عنها، كما تهيأً مواد البناء الأولية لمن يريد البناء. فلا بد من التمارين لمن يريد أن يتعلم
هذا الفن، كما لا بد من الأحجار والملاط وما إلى ذلك لمن يريد بناء بيت.

لهذا عنيت بالتمرين كل العناية، وأكثرت منه كل الإكثار!

فليس لدرس الإنشاء بدُّ من أن يدرِّب تلاميذه على خلق الجمل مرة، وتحويرها
مرة أخرى، وهذا ما فعلته، وقد عنيت بالإكثار من التمارين على استعمال الكلمات في
مواضعها الحقة وبمعناها الصحيح، وفي هذا تدريب على تنظيم التفكير عند الناشئ
أيضاً.

وقد بذلك وسعي في تعويد الطالب الدقة في الأداء، وتدريبه على نثر الشعر، إلى آخر
هذه التمارين النافعة!»

الطالب: «نثر الشعر! ماذا تعني بهذه الكلمة يا سيدى الأستاذ؟
إنني بحاجة إلى كثير من الإيضاح، فقد كنت — وما زلت — أسمع أن هذا النوع
من التمارين قليل الخطر، إن لم أقل: إنه عقيمٌ لا فائدة منه بتاتاً!»

الأستاذ: «هذا رأى خاطئ، فليست تلك التمارين بمثل هذا الحد الذي يصفونها به من العق، وليس تخلو من فائدة للطالب!»

الطالب: «أية فائدة يجنيها الطالب من مثل هذه المحاولات؟»

الأستاذ: «إنها تعينه على ادخار محسوب لغوي وفيه، من المفردات والجمل معًا؛ ولو لها لتضاعل محسوبه واضمحل، وربما تلاشى، وهذه التمارين تعين الناشر على استعمال ما في رأسه من الكلمات واجترارها اجتارًا.»

واعلم أن المرانة والتطبيق والعمل، يتوقف عليها وحدها كل شروط الحياة، ولا سبيل إلى تنمية ثروة مهملة، إلا أن تستعملها، ولن يزيد ما نملكه إلا إذا استعملناه وإلا تلاشى تلاشياً!

ولقد قالوا في أمثالهم: «الحاجة تفتق الحيلة.»

وقالوا: «كلما اشتدت الحاجة كان ذلك داعيًا للالضلال بجلائل الأعمال!»

الطالب: «ولكن ألا ترى يا سيدى الأستاذ أن من الخطل — إن لم أقل من الحماقة — أن تستبدل شعراً جميلاً بنثر رديء، وأن نحوال نظماً رائعاً إلى كلام منثور ركيك؟ وماذا تقول فيمن يعمد إلى مقطوعة نظمية مؤلف كبير خبير بدقائق المعاني، ومرامي الأسلوب، وقوه الصياغة، وتخير العبارة، فيما يمسخها مسخاً وي Shawها تشويهاً، ويحييها إلى كلام سخيف مفك الأسلوب ضعيف المعنى؟»

الأستاذ: «الحق معك في هذه النقطة وحدها، ولكن فائدة هذا العمل — رغم ذلك — لا يستطيع منصف أن يغفلها!»

الطالب: «أية فائدة يجنيها من المسوخ والتشويف؟»

الأستاذ: «إنك — حين تتتصدى لحل الشعر — إنما تبرهن لأستاذك — ولنفسك أيضًا — أنك قد فهمت معنى القصيدة أو المقطوعة فهماً، واستواعتها استيعابًا. هذا إلى أنك تنمي بذلك محسوبك اللغوي، وتمرن نفسك على استعمال كلمات جديدة، فيزيد بذلك محسوبك اللغوي أيضًا.»

الطالب: «هذا حق، ولكني أسمع أن في هذه الطريقة عيوبًا وماخذ يجب أن يتجنّبها

الطالب!»

الأستاذ: «لا جرم أن هناك كثيراً من العيوب، فإن لكل طريقة عيوبًا ومحاسن. على أن أكبر عيب في هذه الطريقة يقع فيه الطالب، ويجر به أن يبذل كل ما في وسعه للافيه، هو ما يسمونه «الحرفية».

فالحرفية شر يجب تجنبه والفار منه؛ لأنها تسيء إلى أصحابها أبلغ إساءة، ومتى سلّكها في حل الشعر لم يجيء نشره عادياً معقولاً، بل يصبح مشوهاً سخيفاً مفكك الأسلوب ضعيف الأداء؛ ذلك أن الحرفيّة تبعد الطالب عن التشبع بروح الأصل، وتجعله يعني بالقشور دون اللباب؛ ومن ثم لا نرى إلا جملأً ركيكة لا تؤدي معنى واضحاً، ولا شك أن التزام الحرفيّة – الذي يلجأ إليه الطالب حاسباً أنه يوصله إلى أبعد غايات الدقة – لا ينتج عنه دائمًا إلا ضياع المعنى، وتشويه العبارة، وفقدان الدقة المنشودة.

الطالب: «وكيف نتقي خطر الحرفيّة؟»

الأستاذ: «يجب أن يكون النثر معبراً عن الأصل الشعري – كما تعبّر الترجمة عن روح الأصل – فإذا أردت حل الشعر، وجب عليك أن تستوعب القطعة وتملأ بها شعاب نفسك، ثم تبدأ في نثرها بما يلائم روحها.

فشعر «ملتون» مثلاً يجب ألا تنشره إلا في أسلوب يلائمه ويتناسب مع رصانته وجزالته.

وإذا نثرت شعر «تنيسون» وجب عليك أن تراعي في ذلك نبل اللغة مع جمال الموسيقية الذي في الأصل.»

الطالب: «وكيف أصل إلى هذه الغاية؟»

الأستاذ: «أول ما يجدر بك أن تفعله للوصول إلى هذه الغاية هو أن تقرأ الأصل قراءة متقدّم مستوعب، لتتشبع بروحه، وأن تقرأه – مرة أو مرتين بصوت عالٍ قراءة من يحس ويشعر، ويتأثر بمعانيه، ويتدفق جماله بكل ما في نفسه من إحساس وشعور وذوق!»

إذا تم لك ذلك وجب عليك أن تحصر – في ذاكرتك – الفكرة الجوهرية التي تنتظم القصيدة – أو المقطوعة – فإذا انتهيت من ذلك وضعته في الأسلوب الذي تجده ماثلاً في ذهنك بما يواتيك من بيان!»

الطالب: «ولكن ألا ترى بِدًا من أن نكتب بأسلوب جميل؟»
الأستاذ: لا بد من ذلك يا ولدي، ويجب عليك أن تبذل كل ما أوتيت من قوة وجهد في تحسين الأسلوب وتحميل العبارة؛ حتى تتناسب مع جمال الأصل، كما يجدر بأسلوب أن يجمع بين الوضوح والرشاقة والجمال، بحيث يعجب به كل من لم يطلع على الأصل! وعليك أن تتجنب في نثر العبارات الشعرية والكلمات والجمل والأساليب التي اختص بها الشعر وحده، فإن للشعر لغة وخصائص كثيرة ما تختلف لغة النثر وخصائصه.

وربَّ كلمة – هي في قافية قصيدة آية من آيات الجمال والموسيقية – إذا وضعت في جملة نثرية كانت آية من آيات فساد الذوق وضعف الأسلوب!»

الطالب: «فما هو الغرض الأول الذي نجعله نصب أعيننا حين نتعلم الإنشاء؟ وما هي الغاية الحقيقة التي تتطلع إليها من دراسة هذا الفن؟»
الأستاذ: «يجب أن ترمي إلى أمرين، إلى أمرین فقط؛ الوضوح، وحسن الصياغة! وهذا الغرضان من اليسير على أي طالب ذي كفاية متوسط أن يصل إليهما، إذا عني بهما عنابة خاصة، ومرن نفسه على بلوغ هذه الغاية!»

فإذا كنت ممن وهبه الله بلاغة، وقدرة على الافتتان في الأسلوب، والتصرف بفنون القول؛ نلت أعلى منزلة في الكتابة، على أنك – إذا لم يساعدك طبعك – وأردت أن تكون رشيق التعبير رائعاً في ذلك المنزلة مهما بذلت من جهد في الدرس والتحصيل!»

الطالب: «ولكن من المؤكد أن في استطاعة كل إنسان أن يكتب بوضوح، وأن يكون أداؤه حسناً، فقد يظهر أن ذلك طبيعي جدًا.»

الأستاذ: «ليس من السهولة بحيث تظن يا ولدي، فليس من الهين أن يكتب الإنسان كتابة واضحة حسنة الأداء.»

لقد أصبح عصرنا حافلاً بالكتب والصحف والمجلات، وأصبح إقبال المتعلمين على القراءة يفوق كل وصف، وكثيراً ما تزدحم أذهان الشباب بما قرأوه – مما لم يستوعبه جيداً – فإذا حاول أحدهم أن يؤدي لك فكرة أدأها مضطربة مشوشة لا سبيل إلى أن تفهمها؛ لأنه هو نفسه لم يفهمها حق الفهم! وليس لهذا من دواء إلا أن يعني الناشئ بتفهم ما يقرأه واستيعابه؛ حتى لا تزدحم في ذهنه صور شتى من المعاني مضطربة متناقضة، ولخیر للإنسان أن يقرأ كتاباً واحداً وأن يفهمه حق الفهم من أن يقرأ ألف كتاب قراءة عجلة لا تمكنه من استيعاب شيء مما قرأ.»

واعلم أن القراءة — كالغذاء — يجب أن يلائم صاحبه، وأن لا يزيد عن حاجة معدته، وإلا أصبح شرًّا عليه!
على أنني لا أريد أن أختم نصيحتي إليك، دون أن أشير إلى طريق سهلة تصل بها — إذا سلكتها — إلى الدقة، وتكون خير مرانة على الكتابة، وهي الترجمة إن كنت تعرف لغة أجنبية.».

الطالب: «كيف تشير عليًّ بالترجمة، وقد سمعت الكثيرين يعيبون هذه الطريقة، ويقررون — تقرير المستيقن الجازم — أن الترجمة تضر أكثر مما تنفع، وأن خير الطرق لتعلم لغة هو تعلمها رأسًا من غير وساطة الترجمة!».

الأستاذ: «لأنصار هذا المذهب كل الحق فيما يقولون، وأنا أدين بهذا الرأي أيضًا، ويخيل إلى أنك لم تفهمه على وجهه الصحيح!
إن الترجمة لا تنفعك — بل تضرك — إذا حاولت أن تتعلم لغة أجنبية عن طريقها؛ لأنك تضطر إلى اصطناع أساليب لغتك التي ألغتها فيما ترجمه؛ فتفسد بذلك كتابتك! وعلى العكس من ذلك، إذا أردت أن تترجم من لغة أجنبية إلى لغتك العربية فإنك تكتسب بذلك فوائد جمة متى ابتعدت عن خطر الترجمة الحرافية!
وإني أوجز لك فوائد الترجمة فيما يلي:

- (١) أنها تطلعك على معانٍ جديدة، وطريق في الأداء جديدة.
- (٢) أنها تدربك على البحث عما يؤدي هذه المعاني من العبارات التي تلائمها.
- (٣) أنها تعودك الدقة والإحكام في التعبير.

وحسبك بهذه الفوائد مغريًا لك ومنشطًا، ولا تنسَ أن الترجمة إلى لغتك القومية تشبه — من وجوه كثيرة — الطريقة التي اقترحتها عليك من قبل، وهي طريقة حل الشعر، كما أنها تشبه ما طلبته إليك، من صوغ ما تقرأه من كلام البلاغة المتازين في لغتك في أسلوب يتناسب مع جماله ودقته وحسن أدائه!».

الطالب: «ألا يتفضل عليًّ سيدى الأستاذ بإرشادى إلى قطعة بعينها من كلام البلاغة، أتخذها نموذجًا أحذى، وأنسج على منواله؟»

الأستاذ: «حاول جهdk أن تقلد القطعة التالية مثلاً — بعد أن تستوعبها قراءة وفهمًا — وهي لأشهر كتاب العربية «ابن المفعع»، ويجدرك أن تتبع في محاكاتها الطريقة التي أسلفت لك شرحها، وإليك القطعة المنثورة:

«زعموا أن ناسًا كان يجري عليه من بيت رجل تاجر في كل يوم رزق من السمن والعسل، وكان يأكل منه قوته وحاجته ويرفع الباقي، ويجعله في جرة فيعلّقها في وتد في ناحية البيت حتى امتلأت، فبينما الناسك ذات يوم — مستلقياً على ظهره، والعكازة في يده، والجرة معلقة على رأسه — تفگر في غلاء السمن والعسل فقال: «سأبيع ما في هذه الجرة بدينار، وأشتري به عشرة أعنز؛ فيحبلن ويلدن في كل خمسة أشهر بطناً؛ ولا تثبت إلا قليلاً حتى تصير غنمًا كثيرة إذا ولدت أولادها».

ثم حرر على هذا النحو بسنين؛ فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنز، فقال: «أنا أشتري بها مائة من البقر، بكل أربعة أعنز ثوراً أو بقرة؛ وأشتري أرضاً وبذوراً، وأستأجر أكراً وأزرع على الثيران، وأنتفع بأبيان الإناث ونتاجها، فلا يأتي عليَّ خمس سنين إلا وقد أصبحت من الزرع مالاً كثيراً؛ فأبني بيئاً فاخراً، وأشتري إماءً وعيدياً، وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن؛ ثم تأتي بغلام سريًّا نجيب، فأختار له أحسن الأسماء، فإذا ترعرع ألبته وأحسنت تأديبه، وأشدد عليه في ذلك، فإن يقبل مني، وإن ضربته بهذه العكازة».

وأشار بيده إلى الجرة فكسرها؛ فسأل ما كان فيها على وجهه!

هوامش

(١) حراثين (جمع أكّار).

في العام السادس^١

كنت في العام الذي ولّى صغيراً
غير أنني أقرأ الآن الكتاباً
وكذا أكتب ما يملّي صواباً
وأجيد العدّ لا أخطئ فيه

* * *

كنت لا أجلس في الغالب إلا
ضاحك السن على ركبة أمي
صرت في السادس زاد الآن علمي
كنت في خامس أعوامي فلما

* * *

أذهب اليوم إلى مدرستي
حافظاً درسي في كل نهار
أنني صرت كبيراً ذا اعتبار
في يساري جعبتي شاهدةً

* * *

حينما ينطق أستاذي أصغي
واعيناً ما قال، لا مفرطاً
دائماً يبسم لي مغتبهاً!
وهو مسرور بجدي، إذ أراه

^١ من كتاب «محفوظات الأطفال»، وهذه المقطوعة مترجمة عن الفرنسية.



جحيم دانتي^١ وقصة «الكوميديا الإلهية»

لا يزال «جحيم دانتي» معدوداً أكبر قصة ذات حوادث رائعة في الدنيا، ولكن قليلاً من الناس قدقرأه رغم ذلك، ولئن كان كثير من شعره صعب الفهم غير محبب إلى القارئ العصري أن يستمر في قراءته، ويشارك «دانتي» في رحلته الطويلة حيث جاس خلال الجحيم، فهو – مع ذلك – خيال رائع التورية والكتابية، لا يتختلف إذا قيس خياله القوي إلى خيال شكسبير وملتن الذي اشتهر به في أشعارهما.

وظاهر الكوميديا الإلهية وصف للجنة والنار والمطهر، وباطنها تصور حال الأرواح بعد الموت، مورّية بذلك، ومكنيّة عن حاجة الإنسان إلى قبس روحي ومرشد يكون له هادياً.

و قبل أن نبدأ السير مع دانتي في طريقه، ونجوس معه أنحاء الجحيم وأرجاءها، يجدر بنا أن نذكر أن «جحيم دانتي» ظل ماثلاً – في أذهان من قرأوه – مشرقاً بالحياة رائج الحقيقة واضح الصور بين التقاسيم، شأن أمثاله من الأسفار الخالدة: «قصة روينشن كروزو» و«رحلات جلفر»، كذلك تتمثل مناظر الجحيم الرائعة صوراً مكتملة، وتظل خالدة في النفس، ماثلة في الذهن، باقية بقاء المناظر الأخاذة بالنفس التي يراها الإنسان فلا ينساها ما عاش، إذا نسي كل شيء سواها.

ولقد رسم لنا «دانتي» جحيمه على صورة هاوية عميقه هائلة تشبه مخروطاً مقلوباً يلتقي بالأرض في منتصفها، ثم ينقسم في جانبيه عدة أقسام – طبقات بعضها

^١ مقال ملخص عن الإنجليزية.

فوق بعض — تضيق سعَّه بالطبع كلما هبط الإنسان من درك إلى درك، وكلما ازدادت شناعة الجرم سفل مكان الخطأ فيها!

(١) مدينة الويل

يببدأ الكتاب بذكر «دانتي» كيف ضل طريقه في غابة مظلمة موحشة، وكيف التقى بفرجيل الذي وعده بزيارة الجحيم والاطلاع على ما فيها من نكالٍ، وكيف سار على أثر فرجيل حتى بلغا باب الجحيم، حيث قرءا عليه:

أيها الداخل الجحيم ستلقى كل يائِس هنا وتنسى الرجاء

ثم دخلا من الباب معًا؛ فرأيا مكتوبًا عليه:

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| سترى زائرى العذاب المخلد | سترى زائرى! مدائن ويلٍ |
| ن من الويل والنkal السرمد | سترى الأشقياء ماذا يعانو |
| لم يطعه وكان بالأمس يجدد | قد أعد الإله ناري لعاصر |
| سُّ يخيب الرجاء منه ويفقد | أيها الزائرون عندي لكم يأ |

ولا يكاد الداخل يعود الباب حتى يلقاء سهل فسيح قاتم الأعماق يسمى ردهة الجحيم، حيث تطيف به أرواح الأنانيين والكسالي والمزهوبين، تُلْسِبها النحل والزنابير الكبيرة، وهي هائمة تجري أبدًا خلف عَلَم خفاق.

هنا تنهدات وانتهاباتٌ وتأوهاتٌ عالية، صاعدة في أجواز الفضاء الموحش الذي لا نجم فيه، حتى ليكثُر حين دخلت، آلام وفزعٌ من كل جهة وبكل لسان، وصرخات مزعجة منبعثة من الألم، وصيحات غضبٌ وأصوات مختنقةٌ مبحوحة صادرة من أعماق القلوب، وأيَّدٌ ملوحة تعبّر عما أصاب أصحابها من ويل وثبور، وظلام شامل مخيم على جميع الأرجاء، وكأنما امتلأ الفضاء برمال نارية محترقة سَدَّت جميع الأنحاء.

ثم اجتازا ذلك السهل ووصلَا إلى نهر «أشيرون» نهر الأحزان، حيث رأيا جموعًا زاخرة مجتمعة حول المركب الذي يستقله الذاهبون إلى الضفة الأخرى، وعلى القارب شيخ شرس ذو عينين كأنهما عجلتان من لهبٍ وهو يسِّير بهم القارب، وينذيقهم من ألوان العذاب والنkal ما لا قبل لإنسانٍ بوصفه، ويصبح فيهم قائلاً: «الويل لك أيتها

الأرواح الخبيثة، لا أملاليوم ولا رجاء، ولن تروا أيها المجرمون تلك السماء التي كنتم ترونها في الدار الأولى، لقد جئت لأنقلكم إلى الشاطئ الآخر حيث تسود الظلمة الأبدية؛ لتعيشوا هناك في الزمهرير والسعير المتظلي.»

(٢) درك الوثنين

ثم غرق «دانتي» في غيبوبته من الذهول — لما تولاه من الذعر والرعب — فلم يوشه إلا دوي رعدٍ قاصفٍ، وما كاد ينتبه منه حتى رأى أولئك المعدبين قد وصلوا إلى الشاطئ الآخر من النهر، وثم وجد أرواح كبار رجال الوثنية الذين عاشوا عيش الخيرين، وأعوزهم أن يصطبغوا بالصبغة المسيحية — إذ لم يعمدوا — فرحب «هومر» و«هوراس» و«أوفيد» بدانتي ترحيب أفراد الأسرة الواحدة بفرد منهم.

ولما ذهب دانتي إلى الطبقة الثانية من الجحيم — أو الدرك الثاني — وجد فيها «مينوس» قاضي النار؛ وهو مخلوق عظيم الجسم على صورة إنسان له وجه كلب، وثم وجد عذاب آثمي الحب تذروهم ريح عاتية؛ فتقذف بهم كما تقذف بالطير في أجواء الفضاء.

ورأيا — فيما رأياه — «سميراميس» و«كليوباترة»، كما شاهدا — على الخصوص — «فرانشسكا رامياني» ومحبها «باولو» اللذين كتب لحادثتهما الخلود: تلك الحادثة التي قضتها «فرانشسكا» على دانتي، فأبانت له فيها كيف باقتها زوجها مع عشيقها فقتلتها معاً.

ورأى دانتي — في الدرك الأسفل من النار — جماعة من ذوي البطننة والنهم منغمسين في الوحلن، ينصبُ عليهم سيلٌ هتونٌ من الثلوج والبرد والماء القذر، ورأى «تشوبروس» أحد الزبانية ذا الصورة الكلبية الهائلة يعوي ويز مجر عليهم وعيناه تقدحان شرراً، وأننيابه الحادة تقطع أجسامهم وتمزقها إرباً إرباً بعنف وقسوة.

(٣) مدينة الشيطان

وفي أول الدرك الرابع رأى دانتي فيه «بلوتوس» إله الثروة يحرس الدرك الذي جمع فيه المسروقون والبخلاء.

(وهنا وصف دانتي عذاب هؤلاء وصفاً رائعاً لا يتحمل المقام ذكره.)

ولما دخل الشاعران إلى المدينة وجدا أمامهما سهلاً رحيباً فسيح الأرجاء، فيه أجداث مكشوفة، كل جديث منها ممتلئ لهبأ، وفي وسطه أرواح الملائكة العذبة وفراشها نار حامية، ووجد من بين هؤلاء روح «فريناتا» المعجب الملُّ بنفسه.

ورأى «دانتي» في الدرك السابع من الجحيم نهراً من الدم قد أغرق فيه العتاة والجبارية وأهل الظلم، ورأى الزبانية تقامعه بمقامع من نار، وترميهم بسهام مهلكة. وهكذا ظل دانتي يصف طبقات الجحيم ويدرك أنه قد رأى الطبقة الثانية منها وقد قسمت إلى عشرة أقسام، جمع فيها أهل الرياء، والمخادعون، ومدعو النبوة، وذوو خطيبات التدليس والنفاق.

وبعد وصف مسهب رائع لما يقايسونه من النكال، ينتقل «دانتي» إلى الدرك الأخير، حيث يرى الخاطئ الأكبر «إبليس» وهو يقاسي أشد أنواع العذاب، تهُبُّ عليه ريح من الزمهرير، لو هبَّ منها قليل على بحر لأصبح جليداً.

وبعد أن يبدع «دانتي» في وصف ما يلقاه إبليس من النكال، ينتقل إلى المطهر، حيث تقوده حبيبته «بياتريس»، فيري النجوم الألقاء التي حرم رؤيتها طول ذلك الوقت!

نظرات في تاريخ الإسلام^١

وأشترط على نفسي أن لا أتعرض لذكر ما أعتمده فيما أجده مخالفًا لما أعتقد،
فإن التقرير غير الرد، والتفسير غير النقد!

فخر الدين الرازي

(١) تمهيد

هذه فصول مختارة من كتاب العلامة المستشرق «دوзи»، آثرنا نقلها إلى العربية لتبيان وجهة تفكير عالم أوربي كبير، وهي — وإن خالفت آراءنا أحياناً في بعض مناحيها — جديرة أن تقرأ بعناية فائقة، فليس كل ما لا نرضاه من الآراء خليقاً بالطرح والإهمال. وإذا كان العلامة «فخر الدين الرازي» يقول في مقدمته لشرح «الإشارات» لابن سينا: «إن التقرير غير الرد، والتفسير غير النقد»، مما أجدرنا أن نقول بدورنا: «والترجمة أيضاً غير النقد».

لهذا اقتصرنا على نقل آراء ذلك المستشرق بلا مناقشة أو تعليق إلا ما يقتضيه المقام من توضيح لما اعتقدنا أن أكثر القراء في حاجة إليه. وإلى القارئ الكريم ترجمة كلامه:

^١ صحف مختارة من كتاب العلامة دوزي.

(٢) ديانة العرب في الجاهلية

كان كل شيء سائراً في طريقه المعتادة في النصف الأول من القرن السابع الميلادي؛ سواء في الإمبراطورية البيزنطية أو الإمبراطورية الفارسية، ولا جرم كانت هاتان الملكتان في نزاع دائم؛ سببه الرغبة والطمع في تملك آسيا الغربية. وكانتا – في ظاهرهما – مزدهرتين، تجبي لهما الضرائب والخراج فتمتنى الخزائن بمال، وتتضخم ثروة الحكام، حتى أصبح الترف والأبهة – اللذان انغمست فيها سكان العواصم – مضرب الأمثال. على أن كل ذلك لم يكن إلا ظهراً كاذباً؛ فقد كان يسري في كيان هاتين الملكتين داءٌ كمين، وظل السوس ينخر في عظامهما دائياً على تقويض أركانهما بسبب ما أظهرتاه من عسفٍ وجورٍ مهلكين، هذا إلى ما حدث من الفواجع التي نجمت من تلك الأسرات، وما لعبته من الأدوار المفجعة التي كانت – في الحقيقة – سلسلة متصلة الحلقات، من الاضطهادات والفتن الدينية الشعواء.

وثم رأينا شعباً يظهر فجأة من بين تلك الصحراء التي لا يكاد يعرفها أحد، شعوباً جديداً بدأ يمثل دوره على مسرح الحياة بعد أن ظل نهباً مقتسماً؛ تناوئ كل قبيلة منه القبيلة الأخرى، فيحتمد النزاع وتقع الحرب الطاحنة. ها قد رأينا يتحد ويتجتمع شمله الشتت للمرة الأولى.

ذلكم هو الشعب الناهض الذي تملّك نفسه حُبُّ الحرية، وساعدته على النجاح صفاتـه النبيلة، فقد كان متقدشاً في طعامه، مخشوشاً في لباسه، نبيلاً في أخلاقه. كما كان طروبياً، سريع البديهة، حاضر النكتة، ولقد كان شريف النفس أريحيياً – فإذا استثرته مرة – فهو قاسٍ غضوب شرس، لا يبني عنأخذ ثأره، ولا يرده عن انتقامـه شيء.

ذلكم هو الشعب الذي قلب – في لحظة واحدة – إمبراطورية الفرس التي ظل السوس ينخر في عظامها قرونًا عدة، وانتزع من خلفاء قسطنطين أجمل ضواحيهم، ثم سحق مملكةً جرمانية حديثة العهد تحت قدميه، وشرع يهدى – بعد ذلك – بقية أوروبا، ذلك بينما كان في الوقت نفسه يوالي فتوحه وانتصاره في الجانب الآخر من العمورة، حتى وصلت جيوشه الظافرة إلى الحملية.

لم يكن ذلك الشعب فاتحاً فحسب – كغيره من الشعوب الأخرى – بل كان داعياً إلى دين جديد ومبشراً به أيضاً.

كان داعيًّا إلى دين جديد فقام ينابوئ الثنوية^١ الفارسية واليسوعية التي أفسدتها الخرافات والبدع، حاملاً إلى الناس توحيداً خالصاً، لم يلبث أن دان به الملاليين من الناس، حتى بلغ عددهم في أيامنا هذه نحو عشر الإنسانية كلها.

ذلك هو الدين الذيأخذنا على عاتقنا محاولة الكلام فيه وفي تاريخه العام. ولعل أول ما يعرض لنا هو هذا السؤال: «ممّ نشاء؟ وكيف تفرّع من الديانة التي سبقته ثم نما حتى وصل إلى ما وصل إليه؟»

فكيف نجيب على هذا السؤال الذي يجدر بنا الإجابة عليه قبل كل شيء؟ الحق أنني لم أكُن أعرض لها حتى وقعت في حيرة لا مثيل لها، فقد اعترضتني — حتى في هذه الخطوة الأولى — صعوبة لم أكن لأتوقعها قبل أن أتصدى لبحث هذا الموضوع. وإليك البيان:

إنني — على إجلائي وتقديرني لما قام به بعض الباحثين الذين تصدوا للكلام عن ديانة العرب القديمة وأصل الإسلام، وعلى إعجابي بفطنتهم واجتهادهم — أقرر ولا أرى بُدًّا من المصارحة أن هذه البحوث الطريفة لا تكفياني قط؛ لأنها لم تستطع أن توضح هذه الأمور أكثر من قبل.

لذلكرأيتني مضطراً إلى إعادة البحث — من جديد — سالكاً طرفة أخرى مخالفة لما نهجه غيري من الباحثين إلى اليوم، وقد وصلت إلى نتيجة أنا أول المدهوشين لها، وليس في وسعي أن أسردها في بضع صفحات، إلا أنها — في جوهرها وأساسها — مرتبطة بعدة نتائج أخرى لها خطورها وأهميتها، ولما كانت نتائج بحوثي مناقضة — على طول الخط — كل الآراء السائدة إلى اليوم لغرابتها عنها، والعلم يقضي على الإنسان ألا يلقي للناس قضايا مسلمة لا يدعمها برهان، ولا تقوم على أساس متين من الحجج العلمية الناهضة والأدلة الصحيحة المستقاة من مصادرها الأصلية.

والداعوى — ما لم يقيموا عليها بینات — أصحابها أدعياء!

ولما كانت المصادر الأصلية التي أعنيها هي مصادر أجنبية بالنسبة لقارئي هذا السُّفَر^٢رأيتني مضطراً إلى تفصيل ذلك الرأي في سِفَرٍ مستقل آخر.^٣ ولكن ماذا نصنع الآن في هذا الفصل؟

أما أن نجتزئ ببعض الآراء التي وصلتنا، مبدلين فيها، رغبةً في أن نوائم بينها وبين آرائنا الخاصة فهذا محال؛ لأن منهجين متباغبين من مناهج البحث لا سبيل إلى التقاءهما والتوافق بينهما، هذا فضلاً عن عقم هذه الطريقة التي لا غناء فيها، فليس ثمَّ أية فائدة من تعرُّف جزء من الحقيقة.

لذلك أعملت الفكر فلم أجد إلا مخرجاً واحداً من هذا المأزق، هو أن أتبع الفكرة المقررة، مقتضياً على سردها وذكر ما وصل إليه الباحثون من النتائج في هذا الصدد. لا سيما «سبرنجر» أقرب الباحثين وأوفاهم درساً، واستيعاباً للتاريخ الإسلامي وترجمة النبي.

على أنني جدير أن أقرر — من الآن — بأسلوب صريح لا يحتمل لبسًا ولا تأويلاً أنني إن استطعت بهذه الطريقة أن أرفع عن عاتقي عباء المسؤولية والمؤاخذة بما أقرره في هذا الفصل من وصف الحال الدينية التي كان عليها العرب في القرن السادس الميلادي، فلن يكون ذلك شأنني فيما أقرره في بقية الفصول.

دفعتني هذه الاعتبارات السابقة كما دفعني غيرها من الأسباب التي لا يصعب على القارئ فهمها، إلى الاقتصار على ذكر ذلك الزمن السابق بأقصى ما في قدرتي من الإيجاز الذي التزمته في تبيان ديانة العرب الأولى ونشأتها في بلادهم، فلم أحد عن هذا الشرط قيد أدنلما.

(٣) ديانة العرب الأولى

كان العرب يؤمنون بكائن أعلى — هو الله تعالى — ويعتقدون أن له ذاتاً كنواتهم، وأنه محيط بالعالم وما يحويه من كائنات — هو بارئها — وإن اختلفت حظوظها من الطاعة والعصيان، وكانوا يدينون بأنه خالق السموات والأرض^٤ وأنه الذات المنزهة التي لا حدًّ لحكمتها، ولا يمارون في أنه مدبِّر العالم، وأنه هو الذي يرسل عليهم المطر من السماء.^٥

كانوا يعتقدون هذا، ويعتقدون أيضاً أن ليس له كَهَان ولا هياكل، كتلك التي خصوا بها أوثنانهم.

(٤) العرب والجن

فإذا تركنا ذلك إلى سواه رأيناهم يعظمون الجن ويمجدونهم، وقد دفعتهم إلى ذلك صغاراً لهم وجباراً لهم التي كثيراً ما يضلون فيها أسبابع كاملة؛ فيتمثلون رؤية هذه العالم الغربية، ويقوّي في نفوسهم هذه التصورات ما يكابدوه فيها من ألم الجوع والعطش، وما يحتملونه من شمس الصحراء المحرقة، وهوائها اللافح، وسواها المهلكة، هذا إلى ما يعاونه من تقلبات الجو الفجائية، حتى ليصل بهم الرؤى إلى حد أن يتخيلاً أنهم يسمعون أصوات الجن ويبصرن ذواتهم في أشكال عدة وعلى صور شتى، منها السخيف ومنها المعجب^٦، وكانوا يعتقدون بأن أجسامهم تشغّل جزءاً من الفضاء – كما تشغله أجسامنا – وأنهم ينتشرون، ولكنهم يختلفون عنا في تكوينهم؛ لأن أجسامهم مخلوقة من النار أو الهواء^٧، ومن ثم لا تراها العين الإنسانية إلا شذوذًا، وفي قدرتهم أن يأتوا كثيراً من ضروب الشر والخير، ومن كانوا كذلك فقد وجب عليهم أن يتربّبوا إليهم ويجدوهم ويقدّسوهم. ومما سهل عليهم الوصول إلى تحقيق هذه الغاية اعتقادهم أن لكل جنٍ موطنًا خاصاً به، فهذا في حجر، وذلك في نصب، وثالث في شجرة.^٨ وكانت تجمع قبيلة – أو عدة قبائل أحياناً – على تمجيد جنٍ بعينه، وتتكلّم العناية به إلى أسرة بعينها منوط بها أمر رعايتها وتلبية رغباته، وكانت هذه الفتاة تقوم بحراسته وتعظيم شأنه؛ سواء في الحجر أو الشجرة، أو الصورة التي تمثله، كما تؤدي له حقه من المراسم الكهنوتية؛ والطقوس الدينية التي تقيّمها في محرابه، وربما سمع لذلك النصب صوت – كما يحدث ذلك في كثير من الأحيان – ومن الواضح أن الكهنة القائمين بحراسة الوثن قد منروا بالحيلة على إحداث تلك الأصوات لإيهام الناس أنها تتكلّم – وكان لكل منها صوت خاص به يميّزه عن غيره – وكان العرب يعدون ذلك من الخوارق والمعجزات التي يعزونها إلى أوثانهم.

كذلك كانت تحرص كل قبيلة على صنّتها، وتشيد بذلك وتفردّه بأقصى ما تستطيع من حب؛ لأنّها ترى فيه نوعاً من الملكية. وكان الكهان ينضّحون عنه، ولا ينون في طلب القرابين لذلك النصب، وإن كانوا – على الحقيقة – يطلبونها لأنفسهم ويجرّون المغانم لهم باسم الله تعالى.

هذا ما نستطيع أن نستخلصه بسهولة من القرآن وأقوال المفسرين على وجه الإجمال، على أن أحد المؤرخين الذين تخصصوا في درس ترجمة حياة النبي يعزون ذلك إلى قبيلة «خولان» وحدها، وهي التي كانت تقطن اليمن في ناحية منه تعرف باسمها.

وكان من عادتهم، حين تقدم القرابين إلى الآلهة — وهي من البر أو الفصال^٩ — أن يقسموها قسمين؛ أحدهما وقف على الله، وهذا من نصيب المعززين وأبناء السبيل الذي يحلون ضيوفاً على أهل القبيلة، والآخر وقف على النصب، وهو من نصيب الكهنة وحدهم.

فإذا وقع في القسم الأول بطريق المصادفة بعض النفايات، استأثروا به وجعلوه من نصيب الوثن، ووضعوا مكانه النصب الأدنى لله.^{١٠}

ولكن ما علاقة هذه الأرباب الصغيرة بالله؟ لقد كانوا يعتقدون أن تلك الأرباب بنات الله،^{١١} وأن مثلها منه كمثل الفروع من الأصل تماماً؛ فهي تحكم الناس كما يحكم حاكم الأقليم بعد أن يخوله مليكه سلطة الحكم، وثم كانوا يرون في تلك الأرباب وسائل بين الناس وبين الله.^{١٢}

(٥) مكة والكعبة

وكانت مكة حاضرة الثقافة في أوسط بلاد العرب، وقد بنتها قريش في منتصف القرن الخامس الميلادي، في وادٍ رملي شديد الضيق؛ حتى ليبلغ أقصى اتساع فيه نحو سبعمائة خطوة — أما أضيق مكان فيه فلا يزيد عن مائة خطوة — وتكتنفه جبال جُدُّ عارية يتراوح ارتفاعها بين مائتي قدم وخمسمائة.

في هذه المدينة المحراب الذي يفخر به كل من يملكه ويقع في حوزته، ذلك هو محراب الكعبة الجليلة الشأن،^{١٣} وهو أقدم من المدينة نفسها بكثير، وإن جدد وأعيد بناؤه عدة مرات، وهو مؤلف من أربع حوائط مبنية بحجارة لم يهذبها الصisel، وقد رصف بعضها إلى بعض دون أن يتخللها الملاط، وقد غطيت ببريطٍ^{١٤} أو بقطعة من القماش، أما ارتفاعها فلا يزيد عن ارتفاع الرجل، وأما مساحتها فتبلغ مائتي قدم.

وكان «هبل»^{١٥} اسم الصنم الرئيسي الكبير بين أصنامها، منذ النصف الأول من القرن الثالث، وهو تمثال عقيلي^{١٦} جلبه من الخارج بعض الرؤساء،^{١٧} وكان «هبل» في ذلك العهد ربّاً لقبيلة قريش.

أما الكعبة نفسها فلم تكن ملكاً للقرشيين، بل كانت — على الحقيقة — ملكاً مشاععاً لأكثر القبائل التي تربطهم بها وشائع المصلحة السياسية العامة، وثم كان للكعبة صبغة عالمية عندهم.

وقد وضعت كل قبيلة من تلك القبائل صنماً لها الذي تعبد في ذلك المحراب «الكعبة» حتى بلغ عدد الأرباب التي بها ثلاثمائة وستين ربًّا، وكان التسامح الديني سائداً، وقد وصل بهم إلى أعظم حدوده، فقد كنت ترى في الكعبة — زيادة على ما أسلفنا ذكره من الأصنام — صورة إبراهيم الخليل، وصورة الملائكة، وصورة العذراء مع طفلها عيسى.

(٦) الحجر الأسود

على أنهم كانوا لا يقدسون شيئاً كما يقدسون «الحجر الأسود»، وهو الحجر الذي يزعم المسلمون أنه كان في أول أمره أبيض، ثم اسود من توالي الحريق الذي حدث في الكعبة، وقد لعب هذا الحجر فيما بعد — في قابل الإسلام — دوراً خطيراً في التاريخ الإسلامي، ولا زال يعده المسلمون — حتى أيامنا هذه — حجراً مقدساً، وسنذكر في بعض الفصول التالية بعض أقاصيص يرويها بعض علماء الكلام واللاهوت من المسلمين عن هذا الحجر.

وقد وصفه لنا بعض السائرين الأوروبيين الذين شاهدوه، فذكر أنه قطعة من حجر البازلت البركانية تلمع في أنحائه نقطاً بللورية، وتبدو في بعض جهاته قطع صغيرة من النوع الذي يطلقون عليه اسم «فيليسبار» لونها تارة أحمر بأسفله ظلال قاتمة، وتارة أسمراً يميل إلى السوداء.

وقد تعاورته ظروف مختلفة، فكسر أكثر من مرة حتى غداً في هذه الأيام مؤلفاً من اثنين عشرة قطعة مضموم بعضها إلى بعض، والكثيرون يجمعون على أنه حجر من الرجوم الساقطة من السماء.

أما احترامهم الكعبة فقد بلغ بهم حد التقديس،^{١٨} وزاد إجلالهم لها فقدَّسوا ماجاورها من البقاع — التي خلعت عليها الكعبة مسحة القدسية — وثم أصبح ما يكتنفها — إلى بعد عدة فراسخ — حراماً لا يجوز للكائن من كان أن يفتك بسواد فيها، أو يصطاد من حيوانها احتراماً لها.

ويؤم الكعبة في كل عام جمهور ضخم من الناس من شتى الأنهاء؛ لتأدية الشعائر الدينية المقدسة فيها!

(٧) عبادة الأصنام^{١٩}

أما العبادة فقد فقدت معناها الأول في القرن السادس من الميلاد، ودبَّ فيها الفساد وتغيَّر جوهرها؛ فأصبحت طائفة من الخرافات والأوهام — التي يمْجُّها العقل — تدين بها طائفة من الباطل.

قال أحد معاصرى محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كنا – إذا عثرنا على حجر جميل – عبناه، فإذا عَزَّ علينا أن نجده أنساناه من الرمل إنشاء، ثم سقيناه لbin ناقة درور مدة من الزمن، ومتى تمَّ لنا ذلك عبناه، ثم لا نزال نفعل ذلك ما دمنا في ذلك المكان!»

ولكن هناك طائفة كبيرة من الناس كانت — على العكس من ذلك — على جانب عظيم من الرقي والحضارة، فلم يكن عندهم عقيدة في أرباب هي من صنع أيديهم من الحجارة أو الخشب!

ولقد كان الناس — في ظاهر أمرهم — يمجّدون تلك الأرباب ويحجّون إلى محاربها، ويحتفون بمواسمها السنوية، ويدبحون القرابين في هيكلها، ويريقون دماءها على تلك الآلهة التي يعبدونها؛ سواء أكانت من الحجر أم من الخشب، بل لقد كانوا يلحاون إليها كلما حزبهم أمر؛ ليلتمسوا منها البركات، ويتكشّفوا بوساطتها مستقبل أمرهم الغامض. على أن عقيدتهم فيها لم تزد على هذا القدر من المظاهر، أما فيما عدا ذلك فقد كانوا لا يترددون في تحطيم آلهتهم إذا لم تتحقق نبوءتها، أو إذا جرئت على إذاعة شيء يكرهونه، وبخسون ما اقتافوه من الدنيا.

وقد تنزل بأحدهم كارثة فينذر لأحد الأصنام أن يذبح نعجة قرباناً له إذا تكشفت غمّته، فلا يكاد يزول عنه الخطر^{٢١} حتى يستبدل النعجة – وهي قيمة عندـه – بغازـال لا يكـفـه ثـمنـه أـكـثـرـ منـ أـنـ يـصـطـادـهـ بـيـدـهـ،ـ يـفـعـلـ ذـلـكـ وـهـ مـعـتـقـدـ أـنـ ذـلـكـ المـعـبـودـ لـاـ يـكـادـ

أضف إلى ذلك أن نبوءات الآلهة لم يكن لها خطر عندهم ما لم تتوافق رغباتهم
وتعبر عما يقصدونه الله من التفاؤل بما هم قادمون عليه من الأمور.

يؤيد ذلك أن أعرابياً اعتبر أن يثار لأبيه من قتله، فأتأتى «ذا الخلاصة»^{٢٣} وهو نصب مربع الشكل من الحجر الأبيض – ليستشيره فيما هو قادم عليه، وبدأ يقترب – على عادة العرب في ذلك – فرأى في السهم الأول أمراً بالمضي في طريقه، وفي الثاني نهياً عن ذلك، وفي الثالث أمراً بالانتظار والتربيث؛ فلم ترضه هذه النتيجة وأعاد الكفة مرة بعد

أخرى؛ فكانت النتيجة واحدة في المرات الثلاث، وثم غضب وألقى بالسهام في وجه الصنم وقال له: «مصصت بظر أمك! لو كان أبوك قتل ما عوقتنِي!».^{٢٤} كذلك كانوا يغضبون لأنفه الأسباب، وكلما تعارضت أوامرها مع رغباتهم، ولم تعبّر عما يودون سماعه من الكلام، انهالوا عليها بالأسباب والتحقيق.

وأقبل رجل من بنى ملكان^{٢٥} على «سعد» صنم قبيلته المعبد — وهو صنم في الصحراء — وكان مع الرجل إبله جاء بها ليقفها عليه يريده التبرك به، وبينما كانوا يريقون عليه دماء العثائر^{٢٦} — حسب عادتهم — نفرت الإبل وولت هاربة، فغضب صاحبها وتناول حجراً فرمى به وقال: «لا بارك الله فيك إلهًا أنفترت عليَّ إبلي». ثم خرج في طلبها حتى جمعها، وانصرف عنه وهو يقول:

أتينا إلى «سعد» ليجمع شملنا فشتتنا «سعد» فلا نحن من «سعد»
وهل «سعد» إلا صخرة بتنوفةٍ من الأرض لا يُدعى لغٌ ولا رشد!

وكان بنو حنيفة أنفسهم أقل الناس احتراماً لآلهتهم؛ إذ كانوا يأكلونها! ونحن جديرون أن نقرر عذرهم في ذلك؛ فقد كانوا يصنعون آلهتهم من نوع — بعينه — من العجوة، ومن اللبن والزبد؛ فلما وقعوا في قحط ومجاعة أكلوها.

ومن هنا يتضح أن العرب لم تكن تعتقد في تلك الأرباب اعتقاداً جدياً؛ فقد كان أكبر شيء يحترمونه هو الله تعالى، على أن الله لم يكن له عندهم أياً عقيدة قوية راسخة في قراره نفوسهم؛ لأنهم كانوا لا يعرفون عنه شيئاً كثيراً، إذ لم يكن له كهان يدعون الناس إليه، ويرغبونهم في عبادته وطاعته، ويدعوون إرادته ويوضحون لهم ما قدره من خير وشر.

(٨) عقيدة البعث

ولم يكن الناس على عقيدة واحدة، بل كانوا شديدي الاختلاف؛ فمنهم من كان يؤمن بحياة ثانية بعد هذه الحياة ويدين بالاليوم الآخر، ولا يقف عند حد الاعتقاد في بعث الإنسان، بل يدين ببعث الحيوان أيضاً، ومن ثم كان يدفن راحلته إلى جانبه أو يتركها تموت على قبره، ليركبها يوم القيمة، فلا يتکبد عناء السير على قدميه.

على أن سوادهم كان يستهزئ بفكرة البعث ويُسخر منها، وكانوا يدينون في كل مكان برأي القائل:

حياة، ثم موتٌ، ثم حشرٌ حديث خرافٍ يا أم عمرو

وليس في هذا موضوع عجب، فإن هذه الفكرة – فكرة البعث – المحببة إلى نفوس الآريين؛ شديدة الغرابة عند الساميين! وأية ذلك أن اليهود أنفسهم لم يقبلوها من الفرس إلا بعد تشريدهم^{٢٧} إن لم نقل في أوائل التاريخ الميلادي، على أن جماعة الصدوقيين نفسها – وهي كبيرة العدد – قد رفضت فكرة البعث ولم تقبلها قط.^{٢٨} كذلك لم يلقَ محمد ﷺ مقاومةً جدية من العرب إلا حين دعاهم إلى هذه الفكرة، ونادى فيهم بوجوب الإيمان بصحتها، وما زال البدوي – إلى أيامنا هذه – لا يعنيه أمر البعث ولا يكتثر له.^{٢٩}

(٩) المسيحية واليهودية

قلنا إن ديانة العرب الأولى كانت واهية لا ترتكز على أساس متين، ومتى أقررنا ذلك سهل أن نفرض أنه كان من اليسير على العرب أن يقبلوا ديناً آخر – غير دينهم هذا – فيدينا بال المسيحية أو اليهودية مثلاً، وهذا كلام صحيح ولكن إلى حد ما، فقد انتشرت المسيحية لهذا السبب نفسه في جهتين: انتشرت في بلاد الحبشة – جنوباً – وفي سوريا – شمالاً – حيث لقيت شيئاً من القبول، وقد انتصرت كذلك في مدينة نجران في وقت مبكر، ودانت شبه جزيرة سينا بال المسيحية؛ وأصبح علم النصرانية خفّاقاً على كثير من الأديرة والكنائس، كما تنصر عرب سوريا.

على أن هذا النجاح كله لم يكن – في أي مكان تقريباً – إلا مظهراً من المظاهر لا حقيقة من الحقائق.

أما في أواسط بلاد العرب، وفي قلب جزيرتهم، حيث نبتت جرثومة العربي البح وأرومته، فلم تتجه فيها الدعاية للدين المسيحي. ولم نكن لنرى ثمّ إلا أنّه ضعيفاً له، إن لم نقل معدوماً.

وكانت المسيحية في ذلك الزمن – على وجه عام – بما تحويه من معجزات، وبما فيها من عقيدة التثليث، وما يتصل بذلك من ربٌّ مصلوب؛ قليلة الجاذبية بعيدة عن

التأثير في نفس العربي الساخر الذكي، وأية ذلك ما تراه واضحًا فيما حدث للأساقفة الذين سعوا إلى تنصير المنذر الثالث ملك الحيرة – حوالي عام ٥١٣ من الميلاد – وإن المنذر ليصفي إلى ما يقولون بانتباه إذ دخل عليه أحد قواده فأسرَ إليه بعض كلمات؛ ولم يك ينتهي منها حتى بدت على أسارير الملك أمارات الحزن العميق، فتقىدَ إليه أحد القساوسة يسألُه متأدِّبًا متلطفًا عما أشجاه. فأجابه الملك: «يا له من خبر سيء! لقد علمتُ أن رئيس الملائكة قد مات. فوا حسرتاه عليه!»

فقال القسيس: «هذا محال أيها الأمير، وقد غشَّك من أخبرك بذلك، فإن الملائكة خالدون يستحيل عليهم الفناء!»

فأجابه الملك: «أحقُّ ما تقول؟ وتريد أن تقعنوني بأنَّ الله ذاته يموت؟»

أما حظ اليهودية في اجتذاب العرب إليها فهو أكثر من حظ المسيحية، فقد رحلت جمهرة كبيرة من اليهود بعد أن شرَّدُهم الإمبراطور أدريان الذي ثاروا عليه فالحق بهم الأذى، وشتَّت شملهم، فوجدوا في بلاد العرب ملْجًًا لهم، وبثوا دعayıتهم فيها؛ فدان باليهودية قبائل عدة من سكان الجزيرة العربية، ولعل هؤلاء هم وحدهم المتهددون الذين أخلصوا للיהودية حُقًّا، وقد صارت اليهودية نفسها – في زمن ما – دين اليمن الرسمي.

على أنها ضعفت – على مرور الزمن – وقلَّ إقبال العرب عليها؛ لأنَّ اليهودية لا تلائم إلا شعبًا مختارًا، أما أن تكون دينًا عامًّا للناس قاطبة فلا!

ذلك أنها ملأى بالشكويات والأمال الغامضة التي تعلق بها اليهود بعد أن خرب بيت المقدس، وليس هذا مما تلائم طبيعته الشعب الطموح إلى المجد!

وليس من أصلالة الرأي أن نقول: إن سواد العرب كانوا يشعرون بحاجة إلى دين آخر، فإن العربي – ذلك البدوي الحر كما س NRA في كثير من المناسبات التي ستتيحها لنا الفرص أثناء دراسته – ليس متدينًا بطبيعة، كما أن كل محاولة بذلك في سبيل جعله كذلك كان نصيبها الفشل التام.

فالعربي رجل عملي، مادي، لا يعنيه بغير الحقائق حتى في شعره، فهو لا يسبح في الخيال والوهم، ولا يميل إلى الأخذ بتلك الألغاز والمعميات الدينية التي يعتمد الإنسان في استيعابها على التخيل أكثر من اعتماده على التعلق.

إن ديانة العرب التي ألفوها لم تكن مهيمنة على نفوسهم ومشاعرهم، بل كانت ضعيفة الأثر قليلة الخطط، ولكنها كانت دين سوادهم على كل حال، فإذا كان من الحق علينا أن

نعرف أن المستنيرين منهم لم يؤمنوا بتلك الأرباب، فمن الحق علينا أن نقرر أيضًا أن عدم إيمانهم بها لم يكن كافيًّا للقضاء عليها.

والحق أن أحدًا لم يكن مضطربًا إلى العقيدة، فقد كان البدو لا يبالون أن يسخروا حتى من أربابهم التي يعبدونها، ولا يتذمرون في إلحاد الآذى والضرر بها بقلوب جدُّ مغبطةً، بيد أن القضاء — بعد كل هذه الاعتبارات — على عبادة كان يدين بها أحجادهم وأباءهم من قبل، كان يثير في نفوسهم كبرياتهم القومي، أنفسه من أن يتركوا دين أسلافهم الذين كانوا يفردونهم بكل إجلال وإكبار.

وجماع القول أن الديانة كانت في نظر العربي القديم — كما هي في نظر البدو في أيامنا هذه — أمراً لا خطر له؛ وأية ذلك أن شعراء الجاهلية لا نكاد نزاهم يذكرون دينًا أو عقيدة في أشعارهم، ولو فتشنا أناشيدهم لم نر فيها — إذا استثنينا أسماء الآلهة، وبعض الشعائر المختلفة — إلا عبارات مقتضبة لا تكاد تعثر فيها على ذكر لعبادتهم القديمة.

لقد عاش العرب للحياة الحاضرة، ولم يشغلوا أذهانهم بشيء من مسائل ما وراء الطبيعة، وكان مؤمنوهم يتبعونهم في ذلك الشعور ويصدرون عنه. ومع كل هذه الاعتبارات، فقد وجدت لهذه القاعدة شواد — شأن كل قاعدة — فإن وجود جماعات شتى من متألهي العرب الذين يدينون بوحدانية الله، وإن اختلفت وجهاتهم، وتبينت نحلهم — لتدِّين بعضهم باليهودية أو المسيحية — كان أمراً له خطره عند العرب، وله أثره في نفوسهم، إذ كان أولئك المتألهون لا يفتئون بيتون عقائدهم فيما حولهم من العرب.

(١٠) الحنيفة

ومن ثم رأينا في أواخر القرن السادس الميلادي لبعض الشعراء دلائل وأثارًا لإيمان عميق بوحدانية الله، ورأينا منهم شعورًا يقطأ بالتبعة المرتبة على ما تصنعه أيديهم من خير أو شر، وهذه الفتنة — التي ترى هذا الرأي — هي طائفة الحنفاء.^{٣٠} وقد كانوا في شتى الأنحاء لا تربطهم أية آصرة ولا تضمهم مذهب بعينه. كما تفعل الصابئة المنتسبون إلى إبراهيم الدين كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء أيضًا!

وكان لهاتين الطائفتين — من الحنفاء — رأى واحد في رفض اليهودية وال المسيحية معاً والاعتراف بدين إبراهيم، وإبراهيم هذا — الذي عرفوه من اليهود والنصارى — هو الأصل الذي ينسبون إليه، فهو والد جدهم إسماعيل، وهو الذي بنى الكعبة في مكة. وكانت شريعة الحنفاء سمحّة رشيدة، واضحة المحجة، سهلة الإقناع لهؤلاء العرب العميلين، وهي في جوهرها صالحة لأن تكون دين العرب قاطبة، ولم يكن ينقصها — بل يبلغ هذه الغاية — إلا أن تكون عقيدة ثابتة مستقرة، وأن تكون لها هيئة روحية ذات سيادة دينية، وأن تكون منزلة من السماء، أو تُفهم على أنها كذلك.

وهذا هو العمل العظيم الذي أخذ محمد ﷺ على عاتقه القيام به؛ ليتم نقص الحنيفية، ولكن هذا العمل — على ما فيه من صعوبة — قد ضوّعت مصاعبه؛ لأن العرب لم يكونوا في غير حاجة إلى الدين فحسب، بل كانوا — إلى ذلك — ينفرون بطبيعتهم من كل مظاهر من مظاهر العبادة ومراسيمها، كما كانوا يكرهون الفروض الغامضة والمعميات التي تتصل بما وراء الطبيعة.

ولا بد من إقناع جازم ويقين لا يتزعزع للتغلب على هذه العقبات.

٢١ الشرائع

وأصبحت — بعد حين — طي أرماس من الشرائع والأخلاق والناس

كم من شرائع أبلى الدهر جَدَّتها
لكل جيلٍ جديِّدٍ ما يلائمه

٢٢ (١١) بعد وفاة النبي

مات النبي ولم يترك ولداً له، ولم يعين خليفة يخلفه، فكانت الساعة غاية في الحرج، وأصبح كيان الإسلام نفسه مهدداً نهب الحوادث والظروف، وقد انتشر خبر وفاته بسرعة لا مثيل لها، وكان له وقع شديد على أصدقائه المخلصين، وكأنما أصابتهم صاعقة حين بلغهم هذا النبأ المروع، وكان الناس قسمين، قسماً يحسّه خالداً لا يموت، وقسماً لا يتوقع موته بهذه السرعة، بل يؤمل له حياة طويلة، وعمرًا مديدة، وكان «عمر» — خاصة — من يؤمل هذا الأمل.

وبعد أن مات النبي وأسلم آخر أنسفاسه بزمن يسير، دخل «عمر» مخدع «عائشة» فرفع الغطاء — الذي كانت جثة النبي مسجأً به — وتأمل محييا سيده ملياً وهو في نومته الأبدية — فرأى كل شيء هادئًا، ونظر إلى ما حوله فرأى سكوناً طبيعياً، فلم يعد يصدق ذلك النبأ المروع، وصاح: «كلا لم يمت النبي بل هو في غيبوبة!»

وكان «المغيرة» حاضراً فحاول عبثاً أن يرشده إلى خطئه، فقد صرخ فيه عمر: «كلا بل تكذب، إن رسول الله لم يمت ولكن خبث طويتك، وفساد نفسك الشريرة قد أدخل في روعك هذا الوهم الخطاطي، ولن يموت النبي قبل أن يقضى على المنافقين ويبيد أهل الشرك.»

ثم ذهب «عمر» — من توه — إلى المسجد فصاح فيمن تجمهر من الناس: «لقد زعم الزاعمون، وأرجف المرجفون أن محمداً قد مات، وبئس ما يتقولون، ألا إن محمداً لم يمت، وإنما ذهب للقاء ربه كما فعل موسى إذ غاب عن قومه أربعين يوماً ثم رجع إلى أصحابه — بعد أن يئسوا من عودته — ووالله ليعودن النبي كذلك، ثم ليعاقبن كل من اجترأ على هذا القول!»

ولم يك يسمع الحاضرون قوله حتى آمنوا عليه، ولا غرو في ذلك؛ فقد كانوا — إلى زمن يسير جداً — يرون محمداً في نفس المكان الذي يخطبهم فيه «عمر»، فلم يكن أحد إليهم من تصديق ما يقوله «عمر».

وجاء «أبو بكر» في هذه اللحظة فاخترق المسجد، وأصغى هنيهة قصيرة إلى كلام «عمر» المتراجح عاطفة وحماسة؛ ثم أسرع إلى مخدع «عائشة» ووقف أمام جثة النبي أيضاً، فرفع الغطاء عنها، وقبل وجه صاحبه — وهو مستعرق في نومته الأبدية — ثم صاح قائلاً: «طلبت حياً وميتاً». ورفع رأس النبي بتؤدة وأناة، وتأمل أسارير ذلك الوجه الذي طالما تملّى به من قبل، ثم قال: «نعم لقد متَّ، فوا أسفًا عليك أيها الصديق المحبوب! بأبي أنت وأمي؛ فقد قاسيت من غمرات الحمام ما قاسيت، وتجرعت من غصص الموت ما تجرعت. وإنك لأكرم على الله من أن تتجرع هذه الكأس مرة أخرى!» ثم وضع رأس النبي برفق — على وسادته — وقبل رفيقه مرة أخرى، ثم سجّاه بخطائه ورجع — أدراجه — إلى المسجد فوجد «عمر» لا يزال يتراجح حماسة، وهو يخطب الناس ليقنعهم أن الرسول لم يمت، فصاح فيه: «حسبك يا عمر! هدى من ثائرتك واجلس حيث أنت!» فلم يصحغ إليه عمر وطفق يخطب الناس، فولى أبو بكر وجهه شطر الناس، فأقبلوا عليه وتركوا عمر، فقال لهم أبو بكر: أما قال تعالى — في محكم آياته — لنببيه: ﴿إِنَّكَ

مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّنُونَ ﴿١﴾ أَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ أُخْرَى – بَعْدَ مَوْقِعَةِ أَحَدٍ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾. أَلَا مِنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنْ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمِنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ!

وَكَأَنَّمَا كَانَ النَّاسُ فِي حَلْمٍ فَأَفَاقُوا مِنْهُ بَعْدَ مَا سَمِعُوهُ مِنْ قَوْلِ أَبْيَ بْكَرَ، فَقَدْ ذَهَلَ النَّاسُ مِنْ فَدَاحَةِ الْخُطُبِ عَنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْقَرآنِيَّةِ حَتَّى إِذَا ذُكِّرُهُمْ بِهَا «أَبْيَ بْكَر» الرَّازِيُّونَ أَيْقَنُوا جَمِيعًا أَنَّهُمْ لَنْ يَرَوْا النَّبِيَّ بَعْدَ!

(١٢) انتخاب الخليفة

بقيت عقدة خطيرة لا بد من حلها؛ وهي أنَّ مُحَمَّدًا قد مات ولم يعيَّنْ من يخلفه، فلا مندوحة إذن عن انتخاب أمير لهم، ولكن من الذي يعيَّنْ هذا الأمير؟
أيعينه كل المسلمين؟ هذا حسن، فهل من سبيل إلى تحقيقه؟
لقد كان الوقت عصبيًّا، وكان من السهل أن يرى الإنسان أمامه أزمة رهيبة وشيكَة،
وجمهُرة من القبائل لن تثبت أن تردد عن الإسلام؟
إذن يتعمَّنُ أن يقتصر انتخاب الخليفة على القبيلة التي لها الصدارة والسلطان –
بين قبائل العرب قاطبة – وثم اجتمع الأنصار «أهْلَ الْمَدِينَةِ» الذين عزُّ بهم الإسلام
وانتصر، فمن يختارون؟

لا مجال للتردد والحريرة، فأمامهم الفارس النبيل «سعَدُ بْنُ عَبَادَة» رئيس الخزرج،
وقد كان من الطبيعي المألوف أن يختاروه – ولم يكن حينئذ تم شفاؤه من مرض
خطير كان قد ألمَّ به – فحملوه مدثراً مدوِّجاً إلى جمهور المدينين، وكان ضعيفاً من أثر
المرض فلم يستطع إبلاغهم صوته؛ فقام أحد أصحابه يردد ما يقول.
وقد ذَكَرَ «سعَدُ بْنُ عَبَادَة» أصحابه بأنَّهم أول من دخل الإسلام من القبائل، وأنَّ
نصرته لم تتم إلا بهم بعد، وأنَّهم لذلك جديرون بالزعامة على العرب قاطبة.
فقابلوا كلامه بالاستحسان والتثبيذ، وأظهر جمهورهم له حماسة شديدة، ونادوا
به – في الحال – خليفة لرسول الله، ولكن فئة قليلة منهم أبدت خوفها من رفض
المهاجرين هذا الرأي وعدم رضائهم عنه؛ فأجابهم أصحابهم: «لَا عَلَيْنَا مِنْ ذَلِكَ، وَسَنَقُولُ

لهم حينئذ: «لقد اخترنا لنا أميرًا، فاختاروا لكم أميرًا وافترقوا عنا، فلن نذعن — بحال ما — لغير أميرنا الذي اخترناه».

ولم يكد يبلغ «أبا بكر» هذا النبأ حتى أقبل عليهم بأقصى ما في قدرته من سرعة، ومعه عمر، وأبو عبيدة — وما كادوا يصلون حتى انبرى عمر للكلام فمنعه أبو بكر — وله كل الحق فيما فعل — خشية من تحمسه واندفعه، وقال له: «ترى ثُتْ حتى أتكلم ثم قل ما شئت بعدي».

وببدأ أبو بكر يخطب في الناس — بكل تواضع — فاعترف للمدنيين بما قاموا به من خدمات جليلة للإسلام، ثم أظهر لهم — إلى هذا — جدارة المهاجرين بالخلافة؛ لقربتهم من الرسول وكونهم من أسرته، ثم لأنهم أول من دان بالإسلام، وقد لقوا في سبيله ألواناً من العسف، وضربوا من النكال، واحتملوا ذلك كله صابرين!

ثم قال: «فأنتم تلوننا في هذه المرتبة، فليكن الأمير منا والوزراء منكم». فأجابوه: «بل منا أمير ومنكم أمير!»

فصاح عمر: «كلا، ومحال أن نولي أميرين، ولن تعرف العرب بمن تختارون؛ فليس نبيهم من قبيلتكم، ولن يخضعوا لأحد إلا أن يكون قريباً للنبي، ومن رفض ذلك أرغمناه على قبوله إرغاماً».

وتحمي وطيس الكلام، وكاد اللجاج ينقلب خصومة: لو لم يقل لهم «أبو عبيدة»: لقد كنتم أول ناشر للإسلام، وأول معين للنبي، فلا تكونوا الآن أول ساع في التفرقة وتشتيت الوحدة الإسلامية.

وهنا قام «بشير» — قريب «سعد» ومنافسه — فقرر ما للمهاجرين المكيين من الحقوق في أعناق المسلمين، فأثار كلامه في نفوس فئة من الخزرج، ولكن الأثر لم يبلغ أشدّه إلا في نفوس القبيلة المدنية الأخرى، وهي قبيلة «الأوس»، بسبب ما كان بينها وبين قبيلة «الخرج» من نفور قديم جعلهم لا يرتاحون إلى سعد، ولا يرضون به أميراً عليهم، وكانوا — منذ لحظة — يقررون حق المهاجرين وجدارتهم بالخلافة، فلما سمعوا كلام أبي عبيدة ثبتو على رأيهما، وظاهروا المهاجرين على الأنصار.

وبذلك سُنحت فرصة ملائمة، فأسرع أبو بكر إلى انتهازها وأمسك بيده — عمر وأبا عبيدة — داعيَ المدنيين إلى اختيار واحد منهم لما يباعته بالخلافة، فصالحا في نفس واحد: «بل أنت خير منا، فامدد يدك نبايعك ونقسم لك على الخصوص والطاعة». وامتدت

بين يديهما يد ثالثة إلى يد أبي بكر، وهي يد «بشير» الذي أسرع بمباعته معهما؛ ثم نهج الأوس منهجه وأقبل المسلمين بمباعونه أفواجاً، واشتد الزحام وعلت صيحات الفرح؛ فاختلطت بأصوات الدهشة، وأراد حباب الخزرجي أن ينأى الدعوة فصرخ مهدداً بالحرب، واستل سيفه فانتزعه «عمر» من يده.

ورأى «سعد» آماله في الخلافة تتبدد هباءً، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، فقد أصبح «سعد» نفسه في خطر حين تكأأت عليه الجموع، فكادت تسحقه – وهو في محفظة التي كان محمولاً عليها – وعيتاً حاول أصحابه أن يقنعوا جمهورة المسلمين بوجوب احترامه؛ فإن «عمر» نفسه لم يتورّع عن إهانته ووصفه بأقبح النعوت – على الرغم من أنه خصم أعزل جليل القدر – وقد تداركه أبو بكر فصدّ هذه الجموع عنه وأنقذه من أذاهم وشرهم.

وإذن فقد تم انتخاب الخليفة – خليفة النبي – وسط هذه الفوضى الشاملة، كما اعترف بهذه الحقيقة «عمر» نفسه على ملاٍ من الناس في المسجد المدني فيما بعد. وقد كسب المكيون بهذا الفوز أمرين: «زعامة العرب»، وحسن اختيار الخليفة».

فقد ولوا أمرهم رجلاً كان أخلص صديق لنبيهم، ولو ترك أمر اختيار الخليفة إلى الرسول فقد لا يختار سواه؛ ذلك أنه جمع – إلى حبه الرسول – متانة الإيمان وقوه اليقين وصدق العزيمة في إعزاز الإسلام ونصرته.

وبهذه الصفات نجح أبو بكر في التغلب على المصاعب والعقبات التي كانت تكتنفه. وفي الحق أن الوقت كان عصبياً، وكانت الظروف غاية في الحرجة، فقد كان موت النبي – الذي كانت تترقبه العرب منذ زمن طويل بفارغ الصبر – مؤذناً بالثورة في كل مكان، ولقد كنت ترى الثنائيين – في حيثما ذهبت – رافعين علم الثورة والتمرد، وقد رجحت كفتهم أيما رجحان حتى لقد طردوا ولاتهم من بلادهم، فلم يجد هؤلاء أمامهم ملجاً إلا المدينة؛ فتقاطروا عليها من كل فجٍ يحتمون فيها من أذاهم.

وكان لا يمر يوم حتى يفُد على المدينة بعض الولاة، والعمال المطرودين، وأعدت القبائل المجاورة للمدينة عدتها لحصارها.

فكيف يقاومهم «أبو بكر» وليس لديه جيش يحاربهم به بعد أن أرسل جيشه إلى سوريا ليفتحها؛ تنفيذاً لأمر النبي – برغم نصيحة المسلمين الذين رأوا خطورة الحال، ولقد ألحوا عليه أن يعدل عن تنفيذ فكرة الفتح حينئذ، فقال لهم: «لن أخالف ما أمر

به النبي ولو أصبحت المدينة نفسها نهباً للثائرين والتمردين، ولا بد لي من تحقيق مشيئته!»

ومن ثم ترى الخطر العظيم بادياً، على أنه — على الحقيقة — خطر أقل مما تدل عليه ظواهره، فإن قوة الخصم الحقيقية لا تقاوم بما لديه من عدٍ ورجال، بل بما عنده من قوة معنوية، وبما يصبو إلى تحقيقه من غاية سامية يتطلع إليها ويخوض غمار الحرب من أجلها، باذلاً في سبيلها النفس والنفيس.

فما هي الغاية التي يسعى إليها الثائرون؟ وأي حافز يدفعهم إلى إضرام هذه الحرب؟

أهو إيمان وثيق متواشج في أعماق قلوبهم كإيمانهم القديم الذي كانوا عليه قبل البعثة؟ لو كان ذلك لما كان ثمة شك في انتصارهم الحاسم!

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، فإنهم لا يحاربون الآن لينصرُوا دينهم القديم ويؤيدوه؛ بل هم يثورون على دينهم الجديد؛ لأنهم لا يطيقون احتماله.

وليس هذا بالسبب القوي الذي يلهب حماستهم ويحفّزهم إلى الإتيان بجلال الأعمال، ولا هو بالسبب الذي يخلق البطولة والأبطال، فقد كان رؤساء القبائل المتردة أنفسهم شاعرين كل الشعور بضعف قوتهم المعنوية؛ فلجاً بعضهم إلى فكرة سخيفة حسبيوا أنها تعيد إليهم تلك القوة، فادعوا النبوة! وخيل إليهم أن محمدًا لم ينجح إلا بهذه الفكرة؛ فأرادوا تقليده.

ولكنهم نسوا أمراً واحداً — هو سر نجاحه في بث دعوته — ذلك أنه كان مؤمناً بما يدعوا إليه إيمان المستيقن الجازم، وهذا هو الذي يعزّزهم وبغيره لا يتم نجاح.

وكانت تلك الثورة الهائلة وتلك الحرب الشعواء — على ما أريق فيها من دماء غزيرة إذا قورنت بما أتاه المسلمون في غزوتهم التي عز بها الإسلام — ظاهرة سخيفة مضحكة، يتمثل فيها الإنسان — عن غير قصد — كيف قلبوا تمثيل هذه الرواية الجدية التي مثلها النبي وأصحابه مهزلة وعبثاً!

ألا ترى إلى مسليمة الذي مثل دور النبي في اليمامنة؟

ألا ترى إلى ذلك الدجال السوقي التعس، ذلك المشعوذ السمج، الذي لا يصلح لغير التدجيل وإدخال بيضة في زجاجة ضيقة الفوهة، ألا ترى إليه ينشئ قرآنًا سخيفاً يقلد به محمداً، ثم يرخص لأتباعه في شرب الخمور أثني شاءوا، ولا يكاد ينشر دعوته حتى يصادفه سوء الحظ فتحاصره «سجاح» وتنازعه النبوة.

أما «سجاح» هذه فقد كانت مسيحية نشأت في «بلاد النهرين»، وجاءت تبث الدعوة لنفسها — على رأس جيش عظيم — فماذا يصنع مسيلمة؟
ليس أمامه إلا أن يلجم إلى طريق المسالمة — وقد فعل — فأرسل إليها هدايا فاخرة،
ودعاها إلى محادثته، وطال بينهما الحوار.^{٢٣}
ولما عادت «سجاح» إلى قومها سألوها عن رأيها في «مسيلمة» فقالت لهم: «لقد
رأيته نبياً حقاً فتزوجت منه!»

فسألها التميميون: «وهل أهدى إلينا شيئاً من مهر الزواج؟»
فقالت: «لا». فقالوا لها: «عارض علينا أن نزوج نبيتنا بلا مهر! ولن نقبل ذلك بحال
ما!»

فأرسلت إليه بذلك — وكان مسيلمة خائفاً متحصناً — فلما جاءه الرسول لم يأذن له حتى عرف الغرض الذي جاء من أجله، فاطمأن إليه وقال له: «عد إلى قومك فأخبرهم أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد رفع عن التميميين — من الصلوات الخمس — صلاتي الصبح والعشاء..».

ولقد فرح التميميون بذلك، وساروا عليه حتى بعد أن عادوا إلى الإسلام من جديد.

ومن ثم أن هؤلاء التائبين ليس لهم عقيدة جدية يدافعون عنها، فلا غرو إذا قهرهم رجل كأبي بكر وثيق الإيمان قوي الإرادة صلب العزيمة، لا يعرف هوادة — في إرغام أنوفهم — ولا رحمة!

ولو شاء أبو بكر أن يهادنهم لتنازل لهم عن قليل من مطالبه، فكسب بذلك مساعدة كثير من القبائل — أو ضمن حيادهم على الأقل — فقد وعدوه بالمواظبة على إقامة الصلاة المفروضة عليهم؛ على شريطة أن يغفيمهم من إيتاء الزكاة، ونصحه أعيان المسلمين أن يقبل ذلك منهم، فرفض رأيهم بإباء شديد، وقال لهم:^٤ «إن الإسلام قانون واحد لا يتجزأ، وليس لأحد أن يأخذ ببعضه ويرفض البعض الآخر..».

وقد كان هذا الإصرار الحازم، وذلك الحقد الشديد على أهل الردة سبباً في منحة قوة أكبر مما نتصور.

ولم يك ينتهي من إخضاع القبائل المجاورة له حتى بدأ يهاجمه «طلحة» الذي كان بطلاً من قبل، وقد جاء يدعى النبوة كغيره ثم يجبن عن دخول المعركة؛ فيرقب الحرب

— وهو بعيد عن الميدان — مدثراً في عباءته كأنما يؤمل أن ينزل وحي من السماء، أو تحدث معجزة خارقة، وقد ترقب ذلك زمناً طويلاً ثم وقعت المعجزة؛ إذ بدأت تنهر قبيلته أشنع انهزام، وحينئذ صاح في جنده: «احتدوا حذوي إن استطعتم». ثم امتطى جواده، وأطلق له العنان، وأمعن في فراره.

وكانت تلك المعركة التي اصطلاحاً المسلمين، معركةً مرّوعةً هائلة، وفي الحق أن الدماء التي أريقت في هذه الحرب كانت أكثر مما أريق في تلك الحروب الطاحنة التي نشب فيما بعد بين المسلمين والفرس، ثم بين المسلمين والإمبراطورية الرومانية، وقد اقترف العرب من الفظائع في هذه الحرب «حرب الربدة» شُنعاً لم يعرفها الإسلام قط، فكانوا إذا انهزم العدو تعقبوه ونكّلوا به؛ لأن الربدة جزاؤها القتل، لا هوادة في ذلك ولا رحمة، وقد بعث أبو بكر إلى خالد يأمره بقوله:

«عليك بإبادة الكفارة بالحديد والنار، ولا تأخذنَّك فيهم رحمة قط!»

ولقد انهزم أصحاب مسيلمة — وكان عددهم زهاء عشرة آلاف مقاتل — ومزقهم المسلمين شرّ ممزق، وغرقت بلاد العرب كلها في الدماء!

ولكن الإسلام قد خرج من تلك المعارك — الناشبة في كل مكان — مؤيّداً منصوراً، ودان به العرب بعد ذلك — طوعاً أو كرهاً — فقد أقنعهم خذلانهم بوجوب الاعتراف بالدين الإسلامي؛ إن لم يكن اعتراف المستيقن المؤمن، فاعتراف الخائف الذي يعرف قوة هذا الدين العظيمة التي لا تجدي معها أية مقاومة.

(١٢) بعد النصر

ولم يكُن يتم انتصار أبي بكر حتى وجَّه هؤلاء البدو الظائمين إلى الدماء، إلى مهاجمة فارس والإمبراطورية الرومانية، وهذا العمل عند من ينظر إلى ظواهر الأمور وحدها جرأة وتهور، ولكنه — على الحقيقة — رزانة وتعقل.

وإنما سار أبو بكر في هذا على خطة النبي التي كان يتبعها، وهي أن يشغل العرب عن التفكير في خضوعهم، ولا يدع لهم وقتاً كافياً لذلك، وقد رأى أن خير ما يربطهم بالإسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية وما يجره ذلك من الغائم.

وهكذا انتهت حروب الردة، ولم تقم للمرتدين بعدها قائمة، فقد كان عقاب الردة القتل؛ ومن هنا ظاهر الناس بالإسلام ووقفوا عند هذا الحد.

ونحن إذا استثنينا صفة المسلمين ونواتهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتنون إليهم بسببه، لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عددًا غایة في القلة، أما العرب الذين استوطنو أفريقيا فقد ظلوا — حتى بعد مضي قرن من الهجرة — لا يعرفون من الإسلام أكثر من أنه دين أتى بتحريم الخمر.

أما أولئك الذين استوطنو مصر فإنهم ما تحدثوا عن الإسلام، أو شغلوا به أنفسهم فقط، وكانوا لا يذكرون إلا أيام الوثنية وعهودها الطيبة بالثناء والحزن.

ولما انتصر العرب على الفرس في موقعة القادسية «٦٣٥م» وأخذ كل واحد نصيبه من الغنائم، بقيت نفائس أخرى وافرة لم تقسم بعد، فكتب الخليفة «عمر» — أمير المؤمنين — يأمر القائد بتوزيع باقي الغنائم على من يحفظ أوفر قسطٍ من القرآن.

فجمع القائد إليه أبطال الجهاد الذين تم بفضلهم النصر والفوز، فسأل «عمرو ابن معد يكرب» النبيل عما يحفظه من القرآن فأجابه: «لا شيء لأنني دنت بالإسلام في بلاد اليمن، ثم صرفتني الحروب العديدة عن القرآن وعن الاشتغال به». ^{٣٥}

فالتفت القائد إلى بشر بن طائف يسأله، فكان جوابه: «ليس حظي من ذلك بأوفر من حظ عمرو: «بسم الله الرحمن الرحيم». وقد كان هذا هو كل ما يحفظه من القرآن!

زد على ذلك أن الإسلام وإن لم يلق معارضة قوية أثناء فتوحاته التوالية المظفرة فإن ثراثة مكة وطبقة الأرستقراطية العربية لم يغفروا لأصحاب هذا الدين الجديد ومؤسسيه هذا الفوز الذي أحرزوه، ولم يرضوا عن ذلك السلطان الذي أراد الموحدون أن يبسطوا ظلّه عليهم.

ولقد كانت تقوم المنازعات والشغب على مسألة من المسائل ظاهر أمرها أنها شخصية لا علاقة لها بمبدأ أو عقيدة، وهي — في حقيقتها وجوهرها — غير ذلك؛ فقد كان يتخذ النزاع غرضاً يحوم حوله ومبدأ يناضل عنه؛ ليتخذ منه تکأً يبرر بها غايته من الشغب.

وقد بدأ ذلك بحادث عثمان — ثالث الخلفاء — حين تولى الخلافة بعد وفاة «عمر» ^{٤٦٤م}، وكانت سن «عثمان» حينئذ سبعين عاماً، وكان حليماً لِيُنَعَّلِ العريكة، ضعيف

الإرادة أمام أسرته، وأعيان مكة، وتراثها ورجال بني أمية؛ أي إنه كان ضعيف الإرادة أمام كل من ناصبوا «محمدًا» العداء عشرين عاماً، ثم أسلموا فكان في إسلامهم مجال واسع للظنون والخذل، ولقد نالوا بفضل «عثمان» أرفع المناصب، وانتهت المأساة الكبرى بقتل المسلمين خليفهم الشيخ المسن «عثمان».

ثم ولي الخلافة بعده «علي» ابن عم «محمد»، ولكن لم يتم الاعتراف به في كل مكان، فقد هبّت سوريا متحمّسة إلى امتصاق الحسام وعلى رأسها وإليها «معاوية بن أبي سفيان» – وكان انتصاره حينئذ هو انتصار جمهرة المعادين للإسلام، الذين كانوا يناؤونه من صميم قلوبهم، على أن المسلمين حقاً لم يخضعوا لهم، فقد أشعلوا نيران الحرب – من جديد – في زمن «يزيد الأول» ابن معاوية الذي ولي الخلافة من بعده، ولقد قام «الحسين» وهو الابن الأصغر لعلي يطالب بالخلافة، ولكنه صُرع هو وفتنه القليلة التي كانت تناصره في موقعة كربلاء.^{٣٦}

ومن ثم قام «عبد الله بن الزبير» – وهو ابن صحابي من صحابة الرسول – إلى مكة رافعاً علم الثورة، وظل سنة كاملة لا يحفل به الخليفة، ولا يلتفت إليه استغفاراً لشأنه، ذلك أنه لم يغادر مكة إلى غيرها من البلدان فلم ير له الخليفة خطراً يستحق أن يناؤنه من أجله، ورأى أن من الحزامة أن يتركه وشأنه؛ حتى لا يثير عليه حفيظة المسلمين أكثر مما أثار من قبل – بلا حاجة – فلم تكن ثمة ضرورة قاهرة تضطره إلى إراقة الدماء في بقاع كانت – – حتى في زمن الوثنية – حرماً مقدساً لا يمسه أحد بسوء.

ولكن لكل شيء حداً، فقد صبر يزيد حتى عيل صبره، فلما لم يبق في قوس الصبر منزع طلب إلى عبد الله بن الزبير – للمرة الأخيرة – أن يبايعه، فلما رفض امتنج الخليفة بالغضب، وأقسم أنه لن يقبل من هذا التأثير طاعة حتى يؤتي به بين يديه مكبلًا بالأغلال، ولما هدأت ثائرة الخليفة ندم على قسمه – وكان طيب السريرة – ففكر في وسيلة يبرأ بها في قسمه – دون أن يمس كبرياء «عبد الله» – ثم استقر على أن يرسل إليه غلاً من الفضة، ومعه حلة فاخرة ليخفيه تحتها – إذا شاء – وبعث إليه برسل يحملون معهم هدايا ثمينة، فساروا من مقر ملكه «دمشق» حتى بلغوا «مكة»، ولكن «عبد الله» رفض – بطبيعة – أن يقبل تلك الهدايا، وعبّاً حاول الرسل أن يتوصلا إلى إقناعه وإنزاله عن رأيه، فقد أصر «عبد الله» على عناده؛ لأنه كان يعتقد أن كائناً من كان لن يفكر – بحال ما – أن يلجم إلى العنف والشدة معه – وهو في تلك البقاع المقدسة

— وكان هذا سر طمأنينته، وقد أكد له الرسل بصرامة أن الخليفة لن يعنف معه، ولن يقدم على مثل ذلك العمل.

على أن «عبد الله» لم يكن أول من تعرض لغضب الخليفة ونقمته، فقد سبقه إلى ذلك ثوار «المدينة»، وكانت روح الشر مهيمنة عليهم في ذلك الحين، فقد وقعت بينهم وبين الوالي — حينئذ — خصومة بسبب النزاع على تملك بعض الأرضي. وأراد الوالي إزالة أسباب الخلاف — وكان ابن أخت الخليفة يزيد — فنصح ثارة المدينة وأعianها أن يذهبوا إلى بلاط الخليفة، فلما ذهبوا قابليهم الخليفة أحسن مقابلة وأكرم وفادتهم وتلطّف معهم؛ رغبة في أن يستميلهم إليه، ولكن يزيد كان — رغم أدبه ونبهه — غير مشبع بروح احترام الدين الذي كان يمثله وهو خليفة المسلمين الأعظم، فبدرت منه آراء عن غير قصد — صدمت بعض أصول الدين التي يقدسها أهل المدينة، فلما عادوا إلى بلادهم عادوا ساخطين، وأخذوا يشّهرون بال الخليفة ويذمّونه عند مواطنיהם متآثرين بعامل الغضب، وقالوا لهم: «إنه يشرب الخمر، ويعزف على الأوتار، ويصرف نهاره بين كلاب الصيد — وقد كان «محمد» يمقت ذلك أشد المقت — فإذا جنَّ الليل جلس بين اللصوص وقطع الطريق». يعنون بذلك البدو والأعراب الذين نشأ بينهم يزيد وترعرع، فلما كبر أدناهم من مجلسه.

وزادوا على ذلك أنه لا يصلي قط، وأنه جاحد، وعزوا إليه — فوق هذه التهم التي بنوها على أساس واهٍ أو متين — تهـماً أخرى لا أساس لها ولا وجود، وإن كان ذكرها مما يثير في نفس خصومه من أهل المدينة حفائظ وأحقاداً بعيدة الأثر.

وقد كانوا يميلون إلى تصديق كل تهمة تلتصق بكل أموي.

ومن ثم انقلب المسجد مسرحاً عجبياً تصب فيه اللعنات على يزيد وأتباعه، واجتمع أهل المدينة قاطبة — وهم صاخبون — فشرع كل واحد منهم يتجرد من شيء من ملابسه فيلقي به صائحاً: «إني أخلع يزيد كما أخلع قبائي هذا». أو «عمامي» أو «نعلي».

ثم طردوا كل من في المدينة من الأمويين ووقفوا عن تعيين خليفة جديد لهم، فقد كان القرشيون الذين في المدينة لا يحبون أن يعترفوا بأهلهما، كما كان أهلهما كذلك لا يحبون أن يعترفوا بهم.

فقرَّ رأيهم على أن يتريثوا في تعيين الخليفة حتى يتم خلع يزيد!

واستحوذ عليهم عداء جنوني — لا يحدوه رشد — فلم يتبعوا عواقب هذا الاندفاع وكيف تقف مدينة واحدة أمام جيوش الإمبراطورية الإسلامية العظيمة كلها. ولقد حاول عبّاً أحد المدينيين — وكان قد عاش في بلاط الخليفة ثم أوفده سيده إلى المدينة — أن يبين حقيقة الخطر لمواطنه، ولكن الغضب أعماهم؛ فأصبحوا لا يعيرون الناصحين التفافاً، ولا يصيحون إلى أية موعظة تقدم إليهم بحسن نية.

وحينئذ رأى الخليفة أنه مضطرب إلى الاتجاه إلى القوة، فأرسل إليهم جيشاً عهد بقيادته إلى «مسلم»، وكان «مسلم» أقرب إلى الوثنية منه إلى الإسلام، فأمره أن يترك لأهل المدينة ثلاثة أيام يفكرون فيها، فإذا أتوا أن يخضعوا — بعد ذلك — هاجمهم ودمر مدینتهم تدميراً في ثلاثة أيام أخرى، ثم أخذ على من فيها المواثيق بأنهم عبيد يزيد، وأمرهم أن يقسموا على ذلك، فإذا رفض أحدهم أن يفعل قُطعت رقبته.

ولم يك يبلغ أهل المدينة رسالته حتى هبوا تائرين أنفقة من الخضوع، وأعدوا عدتهم للقاء العدو، وجاهد الفريقان بشدة وصبر نادرين — وكانت موقعة الحرة سنة ٦٨٣ م — وظهرت الخسائر من الفريقين متكافئة، وكان أهل المدينة مت蛔سين يذكى فيهم الحرارة والقوة تعصبهم الشديد، واعتقادهم الثابت أنهم المختارون، وأن أعداءهم — من جيش سوريا — هم عند الله كالوثنيين سواء، وكانوا على يقين من أن خصومهم إذا ماتوا صَبَّتْ عليهم اللعنة وبأوا بغضب من الله؛ أما هم فإنهم سالكون — بلا شك — مسالك الشهداء والأبرار.

وبقي مصير الحرب معلقاً في كفِّ الأقدار زمناً طويلاً؛ حتى كشفت الخيانة عنه، فقد ارتشت أسرة من المدينيين؛ ففتحت أحد أبواب المدينة لفرقة من جيش العدو، فدخل السوريون وسمع أهل المدينة من خلفهم — فجأة — صيحات النصر من أفواه السوريين، فضاع كل أمل لديهم في الفوز والغلبة، وأصبحت المدينة في قبضة العدو، وصار كل هجوم عبّاً ومستحيلاً، على أن جمهرتهم لم تفكر في الخطر المحقق بها، فهجم أهل المدينة على أعدائهم فراداً، وباعوا حياتهم بأغلى ثمن استطاعوا أن يبيعواها به! وكان من بين القتلى سبعمائة من حفظة القرآن، وأربعة وعشرون من الصحابة، ولم يكن أحد من الصحابة الذين حاربوا مع النبي قد حارب — بعد أن نصروه في حرب بدر على المكيين — حتى شهدوا هذا اليوم المشئوم.

ودخل «المدينة» فرسان سوريا، فلما لم يجدوا مكاناً يربطون فيه خيالهم ربطوها في مسجد المدينة، بين جدث النبي وكرسيه؛ أي في نفس المكان الذي طالما سماه النبي نفسه جنة «من جنان الفردوس».

ثم نَبَّهُوا المدينة في ثلاثة أيام، وسبَّوا كل من فيها من نساء وأطفال؛ ولم ينج أحد من بقي من أهلها – وقد فر أكثرهم – إلا بعد أن يكون عبداً من عبيد يزيد. وهكذا أقسموا جميعاً على أن يكون الخليفة «يزيد» سيدهم ومولاهم، وأن يكون في حلٍّ من التصرف فيهم بما شاء، من عتق أو بيع، كما أقسموا أن يكون له الحق في كل ما تملك أيمانهم من نساء وأولاد وأرواح.

ولما رأى أبناء مؤسسي الإسلام أنهم مضطهدون معذبون، وأن بني أمية قد أرهقوهم إرهاقاً، لم يجدوا أمامهم وسيلة إلا الهجرة؛ فهاجر الكثيرون منهم إلى حيث انضموا إلى جيش أفريقيا، ثم انضم أغلبهم – فيما بعد – إلى جيش العرب في إسبانيا.

وكان «مسلم» مكلف أيضاً بإخضاع مكة؛ ولكن الموت عاشه عن تحقيق إربته، فأخذ «الحسين» – وهو أحد رجال جيشه – على عاتقه أن يحقق ذلك، فتولى قيادة الجيش، وبدأ يحاصر مكة، ويقذف الكعبة بالحجارة والصخور؛ حتى حطم عمدها وقواعدها، ثم نجح أخيراً في إحراقها جملة، ولقي الحجر الأسود في هذه المرة أول نكبة حاقت به؛ لأنه لم يطق مقاومة النار فتحطم أربعة أجزاء.

على أن مكة لم يتم إخضاعها؛ فقد حال دون ذلك موت يزيد، وما أعقبه من الفوضى التي اضطررت الجيش إلى رفع الحصار والرجوع بالجيش تَوَّا إلى سوريا. وبهذا استعاد «عبد الله بن الزبير» قوته، واستتب له أمر الخلافة في «مكة» وخارجها أيضاً.

ولكن الأمويين ما لبثوا أن تم لهم الأمر من جديد بعد أن تولى الخلافة «عبد الملك» وخضعت البلاد كلها له، ولم تبق إلا مكة وحدها ثائرة وفيها «عبد الله بن الزبير»، فلما رأى «عبد الملك» ذلك وجاه إليها جيشاً بقيادة الحجاج، فذهب إلى تلك البقاع المقدسة وحاصر المدينة، وطفق يرمي الكعبة بالحجارة ليدكها دكّاً، وبينما كان يقذفها بالنار – ذات يوم – هبّت عاصفة شديدة فأحرقت النار التي عشر جندياً؛ فرأى الجيش في ذلك عقاباً من الله على انتهاك حرمة ذلك المكان المقدس، فأحجم رجال الحجاج وكفوا عن ذلك.

فاغتاظ الحاج وخلع بعض ملابسه وتقدم إلى المنجنق، فأخذ بيده حجراً ووضعه فيه، ثم حرك جباله بعد ذلك وهو يقول: «لقد أخطأتم الفهم، فليس معنى ما حدث هو ما فهمتموه، ألا إنني لخبير بطبيعة هذه البلاد؛ ففيها ولدت وقد رأيت لهذه العاصفة أشياها لا تحصى!»

وظل يشدد الحصار عليها بقوة عدة أشهر، ثم أخذت المدينة بعد أن مات «عبد الله بن الزبير» سنة ٩٦٢ م.

هوامش

(١) الثنوية دين المجروس الذين أثبتو — كما يقول الشهيرستاني — أصلين اثنين مؤثرين قد يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد، ويسمون أحدهما النور والثاني الظلمة، وبالفارسية «يزدان» و«إهرمن». وهذا رأي من يدينون بالثنوية والمانوية، وقد أشار التمنبي إلى ذلك في قوله من قصيدة مدح بها سيف الدولة:

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

(٢) يعني الأوربيين.

(٣) ارجع إلى كتابه «الإسرائيлиون في مكة».

(٤) كان العرب يعتقدون بوجود الله، ويعتقدون أن شئون الكون كلها بيده كما ترى في الكتاب الكريم في قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ حَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وقوله في آية أخرى: ﴿قُلْ لَمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ فَإِنَّمَا تُسْحَرُونَ﴾.

(٥) قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْرُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلُكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ﴾.

(٦) قال أبو العلاء على لسان جني في رسالة الغفران:

فتارةً أنا صلٌ في نكارته
تلوح للإنس حولاً أو ذوي عورا
وريماً أبصرتني العين عصفورا
ولم نكن قط لا حولاً ولا عورا

(٧) بعض الأساطير عن الجن

افتنت رواة العرب وشعراء العرب في رواية الأساطير الرائعة عن الجن، ولعل أجمل ما قرأناه في ذلك هو تلك القصة البدعية التي تخيلها أبو العلاء في رسالة الغفران بين ابن القارح وشيخ من أدباء شيوخ الجن، وفي هذه القصة يرى القارئ حواراً ممتعاً لا ينفاذ إلا قلنا إنه منقطع النظير في العربية كلها، ومن أجمل ما نختاره من تلك القصة قوله الجنى - وهو يقص على ابن القارح بعض ما حدث له في الدار الأولى:

وكلت ألف من أتراب قرطبة
أزور تلك وهذى غير مكتريث
ولا أمر بوحشى ولا بشر
خوداً وبالصين أخرى بنت «يغبورا»
في ليلة قبل أن تستوضح النورا
إلا وغادرته ولهان مذعورا

إلى أن يقول:

وأحضر الشرب أعروهم بأبدة
فلا أفارقهم حتى يكون لهم
وأصرف العدل خللاً عن أمانته

إلى آخر القصيدة.

وَمَا ذَكَرَهُ ذَلِكُ الْجَنِيُّ لَابْنِ الْقَارِحِ قَوْلُهُ: «وَلَسْتُ مِثْكُمْ يَا بْنِي آدَمَ يَغْلِبُ عَلَيْنَا النَّسِيَانُ وَالرَّطْبَوْةُ؛ لَأَنَّكُمْ مِنْ حَمَّا مَسْنُونُ وَخَلَقْنَا مِنْ مَارِجِ نَارٍ». وَقَوْلُهُ: «وَهُلْ يَعْرِفُ الْبَشَرُ مِنَ النَّظِيمِ إِلَّا كَمَا تَعْرِفُ الْبَقَرُ مِنْ عِلْمِ الْهَيَّةِ، وَمَسَاحَةُ الْأَرْضِ، إِنَّمَا لَهُمْ خَمْسَةُ عَشَرَ جَنْسًا مِنَ الْمَوْزُونِ قَلَّ مَا يَعْدُوهُمُ الْقَائِلُونَ، وَإِنْ لَنَا لِأَلَافٍ أَوْزَانٌ مَا سَمِعْ بِهَا إِنْسٌ».

وقوله: «ولا بد لأحدنا أن يكون عارفاً بجميع الألسن الإنسية، ولنا بعد ذلك لسان لا يعرفه الآتيس».»

وقد قص الجنى على ابن القارح - في قصيدة أخرى - شيئاً كثيراً مما ينسبه الناس إلى الحن، فمن ذلك قوله:

من بيتها عن سوء ظن حديس
وأقبل نصيحاً لم يكن بالدسيس
عاد من الوجد بجد تعيس
ثغراً كدر في مدام غريس
ونخرج الحسناء مطرودةً
نقول: لا تقنع بتطليقها
حتى إذا صارت إلى غيره
نذكره منها — وقد زوجت —

وفي هذه القصيدة يقول:

يطلق منها كل عاًٍ حبيس
فلم تغادر منه غير البسيس
ويقتري جن «سليمان» كي
صير في قارورة رصبت

يعني بذلك أنهم يجوبون أنحاء البلاد باحثين عن إخوانهم من عصاة الجن الغاوين
الذين سجنهم النبي الله «سليمان» في قوارير أحكم سدادها بالرصاص؛ حتى لا يجدوا
سبيلاً إلى الفرار، فلم يبقَ منهم ذلك الحبس الطويل إلا الرمق.
وقد أشرنا — في رسالة الغفران — إلى ذلك إشارة موجزة لا بأس من إثباتها لفائدة

القراء:

أساطير الجن وسليمان النبي

شاعت أساطير «سليمان» والجن وانتشرت منذ أقدم أزمنة التاريخ؛ فنسبوا إليه القدرة
المطلقة على تسخير الجن، ومعرفة لغاتهم المختلفة، وعزوا إلى خاتمه — المشهور بما
عليه من النقوش — معجزات لا تحصى، كما عزوا إلى بساطه قدرة خارقة على الطيران
بما يحمله في الجو بسرعة لا يكاد يتصورها العقل.

وقد كانت تُجمع تلك الأساطير على عدة أمور أضجها الخيال، ونسقها التواتر،
فمن ذلك أن «سليمان النبي» كان يهيمن على الجنان ويطلب منهم خدمات شتى تتفاوت
صعبية ويسرًا، وقد يعن له أمر هام لا يستطيع إنفاذه إلا جنٍّ يعينه يكون مشهورًا
بقدراته الخارقة؛ فيرسل إليه، فإذا لبَّى دعوته فذاك، وإنْ نَكَّلَ به أو ختم جبهته بالنقش
الذي على خاتمه؛ فأحرقه نَوًّا أو سجنه في قارورة مرصضة أو قمم من النحاس، وربما
سجنه في عمود طويل من الصخر بعد أن أوثقه بالسلاسل والأغلال وختمه بخاتمه.
وقد اشتهر وزيره الحكيم «آصف بن برخيا» بمساعداته القيمة لسليمان على إذلال

الجن وإخضاعهم لأوامره.

وقد ذاع من تلك الأساطير — بين العامة والخاصة — شيء كثير، وافتن الناس في روایاتها بأساليب شتى وطرق متباعدة، ولهذه الأساطير مصادر عده نخص بالذكر منها — عدا روایات وأقاوصيص رواة العرب — مصدرين رئيسين ندعهما من أخصب المصادر وأغناها؛ وهما «أساطير ألف ليلة وليلة» و«أسطورة سيف بن ذي يزن». ففي «ألف ليلة وليلة» ترى:

«حكاية الصياد والجني»

وموضوعها أن صياداً عائلاً طاعناً في السن كان من عادته أن يرمي شبكته كل يوم أربع مرات.

فخرج في صبيحة يوم حسب عادته، وطرح شبكته وصبر إلى أن استقرت في الماء، ثم جمع خيطانها فوجدها ثقيلة فجذبها فلم يقدر على ذلك. فأخذ يعالجها حتى إذا تمكن من إخراجها وجد فيها حماراً ميتاً فحزن، ثم أخرجه ورمى شبكته مرة ثانية.

فلما جذبها وجدها ثقيلة — كما وجدها في المرة الأولى — فظل يعالجها حتى استطاع إخراجها؛ فوجد فيها زيراً كبيراً مملوءاً رملاً وطيناً فزاد حزنه، ثم أخرج ما فيها، ولما ألقاها للمرة الثالثة وجذبها، وجد بها شفافة وقوارير؛ فعجب من سوء بخته ونكد طالعه.

وقبل أن يلقي الشبكة — للمرة الرابعة والأخيرة — توسل إلى الله أن ييسر له، ثم سمي باسمه وألقى شبكته، وصبر إلى أن استقرت، فإذا بها أثقل منها في المرات السابقة. فيبذل أشد الجهد في إخراجها حتى تتمكن من ذلك بعد عناء شديد فوجد بها قمقماً من نحاس أصفر مسدوداً بالرصاص، ومطبوعاً بخاتم سليمان النبي، فتبدل حزنه سروراً.

وقال في نفسه: «سأبيع هذا القمقم في سوق النحاس؛ لأنّه يساوي عشرة دنانير ذهباً، ولكن لا بد من فتحه لأعلم ما يحتويه.» وأخرج مدبة كانت معه فعالج بها الرصاص حتى فكَّه، ثم أزال غطاء القمقم فتصاعد منه دخان كثيف إلى عنان السماء، لم يلبث أن تجمَّع واكتمل حتى رأى الصياد أمامه مارداً هائلاً مروعاً من الجن، فارتعدت فرائصه، واضطرب ببلائه، ولم يعده إلى رشدِه إلا قول الجن له: «العفو يا نبي الله



صورة الصياد والجني والقمقم.

سلیمان، التوبه التوبه! آمنت بك وأطعتك ولم أعد أخالف لك قولاً أو أعصي لك أمراً، فلا
قتلني فإني تائب نادم على ما فرط مني من العصيان!

فعاود الصياد الرمق وقال له: «أين سليمان النبي أيها الجن؟ لقد مات منذ عدة
قرون، فما قصتك؟ وما سبب حبسك في هذا القمقم؟»

فلما علم الجنى بموت سليمان النبي التفت إلى الصياد قائلاً: «سأجازيك على جميلك
بالقتل، ولكنني سأترك لك اختيار ميتك!» فقال له الصياد: «أهذا جزاء من أحسن إليك
وأخرجك من سجنك؟» فقال له الجنى: «لقد كنتُ من الجن المارقين، وقد عصيت سليمان
بن داود — واسمي صخر الجنى — فأرسل إلى وزيره آصف بن برخيا فأتي بي مكرهاً
وقادني إليه ذليلاً، فلما وقفت بين يدي سليمان النبي أمرني بالدخول في طاعته فأبىت،
فحبسني في هذا القمقم، وختم عليَّ بالرصاص، وطبعه بخاتمه المنقوش عليه (الاسم

الأعظم)، وأمر الجن فألقوني في وسط البحر، فمكثت مائة عام وقلت في نفسي: كل من خلّصني أغنته إلى الأبد، ولما مرت مائة عام ولم يخلّصني أحد قلت: «كل من خلّصني في خلال هذا القرن الثاني فتحت له كنوز الأرض». فلم يخلّصني أحد، ومرت على أربعينية أخرى فقلت: «كل من خلّصني قضيت له ثلاثة حاجات». فلما مرت تلك المدة الطويلة كلها ولم ينقذني أحد تملّكني الغضب الشديد فقلت في نفسي: «كل من خلّصني قتله وتركْت له اختيار ميته». فأي ميّة تختار أن تموتها الآن؟»

فارتمى الصياد على قدميه متسللاً إليه أن يغفو عنه، ولكنه وجد منه الإصرار على قتله.

فلجأ إلى الحيلة — بعد أن يئس من استعطافه — فقال للجمي: «ولكن لي سؤالاً أرجو أن تجيبني عليه قبل أن تهلكني، وأن تصدقني في الإجابة عنه». فقال له الجمي: «وما هو؟» فقال الصياد: «قل لي بحق الاسم الأعظم المنقوش على خاتمنبي الله سليمان: كيف كنت في هذا القمم الضيق — وهو لا يسع يدك ولا رجلك؟» فلما سمع الجمي هذا القسم اضطرب، ولكنه لم يلبث أن قال له: «ألا تصدق أنتي كنت فيه؟» فأجابه الصياد: «كلا، ولن أصدق ذلك أبداً إلا إذا رأيته بعيني؟» فانتفض العفريت وصار دخاناً في الجو، ثم اجتمع وأخذ يدخل في القمم حتى أصبح كله في داخله؛ فأسرع الصياد وسد فم القمم بالسداة التي كانت عليه من قبل، فلما رأى الجمي مكر الصياد، توسل إليه أن يفك أسره — ودار بينهما حوار طويل ممتع يجده القارئ مفصلاً في الجزء الأول من كتاب ألف ليلة وليلة، وقد انتهى ذلك الحوار بأن أقسم له الجمي أن ينفعه إذا أطلقه، وقد برَّ للصياد بقسمه.

أما أسطورة «سيف بن ذي يزن» فنعتها — على عافية أفكارها وفساد خيالها وأضطرابها في عدة مواضع منها — أغنى المصادر التي عنيت بذكر هذه الخرافة وأشباهها من وصف الجن، وبيان كفاياتهم وأقدارهم وهيمنة السحرة عليهم وأثر الطلاسم فيهم، وإظهار الفروق التي بين طوائفهم ونحلهم المختلفة ... إلخ. وقد أوسعنا تلك القصة لهذا النوع من الأساطير أرحب مكان فيها، فازدحمت بها ازدحاماً أفردها من بين الأساطير العربية، ولسنا نعرف في كل ما قرأناه من القصص العالمية — وقد قرأنا كل ما طبع منها بلا استثناء — قصة تعدلها في هذه الميزة غناءً وخصباً.

فليست من بدٍّ من أراد أن يكون فكرة واسعة عن أساطير السحر والجان والأرصاد

والطلاسم أن يقرأ تلك القصة الطويلة الجديرة بالعناية.

ومن بين أساطير تلك القصة ما ترويه لنا أسطورة «الرهاق الأسود» وقد ذكرت في موضعين منها؛ أولهما بمناسبة سفر «سيف بن ذي يزن» إلى كنوز «النبي سليمان» وثانيهما بمناسبة حفر «شلالات النيل».

فمثلت لنا ذلك «الرهاق الأسود» مارداً عنيداً تخاف الجن كلها سطوطه وبأسه، ولا تكاد تؤثر فيه الأرصاد والطلاسم، وقد بلغ من عتّوه أنه عصى النبي سليمان واستخف به وبسلطانه.

ففي ذات يوم كلف «سليمان» – تلبية لرغبة زوجه «بلقيس» – أعون الجن بعمل شاق لم يستطعوا القيام به؛ فأظهروا له عجزهم عن القيام به، وذكروا له قدرة «الرهاق الأسود» – دون غيره من الجن – على إتمامه.

فكلف وزيره «آصف بن برخيا» بإحضاره، وكان «آصف» يعلم مقدار صلابة هذا الجنى وعناده، فبعث إليه برسالة ترکها له أحد الجن عند رأسه – وهو نائم – خوفاً من سطوطه، فلما أفاق قرأ فيها قوله: «إذا لم تحضر إلى بعثت إليك الوهم!» فذهب إلى «آصف» وسألته عن الوهم وأين هو؟ فاغتنم فرصة حضوره فقيده بطلاسمه – التي اشتهر بمقدرتها الفائقة على الافتنان فيها – ثم أمره بالقيام بذلك العمل الذي أرغمه عليه إرغاماً.

وبينما هو قائم بعمله الشاق – مرت به «بلقيس» مصادفة، فهام بحبها، ولما رأى «سليمان النبي» طلب إليه أن يزوجه منها، ووعده بالرضوخ لأوامرها كلها – إن فعل – فلما علم أنه يعني زوجه، أراد أن يطبعه بالنقش الذي على خاتمه ليحرقه، فاستغاث بالوزير «آصف»، فاقتصر الوزير على «سليمان» أن يسجنه في عمود من الرخام؛ ليشقى بالعذاب طول حياته، فسجنه في عمود طويل أحكم سداده بالرصاص، وختمه بخاتمه، وظل محبوساً حتى أنقذه «سيف بن ذي يزن» إلى آخر تلك الأسطورة الطويلة التي أوجزناها أشد إيجاز، وفصلتها قصة «سيف بن ذي يزن» في الجزء الثامن ص 45 و 46، وفي الجزء الحادي عشر من ص 4 إلى آخر الجزء، ومن أول الجزء الثاني عشر إلى ص 8.

ومما هو جدير باللحظة في تلك الأساطير أنها تكاد تنتهي جميعاً بإظهار ميل أولئك الجن العصاة إلى الإساءة إلى من يحسنون إليهم بإطلاقهم، مما يدل على تأصل روح الشر في نفوسهم.

وقد أشار المتنبي إلى ما اشتهر به «سليمان النبي» من معرفة لغات الجن وقدرته على تفهُّم ألسنتهم المختلفة، في نونيته التي مدح بها عضد الدولة وذكر فيها شعب بوان، فقال:

ملاعب جنة لو سار فيها «سليمان» لسار بترجمان

وأبدع النابغة في الإشارة إلى ما اشتهر عن «سليمان» من إذلال الجن وإخضاعهم لأوامره، فقال من معلقته الجميلة أثناء مدحه للنعمان:

ولا أحاشي من الأقوام من أحد
قم للبرية فاحدها عن الفند
يبينون «تدمر» بالصفاح والعمد
كما أطاعك وادلله على الرشد
تنهي الظلوم ولا تقعد على ضمد
ولا أرى فاعلاً في الخير يشبهه
إلا «سليمان» إذ قال الإله له
وخيس الجن إني قد أذنت لهم
فمن أطاعك فانفعه بطاعته
ومن عصاك، فعاقبه معاقبة

ونختم هذا الفصل بقول الأعشى – وهو يمثل منحى آخر من اعتقاد العرب في ذلك:

لكان سليمان البري من الدهر
وملكه ما بين ثريا إلى مصر
قياماً لديه يعملون بلا أجر
ولو كان شيء خالداً ومعمراً
براه إلهي فاصطفاه عباده
وسخر من جن الملائكة تسعة

(٨) ومن الأشجار التي كان يعظمها العرب في الجاهلية شجرة «ذات أنواط»، وفيها يقول بعض الشعراء:

لنا المهيمن يكفينا أعادينا كما رفضنا إليه ذات أنواط

وفي هذه الشجرة يقول أبو العلاء في لزومياته:

والحظ يدرك أقواماً فيرفعهم وقد ينال إلى أن يعبد الحجرا

وشرَّفت «ذات أنواط» قبائلها ولم تباين — على علاتها — الشجرا

وفي هذين البيتين أيضًا إشارة إلى ما ذكره «دوزي» من عبادة العرب للحجر.
 (٩) الجمال الصغيرة، قال الشاعر

لِأَمْتَعُ الْعُوذَ بِالْفَصَالِ وَلَا
أَبْتَاعُ إِلَى قَرِيبَةِ الْأَجْلِ

(١٠) قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلّٰهِ مِمَّا ذَرَأً مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلّٰهِ بِرَبْعِهِمْ وَهَذَا لِشَرْكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشَرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُّ إِلَى اللّٰهِ وَمَا كَانَ لِلّٰهِ فَهُوَ يَصِلُّ إِلَى شَرْكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

(١١) وما جاء في القرآن الكريم قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحَضَّرُونَ * سُبْحَانَ اللّٰهِ عَمَّا يَصْفُونَ﴾ وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ اللّٰهَ الْبُنَادِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَنُكْتُبُ شَهَادَتِهِمْ وَيُسَالُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدَنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَحْرُصُونَ﴾.

(١٢) ينص القرآن على أن العرب لم يعبدوا الأصنام لذاتها — كما يتوهם بعض الناس — وقد ذكر عبد الله بن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آهَاتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًا وَلَا سُوَاغًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أن هذه الأسماء التي أطلقوها على أوثانهم ليست إلا أسماء قوم صالحين، ماتوا ف وقالت عشائرهم: «لو أنا صورناهم ليكون في ذلك تذكير لنا، وتنشيط على العبادة، وحسن الاقتداء بهم، فصوروهم حتى إذا طال عليهم الأمد عبدهوهم المترجم».

(١٣) سميت كذلك لأنها ترى من بعيد على شكل مكعب منتظم الأضلاع «دوзи».
 (١٤) «ملدية».

(١٥) قال ابن الكلبي: «كان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها هبل»، المترجم».

(١٦) روى ابن الكلبي «أنه كان من عقيق أحمر، على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب». «المترجم».

(١٧) قالوا: وكان أول من نصبه «خزيمة بن مدركة»، وكان يقال له: «هبل خزيمة»
 المترجم».

(١٨) روى ابن الكلبي في كتابه الأصنام: «أنه لما سكن إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام) مكة، ولد له بها أولاد كثيرون حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العمالق، وضاقت عليهم مكة، ووّقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضاً، فتفسحوا في الأرض التماس المعاش».

قال: «وكان لا يطعن من مكة ظاغن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للküبة وصيانتها وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعاً وطافوا به كطواوفهم بالküبة، تيمناً منهم بها، وصيابة بالحرم وحجاً له، وهم بعد يعظّمون küبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم küبة والحج والعمران». (المترجم).

(١٩) قالوا: «إن أول من أدخل عبادة الأصنام هو عمر بن لحي، وإنه أول من غير دين إسماعيل ونصب الأوّلاني، وقد جاء في كتاب الأصنام: أن السبب في ذلك أنه مرض مرضًا شديداً، فقيل له: إن البلقاء من الشام «حمة» إن أتيتها برأت. فأتاهها فاستحمل بها فبراً، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: «ما هذه؟» فقالوا: «نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو». فسألهم أن يعطوه منها فعلوه، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة».

(٢٠) هو أبو رجاء العطاردي. تجد ترجمته في كتاب ابن قتيبة ص ١١٩، وفي مسند الدارمي ص ٣٦٤ «دوزي».

(٢١) هذا هو حال أغلب الناس - على اختلاف أديانهم وأزمانهم - وليس أبلغ في أداء هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾. وفي ذلك يقول ابن دريد في مقصورته الرائعة:

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| قد قيل للسائل أخلى فارتوى | نحن - ولا كفران لله - كما |
| تطامنت عنه اطمأن ولها | إذا أحس نبأة ريح وإن |

(٢٢) كان للنعجة قيمة كبيرة عند العرب؛ لأنهم كانوا ينتفعون بلبنيها وصوفها ولحمها، وما أجمل قول أحد العرب يهدد زوجه متھكمًا:

غضبت علي لأن شربت بصوف ولئن غضبت لأشربن بخروف

ولئن غضبت لأشربن بنعجة كوماء مائة الإناء سحوف

(٢٣) كان ذو الخلصة — فيما يقول ابن الكلبي — مروء بيضاء، منقوشاً عليها كهيئة التاج، وكانت «بتباله» — بين مكة واليمين على مسيرة سبع ليال من مكة — وكان سدنتها بنو أمامة من «باهلة بن أعمص»، وكانت تعظمها وتهدي لها ختم «وجيلة» و«أزد الشراد» ومن قاربهم من بطون العرب من «هوانن» ومن كان ببلادهم من العرب بتباله، قال: وكانت العرب جميعاً تعظمه. (المترجم).

(٢٤) قالوا: إن امرأ القيس بن حجر لما أقبل يريد الإغارة على بني أسد، مرّ بذى الخلصة — وكانت له ثلاثة أقدح «الامر والناهي والمترقب» — فاستقسم عنده ثلاث مرات، فخرج الناهي؛ فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال هذه الجملة. وتُروى — في رواية أخرى — بأشنع من ذلك.

قالوا: فكان امرأ القيس أول من أخفره، ثم غزا بني أسد فظفر بهم! وفي رواية أخرى أن رجلاً كان أبوه قد قتل؛ فأراد الطلب بتأثيره فأتى ذا الخلصة فاستقسم عنده بالأزلام فخرج السهم ينهاه عن ذلك، فقال:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلي، وكان شيخ المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

(٢٥) قال ابن الكلبي: «وكان مالك وملكان ابني كنانة، بساحل جدة وتلك الناحية، صنم يقال له «سعد»، وكان صخرة طويلة، فأقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها، فلما أدنها منه نفرت منه — وكان يهراق عليه الدماء — فذهبت في كل وجه وتقرّقت عليه، وأسف فتناول حجرًا فرماه به وقال: «لا بارك الله فيك إلهًا أنفرت على إبلي». ثم خرج في طلبها وانصرف عنه وهو يقول «الأبيات».

(٢٦) هو الاسم الذي كانوا يطلقونه على ذبائح الغنم التي يذبحونها عند أصنامهم.

(٢٧) يُعرف تشيريد اليهود ونفيهم عند المؤرخين باسم جلاء بابل!

فقد تولى بختنصر في عام «٦٠٦ ق.م» وأجل اليهود عن بيت المقدس وضربه، وأخذ آنيته الشمنة، وقد مكث مخربًا نحو مائة عام، وشرد اليهود كل مشرد، وذهب فريق منهم أسرى إلى بابل وببلاد مادي. وفي عام «٢١ ب.م» جاء طيطوس فنكب اليهود مرة أخرى وهدم بيت المقدس، وشتّت شملهم وحرّم عليهم الإقامة في فلسطين، وقد كتب «يوسيفوس» المؤرخ كتابه عن اليهود وما حدث لهم في تلك الموقعة. (المترجم).

(٢٨) الصدوقيون

فرقة من اليهود ظهرت في وقت العهد الجديد، وهي تنسب — في رأي بعض المؤرخين — إلى صدقية؛ وهو من أسرة أرستقراطية من أصحاب «بيت المقدس» في زمان سليمان (عليه السلام)، وفي رأي آخرين أنهم منسوبون إلى الكلمة العربية التي معناها «الحق»، وهي قريبة الحروف من الكلمة العربية. وأهم مميزات الصدوقيين هي: أنهم كانوا حزب الأرستقراطية.

وأنهم كانوا لا يعترفون بغير التوراة المكتوبة، ويرفضون كل ما عداها مما زيد عليها من الأحاديث الشفوية المروية عن موسى (عليه السلام)، كما كانوا يرفضون كل ما أضيف إليها من التفاسير والشروح، التي أدخلها فيها التسخّاح؛ ولهذا رفض الصدوقيون الإيمان بأهم الأسس التي بنيت عليها الديانة اليهودية؛ فلم يؤمنوا بالبعث، ولم يقبلوا فكرة الخلود ولا فكرة الجزاء في الدار الآخرة، وكانوا — إلى ذلك — ينكرون الملائكة، ويحددون الأرواح، ويقررون — تقرير الجازم المستيقن — أن الإنسان مخيرٌ — بأوسع ما تحويه هذه الكلمة من معانٍ — وأنه متمنٍ بحرية الإرادة في كل ما يفعله من خير أو شر، وأن سعادته وشقاؤته — على هذا — ثمرة غرسه ونتائج عمله.

ويرى بعض المؤرخين أن الصدوقيين لم ينكروا وجود الملائكة والشياطين كما يتبارى إلى الذهن من أقوالهم، وأن هذا الوهم سببه عدم تحري الدقة في فهم عبارتهم التي التبس على الكثيرين فهمها، وإنما أنكر الصدوقيون أن يكون للملائكة والشياطين دخل في أعمال الإنسان، فعبارة إنكارهم الملائكة والشياطين يجب أن يفهمها المؤرخ بعد أن يعرف المناسبة التي قيلت فيها، والقارئة التي اقتربت بها.

ولقد كان ينقص الصدوقيين حرارة الإيمان وقوّة العقيدة اللتان امتازا بهما خصومهم الفريسيون الذين كانوا يعتقدون آمالهم على الدار الآخرة، وما يتوقعونه فيها من الجزاء، فلم يحفلوا بالاعتبارات الدنيوية، على أن الإنصاف يقضي علينا أن نقرر أن ذلك لم يكن إلا في ظاهر معتقداتهم، وأنهم قد تاجروا بهذه المبادئ واتخذوها وسيلة إلى المداهنة والرياء، حتى أصبح خصومهم يطلقون من اسمهم هذا — على سبيل المجاز — صفة لكل من ينافق أو يُعني بظاهر اللفظ، ويستغنى بالقشور عن اللباب ويفضّل المصطلحات والمظاهر على جوهر الحقيقة الخالصة المقصودة لذاتها.

وكان سقوط الدولة اليهودية مصحوباً بالقضاء على الصدوقيين، وقد ورد ذكرهم

في التلمود، ولكن عبارة التلمود غامضة لا يسهل اجتلاؤها لمن يريد تعرف الحقيقة. وقد قسم ابن حزم — في كتاب الملل والنحل — اليهود إلى خمس فرق وهي:

(١) السامرية: وهم يقولون إن مدينة القدس هي نابلس — وهي من بيت المقدس على شانية عشر ميلاً — ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه، ولهם توراة غير التي بأيدي سائر اليهود، ويبيطلون كل نبوة كانت فيبني إسرائيل بعد موسى (عليه السلام) وبعد يوشع (عليه السلام)، فيكذبون بنبوة شمعون، وداود، وسلامان، وأشعيا، واليشع، وإلياس، وعاموس، وحبيقون، وزكرياء، وأرميا، وغيرهم، ولا يقررون بالبعث البتة، وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها.

(٢) الصدقية: وينسبون إلى رجل يقال له «صدقوق»، وهم يقولون من بين سائر اليهود: إن العزير هو ابن الله — تعالى الله عن ذلك — وكانوا بجهة اليمن.

(٣) والعنانية: وهم أصحاب عاذن الداودي اليهودي، وتسميمهم اليهود العراس والمس، وقولهم إنهم لا يتعدون شرائع التوراة وما جاء في كتب الأنبياء، ويترأون من قول الأخبار ويكذبونهم، وهذه الفرقة بالعراق ومصر والشام، وهم من الأندلس بطليطلة وطليبرة.

(٤) والربانية؛ وهم الأشعنية: وهم القائلون بأقوال الأخبار ومذاهبهم، وهم جمهور اليهود.

(٥) والعيساوية: وهم أصحاب أبي عيسى الأصبهاني — رجل من اليهود كان بأصبهان — وبلغني أن اسمه كان «محمد بن عيسى»، وهم يقولون بنبوة عيسى بن مریم، ومحمد صلوات الله عليه ويقولون إن عيسى بعثه الله (عز وجل) إلىبني إسرائيل — على ما جاء في الإنجيل — وإنه أحد أنبياءبني إسرائيل.

ويقولون إن محمداً صلوات الله عليهنبي أرسله الله تعالى بشرائع القرآن إلىبني إسماعيل (عليهم السلام) وإلى سائر العرب، كما كان أيوب نبياً فيبني عيسى، وكما كان بلعام نبياً فيبني مواب، بإقرار من جميع فرق اليهود. المترجم».

(٢٩) قال أبو العلاء في رسالة الغفران: «بعض العلماء يقول: «إن سادات قريش كانوا زنادقة». وما أجرهم بذلك! وفي ذلك يقول شاعرهم:

ألمت بالتحية أم بكرٍ بالسلام
فحيوا أم بكرٍ بالسلام
وكائن بالطوي طوي بدرٍ من الأحساب والقوم الكرام

على الكأس بعد أخي هشام
من الأقرام شراب المدام
بأنني تاركُ شهر الصيام
فقد شبع الأنثى من الطعام
وكيف حياة أصداء وهام؟
وتحيني إذا بليت عظامي؟

ألا يا أم بكر لا تكري
وبعد أخي أبيه وكان قرماً
ألا من مبلغ الرحمن عنني
إذا ما الرأس زايل منكبيه
أيوعدنا «ابن كبّة» أن سنجها
أتترك أن ترد الموت عنني

ولا يَدْعِي مثل هذه الدعاوى إلا من يستسل وراءها للحمام، ولا يأسف له عند إمام. ا.هـ «المترجم».

(٣٠) يذهب الأستاذ «سبنجر» إلى أن كلمة حنيف معناها في الأصل ملحد أو كافر، وعندي أن في هذا التفسير إسراًفاً ومغاللاً لا يقبلها باحث، وليس يتسع المقام لإظهار حقيقة الحنفية والحنفاء التي سأبینها في بعض الفصول الأخيرة من هذا الكتاب، فلأكتف الآن بإحالة القارئ على ما كتبه في أوائل هذا الفصل. «دوزي»

الحنفية

اختالف الناس في تفسير هذه الكلمة، واضطرب الشرح في معانيها اضطراباً شديداً، بلغت مسافة الخلف فيه من النقيض إلى النقيض، ولهم العذر في ذلك؛ فقد تطورت معاني هذه الكلمة - بمرور الزمن - فكان هذا التطور سبب الحيرة والشك اللذين وقع فيهما أكثر المفسرين، وقد ذكر صاحب لسان العرب وغيره معانٍ مختلفة لهذه الكلمة لا تربطها صلة، وليس هنا مجال التوسيع في سرد ما قالوه وكتبوا في ذلك، فلنختزل بشرح معناها الذي نفهمه بإيجاز، وهو فهم يلائم بين تلك الآراء كلها:

كلمة الحنف: أصل معناها المائل عن الطريق المعبد السوي الذي ألفه سواد الناس إلى طريق آخر، وهذا هو ما فعله إبراهيم (عليه السلام)؛ فقد خالف ما كان عليه قومه من الشرك والوثنية، ومال عن سنتهم إلى طريق التوحيد؛ فأطلق عليه قومه اسم الحنف، ثم خلفه من بعده من أبنائه فاتبعوه في حنيفيته، ولكن مذهب إبراهيم وشريعته دخلهما كثير من الضلالات والأوهام والبعد، ومن ثم تباين أتباعه في نحلهم وعقائدهم، فوجد منهم المؤمن الحق والمشرك والوثني، ولكن كلاًّ منهم احتفظ لنفسه باسم الحنفية، وأطلقوا على أنفسهم لفظة الحنفاء، فلما جاء الإسلام وجد لفظة الحنفية في حاجة إلى

تحديد، فلم يكتف بوصف إبراهيم (عليه السلام) بالحنيفية، بل احترس فقال عنه إنه كان حنيفاً مسلماً.

ولعل خير ما نختم به هذه الكلمة هو قول الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير الآية: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وإليك ما قال:

قال بعض المشتغلين بالعربية من الإفرنج إن الحنيفية هي ما كان عليه العرب من الشرك، واحتجوا على ذلك بقول بعض النصارى في زمن الجاهلية: «إن فعلت هذا أكون حنيفاً». وإنها للفلسفة جاءت من الجهل باللغة، وقد ناظرت بعض علماء الإفرنج في هذا فلم يجد ما يحتج به إلا عبارة ذلك النصراني، وهو الآن يجمع كل ما نقل عن العرب من هذه المادة لينظر كيف كانوا يستعملونها، ولا دليل في كلمة النصراني العربي على أن الكلمة تدل - لغة - على الشرك، وإنما مراده بكلمته: البراءة من دين العرب مطلقاً، وذلك لأن بعض العرب كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء وينسبون إلى إبراهيم، ويزعمون أنهم على دينه، وكان الناس يسمونهم الحنفاء أيضاً؛ والسبب في هذه التسمية هو الدعوى أن سلفهم كانوا على ملة إبراهيم حقيقة، ثم طرأوا عليهم الوثنية فأخذتهم عن عقيدتهم وأنستهم أحكام ملتهم وأعمالها، فنسوا بعضها بالمرة، وخرجوا البعض آخر عن أصله ووصفه كالحج.

ونفي الشرك عن إبراهيم - في آخر الآية - احتراس من وهم الواهمين وتکذیب الدعوى المدعى» أ.هـ. «المترجم».

(٣١) مترجمة عن الإنجليزية.

(٣٢) فصل آخر مختار من كتاب «نظارات في تاريخ الإسلام» للعلامة «دوزي».

(٣٣) لهذه المحادثة التي أقنع بها مسيلمة سجاحاً بنبوته قصة طريفة يعرفها

أكثر القراء، ولا حاجة لذكرها في هذا المقام.

(٣٤) قال له عمر: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله!»

فقال له أبو بكر: ألم يقل: «إلا بحقها؟ وهذه الزكاة من حقها، والله لا أفرق بين الصلاة والزكوة وقد جمع الله بينهما، والله لو منعوني عقال بغير كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه». «المترجم».

(٣٥) وفي هذا يقول عمرو بن معد يكرب:

نعطي السوية في طعن له نفذ ولا سوية إذ تُعطى الدنانير! «المترجم»

(٣٦) وفي ذلك يقول الكميت:

حسيناً ولم يشهر عليهم منصل
لأنسيافهم ما يختلي المتبقـل «المترجم»
يحلئن عن ماء الفرات وظلـه
كأنـ حسيناً والبهـاليل حولـه

هل يشبهك ابنك؟^١

لماذا تختلف عن إخوتك وأخواتك في السمات والشبه؟ وما هو السر في أن يولد أحد الإخوة أسود العينين، والآخر أزرقهما؟ ولم تولد إحدى البنات شقراء الشعر، على حين تولد أختها فاحمته؟

كيف ينشأ أحدنا نحيف القوام بطبعه، على حين نرى الآخر بدین الجسم قويّه؟ ولم يولد أحدنا طويلاً والآخر قصيراً؟ ولم يكون أحدنا عرضة لأمراض بعيتها، وتكون في الآخر مناعة طبيعية تحميء منها دون أخيه؟ لم يولد هذا فنياً ذا مواهب وكفایات في الفنون، ويولد ذلك مفطوراً على حب الهندسة أو الميكانيكا، أو ينشأ ميلاً إلى الرياضة مثلاً؟

وكيف يسهل على أحد الأولاد جمع الثروة، ويكون النجاح دائمًا حليفه، بينما يخفق إخوته في ذلك إخفاقاً تاماً؟ لم هذا كله؟ وكيف يتّأّتى ظهور كثير من العباقة والنوابع في بيئات حقيرة خاملة؟ وجماع القول، كيف يختلف كل حي في هذا الوجود عن كل حي آخر؟

هذه أسئلة عويصة، قد بدأ يجيب عليها علماء البيولوجيا والطبيعة — في هذا العصر — وقد وفقوا إلى حلّها في السنتين الأخيرتين، بعد أن نقضوا الفكرة القائلة بأن الناس يولدون جميعاً سواسية في المواهب والكافيات، فقد اهتدى العلماء إلى كثير من الحقائق الطريفة

^١ ملخصة عن الإنجليزية.

في توريث المواهب العقلية والمزايا الجثمانية، وطريقة انتقالها من الأعقارب إلى الذراري، وعلاقة ذلك بمستقبل الناس وحظوظهم، وبعد أن طبّقوا قوانين الوراثة الحديثة، ووفقاً إلى حصرها وضبطها، وأصبحوا قادرين على توليد وتنشئة كثير من ضروب النباتات وأنواع الحيوان بأحسن مما كانت، وأكسبوها مزايا لم تكن في سابقتها، وهم يأملون الآن أن يفلحوا في تطبيق هذه القوانين، لتنشئة مواليد وأطفال خيراً من أسلافهم وأباءهم.

منذ بداية القرن الحالي بدأت هذا الاكتشاف الجديد — التي وصل إليها الباحثون في قوانين الوراثة وأساليب انتقالها — تغير من طرق البحث وتكشف للناس حقائق عظيمة الخطأ.

ومن غرائب الأمور أن أول اكتشافها لم يكن في معامل التجاريب والباحث الكيميائية — كما قد يتبارى إلى الذهن لأول وهلة — بل كان ذلك في حديقة دير!

عد بخيالك أيها القارئ نيفاً وستين عاماً، وتمثل دير «كونجن كلوستر» القديم في مدينة «برون» من أعمال النمسا، ثم أطلق العنان لخيالك متمثلاً صلوات الصبح تتلى في ذلك الدين، فيسرع راهب فاضل — كرس حياته للعلم، ووهب نفسه للبحث والتحقيق — إلى التعمق في الدرس والإكباب على الفحص، وقد انبعث من عينيه النفاذتين بريق أخاذ، ثم تمثله في حديقة ذلك الدير التي غرس فيها شتى صنوف النباتات ومختلف أنواعه وفصالئه، فإذا جلس خلالها لم يند عنه نبات واحد منها، ولم يفتته معرفة أي نوع مما غرس فيها، وأصله وتاريخه، وهو يمر فيها — المرة بعد الأخرى — فلا يغفل في كل مرة عن التحديق في هذه النباتات وإيمان النظر إليها، إيمان فاحص مدقق ينعم بصره في أوراقها وجذوعها وزهراتها، ويتملأ بها كما يتملأ الإنسان بأصدقائه وأحبابه، مستعيداً — لدى رؤيتها — ذكرياته وملحوظاته عليها.

ذلك هو العلامة القدس «مندل» — رجل الدين والعلم معاً — وهذه الحديقة هي معمله ومكان تجاربيه العلمية، وقد دأب فيها — يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام — فاحصاً مدققاً البحث منعماً النظر في نتاج الحبة من الحبة، وأثر تزاوج الأنواع بعضها ببعض، وما يكسبه ذلك من مميزات الوراثة وخصائصها، وما يكسبه كل محصول جديد من قوى جديدة بفضل هذا الإزدواج، وكلما أخرج نباتاً حديثاً أكبَّ على دراسته وتفهم ميزته بأناة وصبر عجيبين لا يعتورهما ملل، ولا يخامرهما فتور حتى وصل

إلى قوانين ثابتة معززة بالعلم، مؤيدة بالعمل، وظفر بنظام جوهرى ثابت تخضع له الوراثة ويسير عليه قانونها.

وفي عام «١٨٦٥ م» وقف الأستاذ «جريجور مندل» في جمعية «التاريخ الطبيعي» بمدينة «برون»، وأعلن للمرة الأولى نتائج اكتشافه الجديد؛ ولكن هذه الآراء التائرة لم تقابل بما كانت جديرة به من الاهتمام، وسرعان ما انسل عليها ستار الخمول والنسيان؛ فلم يفت ذلك في عضد هذا العالم، بل تلقى الصدمة بثبات الفيلسوف، وقال لأحد أصحابه مبتسماً: «لم يحن زمني بعد!»

ولئن مات هذا النابغة — ولم يمتد به زمنه لرؤيه اسمه ذائعاً ومبادئه منتشرة — فقد تحققت نبوءته، وكتب لاسمه الخلود بعد موته!

ولقد مضى على دفنه خمسة وثلاثون عاماً، كان يغمره الخمول والنسيان في أثناها، حتى إذا بدأ فجر هذا الجيل انبعثت آراؤه من مرقدها، وذاعت حتى أصبحت اليوم من الآراء العلمية المقررة، وقد عززتها تجاريب العلماء واختبارات الباحثين، فلم تزدد — على التمحيق — إلا قوة، وكان لها أكبر الفضل في إنتاج أنواع جديدة صالحة من البذور والخضروات والأزهار، كان لها أعظم الأثر في تحسين أنواع الماشية وكرائم الجياد.

(١) نشأة مندل

إن نشأة مندل وحياته الحافلة ليستا إلا مثلاً صالحًا لبيان ظاهرة من ظواهر الطبيعة العجيبة، التي تخرج العقريات الفذة والعقول الجبارية من البيئات المنحطة والأوساط الفقيرة، فقد ولد «مندل» فقيراً؛ فحال ذلك بينه وبين التعليم، ووقف فقر ذلك الفلاح النمسوي عقبة كأداء في طريقه، لكن أخته ضحت في سبيل تعليمه بمهر زواجه الضئيل؛ فبعثت به إلى المدرسة، ولما بلغت سنه الحادية والعشرين دخل الدير، حيث بدأ يدرس طبائع النبات — إرضاءً لغريزته وهواد في بادئ الأمر — ثم عين مدرساً للتاريخ الطبيعي في مدرسة «برون» الصناعية؛ فنجح في مهمته نجاحاً لفت إليه أنظار رؤسائه؛ فأعانوه وشجعوه على مواصلة دراساته وبحوثه في جامعة «فينا»، ولم يمر عامان حتى أتم دروسه بها، وعاد إلى الدير حيث أجرى في حديقته تجاربيه التي تعد — بحق — غزواً جديداً في عالم العلم.

وكان قد ذاع اسم العلامة «داروين» وعرف خطره، وأهمية مباحثه العلمية التي أدهشت رجال العلم واللاهوت في كتابه «أصل الأنواع»، وهو الذي وضع فيه أساس نظرية «النشوء». ولئن اعتمد داروين في استنباط نظريته على ما شاهده من التخالف والتباين بين الكائنات الحية، من نبات وحيوان، إلا أنه اعترف بعجزه — اعتراضاً صريحاً — عن توضيح أسباب هذه الاختلافات وتبيّن الأسباب التي تجعل الفرع يغاير أصله؛ ولعل هذا وحده كان السبب الأول الذي دفع عالمنا «مندل» إلى البحث عن هذا السر، وتوجيه جهوده إلى حله وفك معمعياته!

ومهما يكن من أمر، فقد انقطع «مندل» لدراسة مسائل الوراثة، وتفهُّم الأسباب والعلل التي نشأ منها تخالف الأفراد وتغييرهم! ولكن ومهماً من الوحي، أو قيساً من الإلهام؛ أنوار له الطريق التي يسلكها للوصول إلى ذلك التباين العظيم في توريث أخلاق الناس وصفاتهم ومواهبهم.

(٢) كيف استنبط مندل طريقة؟

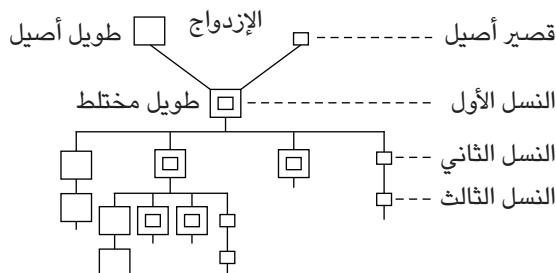
أما الطريقة التي سلكها «مندل» في استنباط قانونه، فهي سهلة واضحة يسهل منها تفهُّم الوسائل التي قادته إلى تلك النتائج الباهرة، فقد اختار بعض نباتات «البسلة» — بادئ ذي بدء — ورأى أن بعض عيادتها طويل والآخر قصير، وأن بعضها أوراقاً خشنة، على حين رأى أوراق البعض الآخر ناعمة، وشاهد أوراقاً صفراء وأخرى خضراء، ثم أكَّبَ على درسها وفحصها إكباباً.

وببدأ يغرس بذور بعض عيادتها الطويلة وعيادتها القصيرة، وكان يبلغ ارتفاع الأولى عدة أقدام، ولا يزيد ارتفاع الثانية عن بضع بوصات، فلما نمت تلك العيadan وتم نمائها؛ لقَحَ بذور الأولى ببذور الثانية، مزاوجاً بين كل بذرة من بذور العيadan الطويلة، وأخرى من بذور العيadan القصيرة، ثم أخذ تلك الحبوب الجديدة فبذرها في العام التالي، فكانت النتيجة على غير ما يتوقعها القاريء، ولم يخرج النبات مزيجاً من العيadan الطويلة والقصيرة، بل كانت سوقة كلها طويلة، فلما غرس حبوبها — بعد ذلك — غرساً عاديًّا، وصل إلى نتيجة أخرى لا تقل غرابة عن سابقتها؛ فقد ظهر الغرس الجديد مزيجاً من العيadan الطويلة والقصيرة، ولكن بنسبة مطردةً؛ هي نسبة ثلاثة عيadan طويلة إلى واحد قصير.

(٣) نتیجة هذه التجارب

ومن ذلك استخلاص «مندل» أن خصائص القصر قد انعدمت بالازدواج في النتاج الأول، وأن الطول - لهذا السبب - يطغى على القصر، وأن للأول صفات مؤثرة، كما أن للثاني صفات متأثرة، فسمى الأولى صفات «قاهرة» والثانية صفات «مقهورة»، أو إن شئت فسمى أولاهما «مخضعة» والثانية «خاضعة».

ثم استمر يزرعها كَّةً بعد أخرى، فماذا رأى؟ رأى أن بذور العيدان القصيرة لا تنتج إلا عيداناً قصيرة فقط، وأن ذرياتها لا تكون إلا قصيرة دائمًا، أو بعبارة أخرى: أن ذات الصفات الخاضعة تتلذذ ذرياتها على ما هي عليه، وأن واحداً من كل ثلاثة عيدان طويلة يحتفظ في ذريته بميزة الطول.



شكل هندسي يتبع منه القارئ قوانين الوراثة التي تكشفها «مندل» في تجاربها التي أجراها بعيدان «البسلة» بعد أن زاوج بين طوبلها وقصيرها، ومن هذا الشكل يتبع القارئ نتيجة الازدواج واضحة حلة.

فَلَمَّا طَبَقَ هَذَا الْقَانُونَ عَلَى نِبَاتَاتٍ أُخْرَى وَجَدَهُ صَحِيحًا، وَظَلَّ يُزِيدُ فِي أَشْبَاهِ هَذِهِ التَّحَارِيبِ بِطَرْقَ شَتَّى، حَتَّى تَوَصَّلَ إِلَى نَظِيرِهِ فِي الْوِرَاثَةِ.

(٤) أهمية قانون مندل

ولقانون «مندل» خطر عظيم؛ إذ هو أول من كشف للناس إمكان الانتفاع بميزات بعض الأنواع — من نبات وحيوان — ونقلها إلى غيرها، والتوصل بذلك إلى تحسين النوع، ولهذا خطره وأهميته الحيوية في تربية الماشية والجیاد وغيرها، ومساعدة الفلاح على تحسين إنتاجه الزراعي أيضًا.

على أن نفعه لا يقف عند هذا الحد، بل يتعدّاه إلى تمكين الناس من استيعاب طبيعة الأشياء بوضوح وجلاء، وتفهمُ دقائق هذه المادة الضئيلة، ونظم تركيبها وتأليفها، وسر مميزاتها، وطريقة توريثها وانتقالها إلى ذراريها.

ولقد كان «مندل» متدينًا، قائماً بواجبات دينه بغيره لا تقل عن غيرته العلمية التي دفعته إلى البحث، وقد رفعه رفقاؤه إلى رئاسة الدير؛ فأبلى بلاء الصابرين، ولم تفتر له عزيمة في مكافحة السلطات الحكومية ودفع ظلمها.

ولقد لقي في كل خطوة من خطواته مثبطات ومؤيّسات؛ فما وهن عزمه ولا نكس أمامها، وغمّر الخمول وجهل الناس به، فلم يتزعزع يقينه الثابت وإيمانه الراسخ؛ لا في علمه ولا في دينه.

والحق أن حياة هذا الرجل هي خير رد على أولئك القائلين إن العلم والدين لا يتفقان، فقد ظل — بمحاظته الدائبة، وبصره النافذ — يقرأ سفر الطبيعة الخالدة مستوحياً منه قوانينها، وثم وجد ما يزيد إيمانه بخالق الكون ومبدعه!

ولقد قال: «إن زمني سيجيء بعد قليل.»

وقد جاء زمنه وصحت نبوته!

آخرة العالم كيف تكون؟ ...؟

أبو العلاء

ستنتهي آخرة هذا العالم الأرضي الذي نسكنه بانفجار عظيم هائل، وليس لهذه الخاتمة من سبب إلا قدم عمره وتطاول أمده.^١ وعلمتنا الأرضي شبيه بساكنيه، فكما أن الإنسان يتغضّن وجهه، وتتجعد بشرته، وتبدو على أساريره خطوط الزمن واضحة جلية للنااظرين، كذلك نرى الأرض كلما تقادم عمرها تصدّع ظاهرها وبدت على سطوحها شقوق تذكّرنا بما يبدو على أسارير الوجوه من آثر الشيخوخة.^٢

١ نشرت بمجلة الإخاء، ملخصة عن الإنجليزية، وهي نبوءة عالم فلكي كبير – بعد دراسة طويلة – وقد شرح فيها بإيجاز الأسباب التي تعمل دائمة على تقويض عالمنا الأرضي، وغيره من العوالم الأخرى التي باتت – أو تبidi – في غابر الزمن وقابلها.
فإذا لم ينشأ القارئ تصديقها كحقيقة علمية، فليقرأها على أنها خيال ممتع رغم ما فيه من تنبؤات مروعة مفعحة.

وكلما كرّت الأدوار، وتقادم العالم الأرضي، اتسعت هذه الشقوق وعظمت حتى يصبح كل شق منها هاوية عظيمة، ومتى بلغت غاية اتساعها تفكك عالمنا وتناثرت أجزاؤه في الفضاء، وأصبح في خبر كان!

وستصبح هذه الخاتمة فرقعة هائلة وانفجار مروع لا قبل لأحد بوصف هوله وروعه، ثم يعقبه تبدد الكرة الأرضية وصيورتها قطعاً لا يحصيها العد، تسبح في أجواز الفضاء اللانهائي!

ثم ماذا؟

ثم يسير العالم الأكبر سيرته الأولى غير حافل بما حدث، وتظل المجموعة الشمسية غير متأثرة بهذا الحادث الهائل لأن شيئاً غريباً لم يحدث.

ولكن العالم سيشهد قبل هذه الخاتمة مصرع القمر، وسيجتمع الناس مسرعين إلى قلل الجبال، وكل مرتفع من الأرض؛ ليشاهدو هذا القمر الذي أدركه الفناء وأسلمته شيخوخته إلى الوهن والضعف، وثم يروننه هاوياً بدأاً في أجواز الفضاء إلى حيث لا رجعة له ولا عود، وسيكون انفجاره شبيهاً بانفجار قنبلة عظيمة، ثم تبطل جاذبيته — بعد فنائه — ولا نعود نرى مذراً ولا جزراً؛ وتصبح الليالي دائمةً وأبداً حالة الظلم، ليس فيها من النور إلا بصيص ضئيل منبعث من النجوم لا يكاد يضيء سناء شيئاً:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وإذ ذاك ينقطع عن الشعراء مصدر من مصادر الوحي والإلهام، ويغيب بنبوغ فياض من يتابع الشاعرية السامية، ولا يعود القمر إلا ذكرى تاريخية، وأثراً يتحدث به الناس وأعقابهم ويررونون مصرعه كما تروي الأخبار والأحاديث!

ثم تمر عصور أخرى وتجيء أمم متعاقبة كثيرة لا تعد، يشهد الناس بعدها منظراً آخر لا يقل روعة عن سابقه؛ ذلك هو مصرع المريخ بنفس الطريقة التي أسلفناها في ذكر القمر، ثم يذهب المريخ شذر مذر في أجواز الفضاء اللانهائي.

ثم تمر عصور وأجيال عدة إلى أن يحين موعد فناء العالم الأرضي، وتمر ملايين أخرى من السنين ثم يحين مصرع الشمس بنفس الطريقة، وعلى هذا الأسلوب. وكذلك يصير كل شيء إلى فناء ﴿وَبِيَقْنَى وَجْهُ رَبِّكَ دُوَّالْجَلَلِ وَالْإِكْرَام﴾.

هذه هي خلاصة النظرية الغريبة التي نقدم بها الدكتور «ونسمور ألت» حديثاً إلى الناس، والدكتور من كبار رجال العلم وأساطير الفلك، وهو رئيس الجمعية الفلكية

بجامعة «كانساس» وهذه النظرية وليدة دراسة عميقة واسعة استمرت خمسة عشر عاماً قضاها الدكتور باحثاً مدققاً بين اختبارات فلكية وتجارب علمية، واستعانت بكل معدات البحث العلمي والفكري الحديثة! فقد رأى من دراسة الكواكب الصغيرة والنجيمات والنيازك أن صغرها يدعو لقصر أعمارها، وتبيدها في الفضاء متى حانت ساعتها، ورأى أن السبب في إبادتها هو – بعينه – السبب في إبادة ما هو أكبر منها، بعد أن يمضي عليها عمر أكبر من تلك يتاسب مع عظم حجمها، وإنما أيقن بصحة نتائجه؛ لأنه رأى هذه وتلك جميعاً من عنصر واحد، ورأى أثر الزمن، ومرور الأجيال، وتعاقب الدهور عليها ينتج نفس الأثر الذي أسلفنا ذكره. فيبدو واضحاً في صغار الكواكب، والأجرام السماوية، ويقل ظهوره كلما عظم الكوكب!

(١) الكوكب المفقود

وقد شاهد أجراماً تهوي متساقطة قطعاً عدة مختلفة الأحجام، بعضها لا يزيد على حجم الكرة، في حين يبلغ الآخر سعة مدينة بأسرها!
ويعلل الدكتور هذه النيازك والشهب الساقطة التي تراها هاوية من السماء بأنها بقايا عالم بائد، ربما كان فناؤه منذ ملايين من السنين؛ أي قبل أن يخلق الإنسان الأول بعصور وأجيال لا تحصى، والدكتور يقرر أن هذه الشهب دليل لا سبيل إلى الشك في صحته، وصحته على وجود أمثلة.

فقد لفت نظر هذا العالم الكبير واسترعى انتباهه ما رأاه بين كوكبي المريخ وعطارد من الفراغ الهائل، الذي هو أشبه بهوة عميقة، أو قل – إن شئت – إنه فراغ غير طبيعي لا تبرره قوانين الفلك، ولا تجيزه نظم المجموعة الشمسية، وهذا الفراغ قد كان بلا شك مشغولاً بكوكب، فلما زال منه بقي مكانه فارغاً، وأصبح هذا الفراغ دليلاً عليه! ويعزز هذا ما يراه الفلكيون من تلك النجمات العديدة التي تحيط بهالة الشمس وتدور حول نقطة بعينها في هذا الفراغ، مما يدل دلاله صريحة على أن كوكباً كان يحتل هذه البقعة التي كانت تلك النجمات تدور حوله، فلما اختفى ظلت تلك على حالها من الدوران دالة على ذلك الكوكب البائد الذي أدركه البوار في هذا المكان، على أن ثمت كثيراً من البقايا والأجسام يزيdenا وجودها اقتئاعاً ما أسلفناه من القول. وقد اكتشف الدكتور «التر» كثيراً من هذه القطع النجمية – كما اكتشف الباحثون نحو «١٢٠٠» قطعة منها – فاستدل الدكتور بعد فحص دقيق أن ذلك الكوكب المفقود قد كان أكبر من عطارد، وأصغر من المريخ بكثير.

(٢) ما سبب انفجار الكوكب؟

ولكن ما الذي سبب له الدمار وأدى به إلى هذه النتيجة؟ يعلل الدكتور سبب حدوث ذلك بأن العوامل التي انتهت بها الكوكب هي نفسها العوامل الهدامة الدائمة على إبادة كل فرد من أفراد هذه المجموعة الشمسية!

لا جرم أن الإنسان يعلم أن كل جسم — مهما بلغت صلابته — تمدده الحرارة وتقبضه البرودة، وقد كانت الأرض — كما كانت الكواكب الأخرى — ناراً متاجحةً، ثم بردت تلك الكتل النارية الحامية على مر العصور والأزمان، فانقبضت شيئاً فشيئاً بسبب ما اعتورها من البرودة، وبدهي أن السطح يبرد أسرع من الجزء الداخلي، ومن هنا تنقبض تلك القشرة الباردة المتقلصة انقباضاً شديداً على الجزء الداخلي من الأرض، وينجم من هذا الانقباض الشديد ضغط شديد في الداخل، وكلما زاد عمر الأرض — أو الكوكب — زاد حجم السطح البارد، ومن ثم زاد ضغط سطحه على أوسطه حتى يبلغ الضغط أقصاه!

ولو أن مادة السطح الصلب مادة مرنة — كالمطاط مثلاً — لتمددت وامتطت، فساعد ذلك على مطاوعة الجزء الداخلي وتلافى الضغط عليه، ولكن الأمر على عكس ذلك، وهذا هو السبب في تشقق السطح، ولا يزال الزمن يكر؛ فيقدم عمر الكوكب ويبرد سطحه، فيضغط على وسطه فيتشقق، ثم تزداد الشقوق على توالي الدهور حتى تصبح هotas عميقa، ثم تزداد هذه الهوات اتساعاً وعمقاً حتى تصل إلى الأعماق، وهنا يتتصدع الكوكب ويتحطم كله إلى الأبد!

(٣) كيف انفجر الكوكب؟

وقد هدتنا التجاريب الفلكية والدراسات الدقيقة للأفلاك والكواكب إلى الطريقة التي انفجر بها ذلك الكوكب البائد؛ فقد بدأ تحطمـه بانقسامه إلى أربعة أقسام كبيرة، ثم اعتور كل جزء من هذه لأجزاء الأربعة مع اعتور الكوكب الأصلي من قبل، ومرةً بكل تلك الأطوار التي أسلفناها، وحدث لها ما حدث لابنها الأول من الدمار، وربما كان تحطيمها على نفس الطريقة السابقة!

قال الدكتور «ألتر»:

آخرة العالم كيف تكون ...؟

ولو أن الناس عاشوا قبل مصرع هذا الكوكب، وشاهدوا انفجاره في ذلك الوقت لما سمعوا له فرقة، ولا أحسوا له صوتاً، ذلك أن الصوت يحمله الهواء! وليس في ذلك الفضاء هواء يحمل صوت انفجاره إلينا، وكل ما يشاهده الناس من هذا الانفجار الهائل ضوء لامع منه، ومن المكن جداً أن تصبح أجزاء هذا الكوكب «نجومات» صغيرة في أحواز الفضاء.

ومما يجدر ذكره أن فرقعة ذلك الكوكب لم تحدث تغيراً في سير الكواكب الأخرى، ولا في العلاقة التي بين كل منها والآخر، فإن الجاذبية التي كانت في الكوكب البائد هي — على عظمتها — غاية في الحقارة والضؤولة بالقياس إلى المجموعة الشمسية.

وإذا كان هذا الكوكب بعيداً عن الشمس بمقدار ثلاثة أمثال بُعد الأرض عنها، وكان يصل إليه من حرارتها مقدار يعدل ثمن ما يصل إلينا، فإن أكبر الشك أن مظاهر الحياة لم يكن لها وجود فيه، على أنها لو وجدت لما بقي لها أقل أثر بعد تحطمها وانفجاره.

(٤) آخرة القمر

ثم يقول الدكتور «ألتري»:

وسيكون القمر ثالثي كوكب يدركه الفناء — بعد ذلك الكوكب الذي أسلفنا ذكره — في المجموعة الشمسية.

والقمر — بالرغم من أنه ليس أقدم من أمه «الأرض» — سيلاقي حتفه قبلها، والسبب في ذلك أنه أصغر منها حجماً؛ وهو لهذا أسرع منها إلى البرودة، سرعة تتناسب مع صغر حجمه عنها.

قال الدكتور: وإن الإنسان ليستطيع الآن أن يشاهد من خلال «التلسكوب» فجوات واسعة بادية على سطح القمر.

(٥) آخرة المريخ ...!

أما انفجار المريخ فسيسبق انفجار الأرض، وإنما كانت آخرة هذا الكوكب قبل آخرة عالمنا الأرضي؛ لبعده عن الشمس، وما ينشأ عن هذا بعد من قلة النصيب الذي يناله من حرارتها، وليس هذه القنوات الباردة على سطح المريخ – كما يظن الدكتور – إلا شقوقاً وصوغاً عظيمة حدثت فوق سطحه وفق هذه النظرية المقررة.

(٦) آخرة العالم الأرضي ...!

أما الأرض فلا خوف عليها، ولن تبيد قبل أن يمر عليها ملايين من السنين. قال الدكتور: «إن سطح الأرض – كما نراه الآن – على أحسن ما يرام، وحرارتها الداخلية بالغة من الاتقاد والشدة أوفي الغايات، وأكفلها بالصون من أن تباد مدة عصور طويلة وأباد عديدة، وليس الزلزال في رأيي علامة منذرة بقرب فناء الأرض؛ فهي صدوع محلية بسيطة لا خطر لها، وليس كذلك ما نرويه من اندفاع الأرض، فإن تلك التي تتحدث عنها هي انشقاقات متغلغلة في أعماق الأرض، وكم من تصدعات يصل عمقها ألف ميل لا يكون وجودها محتماً وملزمًا لإبادة هذا الكوكب! وغاية ما تدل عليه أمثل هذه الشروح أن تكون نديراً من نذر الرعب لمن تحدث في زمنهم من الناس، على أنها – في حقيقة أمرها – ليست إلا رسالة تنبئ الناس بما يتهدد الأرض من بوار بعد ملايين قليلة من السنين!»

(٧) آخرة الشمس

قال الدكتور:

ولن تشذ الشمس أيضًا عن هذه القاعدة، فسيتحققها العدم وتجري عليها أحكامه – كما جرت على سواها – يوماً ما، وإن تأخر ذلك ترليونات من الأعوام، والعلم أن الشمس تفقد من حرارتها في كل ثانية من الثواني «٠٠٠٠٤» أربعة ملايين طنًا من كتلتها النارية؛ بسبب ما يشعُّ من حرارتها في الفضاء، وهذا القدر الذي تفقده – بالغاً ما بلغ من العظم الهائل في نظرنا – ليس شيئاً مذكوراً إذا قسناه إلى حجم الشمس الذي لا يتأثر تأثيراً يُذكر بما يفقده من الحرارة – عن طريق الإشعاع – في مليون من السنين.

(٨) دراسة الأجرام الفلكية الصغيرة

وقد تكبد الباحثون ألواناً من العناء والتعب في دراسة هذه القطع المتناثرة، وفحص هذه الأجرام الصغيرة والنماذج التي يتعرّض، بل يتعرّض رؤيتها بالعين المجردة؛ نظراً لبعدها وصغر أحجامها، ومن هنا يعلم القارئ مقدار ما بذله الدكتور «ألت» من الجهد العلمي في تتبع سيرها، ودرس نظمها، حتى وصل إلى هذه النتائج الحديثة التي أفاد بها علماء الفلك ووسع بها دائرة معارفهم، ولقد كان العلماء حتى أوائل القرن الماضي — التاسع عشر — لا يعرفون شيئاً عن عالم هذه الأجرام الصغيرة — «النجيمات» — ولا يدرّون بوجودها، وأول ما اكتشف منها هو «نجيم سيرس» في سنة ١٨٠١ بفضل العلامة الفلكي «كبلر»، وهو — على أنه أكبر هذه الفصيلة — لا تكاد تراه العين المجردة؛ إذ يبدو للنااظرين في مثل دقة رأس الدبوس إذا نظرت من بُعد ميل، أما قطر هذا «النجيم» فيبلغ ٨٤٠ ميلاً؛ أي أقل من المسافة التي بين «نيويورك» و«كليفلاند»، وتقدر زنته بنسبة واحد إلى ثمانية آلاف من ثقل الأرض.

وقد ذكروا «نجيمات» أخرى أصغر من هذه، اكتشفوها حديثاً، لا نحسبها تعني القراء كثيراً، ومما ذكروه «نجيم إيروس» الذي يبلغ قطره خمسة عشر ميلاً، وهو يقترب من الأرض أكثر من أي جرم آخر، وأحدث اقتراب له كان على بعد «١٢٨٤٠٠٠» ميلاً؛ أي أكبر بقليل من نصف المسافة إلى كوكب «فينيس»، وهو مع ذلك القرب يبعد عن الأرض بمسافة يحتاج قطعها ثلاثة سنوات بسرعة خمسمائة ميل في الساعة، وقد زار هذا الكوكب عالمنا الأرضي في عام «١٨٠٤» عقب أن تكشفه العلماء، وزارها مرة أخرى في عام «١٩٠١»، وحينذاك توفر العلماء الفلكيون على درسه ومراقبته بدقة وانتباه، وسيزورنا مرة ثالثة فيما بين عامي «١٩٣١-١٩٣٥»، فلا يزيد بعده عن الأرض أكثر من «١٦٢٠٠٠» ميلاً؛ أي نحو سدس المسافة إلى الشمس.

ولم يقنع العلماء الآن بهذه الدراسات؛ فتألفت منهم جماعة من أساطين الفلكيين، وشرعوا في إعداد معدات أدق وأجدى من تلك؛ لاستيعاب الأجرام الفلكية، وقياس المسافات بغاية من الدقة والضبط، ومن هذه الأجرام التي يدرّسونها الآن ما وصل قطره إلى ثلاثة أميال، أما ما يقل جرمه عن هذا القدر، فمن الحال رؤيته حتى بأدق أنواع التلسكوب، وإن كان من المحقق أن في الفضاء عدداً كبيراً من هذه الفصيلة الصغيرة، وإن لم نره، ولكن حب العلم لا يقف عن حد، وقد قيل: «منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال». لذلك لم يقف العلماء عند هذا القدر — وهو عظيم — فشرعت جماعة

«كانساس» تعد «تلسكوبًا» حديثاً يصنع تحت إرشاد «الدكتور ألترا» سيتم عمله آخر هذا العام خصيصاً لدرس الأجرام الصغيرة.

(٩) كلمة ختامية

والآن يسائل القارئ نفسه: «وماذا تكون حال الناس؟ وكيف يكون شعورهم إزاء هذه الكبة المتوقع حدوثها؟ وكيف يتلقون هذا الفناء المحقق؟» وهذا سؤال طبيعي يجيب عنه الدكتور «ألترا» بغاية البساطة فيقول:

ومن المحتمل أن تنقضي كل آثار الحياة من الأرض قبل انفجارها بزمن طويل، ولو جاز أن تكون ثم حياة — رغم ذلك البرد القاسي الذي لا يحتمل — فلن يكون لها بعد انفجار أمّنا الأرض بقاء!
وإنه ليحلو لنا أن نسبح قليلاً في العالم الخيالي، إزاء هذه الخاتمة المروعة، فنتمثل علماء ذلك العصر قد فكروا دائمين — بعد أن شاهدوا مصرع المريخ — في تلافي هذه الخاتمة إذا أملّت بالأرض، وأعدوا المعدات لها، وربما أوغلنا في عالم الخيال وسرنا فيه مرحلة أخرى، فتمثّلنا المهندسين — إذ ذاك — وقد اهتدوا إلى آلات واحتياطات غريبة ينقلون بها سكان هذا العالم — قبيل انفجاره — إلى عالم آخر من العوالم الفلكية تصلح للحياة، فأقاموا فيه واستغنووا بذلك عن العالم الأرضي.

هوامش

(١) في مثل هذا المعنى يقول أبو العلاء:

تطاول عمر الدهر حتى كأنما نجوم الليالي شيب هذى الغياب

(٢) وصف أبو العلاء الدهر بالشيخوخة أيضاً فقال:

إن خرف الدهر فهو شيخ أحق بالهتر والزمانه

مناظرة الكسائي وسيبوه^١

مسألة العقرب والزنبور

لولا التنافس في الدنيا لما أضما
وأبرح الناس شجواً عالم هضمـا
وليس يخلو أمرؤ من حاسد أضمـا
والغبن في العلم أشجي محنـة علمـا

حازم القرطاجي

كان من أثر المناظرة التي قامت بين «الهمذاني» و«الخوارزمي»^١ أن «الخوارزمي» مات بعد قليل من الزمن، ولم تحتمل شيخوخته تلك الصدمة العنيفة، وكان من أثر المناظرة التي قامت بين «الكسائي» و«سيبوه» أن «سيبوه» مات كذلك وهو في ريعان شبابه، وجن نشاطه — كما يقولون — ولم يتحمل شبابه تلك الهزيمة القاتلة، وليس الطرق التي لجأ إليها «الكسائي» أقل قسوة من تلك الطرق التي سلكها «الهمذاني» للتغلب على «الخوارزمي» والانتصار عليه.

^١ مقال مختار من كتاب للمؤلف بهذا العنوان، وقد نشر تباعاً في مجلة المقتطف.

ولقد قلنا في المعاشرة السابقة إن «الهمذاني» قد أعدّ عدّته، وهياً لنفسه كل أسباب الانتصار والفوز على خصمه، وزج به في مجلس كله خصومة ولد، ونقول في هذه المعاشرة إن «الكسائي» لم يقصر في إعداد كل الوسائل لهدم «سيبوبيه» ولم يتعفف عن شيء في سبيل الانتصار عليه^٢ وإذا كان «الهمذاني» قد لجأ إلى تملّق شهود المعاشرة لينصروه على «الخوارزمي»، واشتري ذممهم بهذه الحيلة؛ فإن الكسائي قد لجأ أيضًا إلى فنونه وجاهه وماليه، واتخذ من صدامه للبرامكة وكونه مؤبد أولاد أمير المؤمنين وسيلة للتغلب على «سيبوبيه».

ولئن شكينا في المعاشرة السابقة قلة المصادر التي نرجع إليها في تحقيقها، ولم نجد غير رواية «الهمذاني» نفسه — وهي رواية خصم عن خصم — فإن ما نشكوه في هذه المعاشرة هو تعدد المصادر وكثرتها، وتباین روایاتها، وأثر التعصب فيها وتعتمد التشويه.

على أن هذه الروايات — رغم اضطراب بعضها واختلافه في التفاصيل — متفقة في الأساس والجوهر، فهي — من أية ناحية رأيت، وبأية رواية أخذت — تدل على أن سيبوبيه قد ظلم، وأن الحق كان في جانبه.

فقد أجمع علماء النحو واللغة — في زمن سيبوبيه وبعد زمانه — على أن الصواب ما قال، وأن الكسائي كان في الجانب الخاطئ، ولم يشذّ عن هذا الإجماع إلا شيعة الكسائي، والطامعون في ماله أو جاهه، والمحسوبون عليه وذوو الحاجات وطلاب المأرب الذاتية. وليست هذه المعاشرة على الحقيقة — إن صح أن نسميها معاشرة — إلا نضالًا بين مذهبين، وحربيًا بين مدرستين؛ مدرسة الكوفيين، ومدرسة البصريين أسايتذهم، ممثلتين في شخصي الكسائي زعيم علماء النحو في الكوفة، وشيخ مدينة السلام، وسيبوبيه زعيم علماء النحو في البصرة، وتلميذ الخليل بن سعيد أهل الأدب — كما كانوا يلقبونه — وقد لعبت الأهواء من سياسة وغيرها في تغلب رأي الكسائي على رأي سيبوبيه.^٣

على أن فضل سيبوبيه دائم — رغم انتصار الكسائي عليه — وكتابه الذي أله في النحو لم تبل جدّته إلى اليوم، ولا يزال كتاب نحو وأدب معًا، وأسلوبه في أعلى طبقات البلاغة، وقد كان المبرد يقول لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبوبيه: «هل ركبت البحر!» تحظىً لشأنه. وكان الزجاج^٤ يقول: «إذا تأملت الأمثلة من كتاب سيبوبيه تبيّنت أنه أعلم الناس باللغة.»

وقال الجرمي: «أنا منذ ثلاثين سنة أفتى الناس في الفقه من كتاب سيبوه». ^١
 وقال المازني: «من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبوه فليستحِّ».

وقد كتب سيبوه هذا الكتاب الخالد في الوقت الذي كان فيه الكسائي منصراً إلى المناصب والاتصال بال الخليفة، والدعاهية لنفسه بأنه العالم الفذ الذي استنفذ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب، وأن هذا زيادة على ما حفظه، إلى آخر هذه الدعاوى الفارغة التي لا يعني بها المنصروفون إلى العلم حَقّاً، والتي هي أشبه بالإعلانات التجارية، وهذا أسلوب فذ في الدعاية لجأ إليه الكسائي – في جملة ما لجأ – للوصول إلى الشهرة. وإذا رأينا علماء اللغة وأئمة النحو يحتermen «سيبوه» ويقررون مذهبهم، رأيناهم – على العكس من ذلك – ينفرون من مذهب الكسائي ويررون فيه إفساداً للغة وإضاعة للنحو.

قال ابن درستويه: «كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة، فيجعله أصلاً يقيس عليه حتى أفسد بذلك النحو».

وقال الأصممي: «أخذ الكسائي اللغة عن أعراب من الحطمة ينزلون بقطربل، فلما ناظر سيبوه استشهد بلغتهم عليه».

وقال محمد البزيدي:

| | |
|---|---|
| على لسان العرب الأول على لغى أشياخ قطربل به يصاب الحق لا يأتلي يرقون في النحو إلى أسفل | كنا نقيس النحو فيما مضى فجاء أقوام يقيسونه فكلامهم يعمل في نقض ما إن الكسائي وأصحابه |
|---|---|

وقال الزجاج: «أي إنصاف في الرجوع إلى أعراب وفدوا لحاجتهم، وسيبوه رجل غريب وخصومه أهل البلد والدولة؟ وإنما الحكم العارف بال الصحيح وغيره؛ وقد لا يعرف الأعرابي إلا لغته الشاذة». إلى آخر هذه الآراء.

وقد أشار «المعربي» إلى تحامل الكسائي على سيبوه في رسالة الغفران، وألمع إلى بعض المناظرات التي قامت في ذلك العصر – الحافل بالمناقشات والمناظرات بين علمائه – فقال في معرض الكلام على تناسي الحسائك والأحقاد في الجنة بين ألد الخصوم:

«فصدر أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى^٧ هُنَاكَ قَدْ عَسَلَ مِنَ الْحَقْدِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدِ^٨ فَصَارَا يَتَصَافِيَانِ وَيَتَوَافِيَانِ».

وأَبُو بَشَرٍ عَمْرُو بْنُ عَثْمَانَ «سَبِيُّوْيِه» قَدْ رَخَصَتْ سَوِيَّدَاءُ قَلْبَهُ مِنَ الضَّغْنِ عَلَى «عَلِيٍّ بْنِ حَمْزَةَ الْكَسَائِيِّ» وَأَصْحَابِهِ لَمَا فَعَلُوا بِهِ فِي مَجْلِسِ الْبَرَامِكَةِ، وَأَبُو عَبِيْدَةَ صَافِيِّ الطَّوِيْلِ لَعَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ قَرِيبِ،^٩ وَالْمَلَائِكَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^{١٠}

(١) كيف كانت المناظرة

لم يكدر سبيويه إلى العراق حتى شعر الكسائي أن مركزه العلمي في خطر، وأن منافساً جديداً يحاول أن يغتصب منه مقام الزعامة.

قالوا: «وشق أمره على الكسائي فأتى يحيى وجعفر بن برمك وقال: «أنا وليكما وصاحبكم، وهذا الرجل إنما قدم إلى العراق ليذهب محلـي». قالـا: «فاحـتـلـ لنفسك فإـنـا سنـجـمـعـ بيـنـكـمـا».

وهكذا دبرت المؤامرة في بيت البرامكة لهدم سبيويه، فلما حان الموعـد حضر سبيـويـه وحـدهـ، وجـاءـ الكـسـائـيـ وـمـعـهـ الفـرـاءـ وـالـأـحـمـرـ وـغـيرـهـماـ منـ أـصـحـابـهـ، فـسـأـلـهـ الفـرـاءـ عـنـ مـسـأـلـةـ فـلـمـ يـكـدـ يـجـبـهـ عـنـهـ حـتـىـ قـالـ لـهـ: «أـخـطـأـتـ». وـسـأـلـهـ عـنـ ثـانـيـةـ فـأـجـابـهـ فـقـالـ لـهـ: «أـخـطـأـتـ».

ثم سـأـلـهـ عـنـ ثـالـثـةـ وـقـالـ لـهـ: «أـخـطـأـتـ». فـقـالـ لـهـ سـبـيـويـهـ: «هـذـا سـوءـ أـدـبـ مـنـكـ!»

فـقـالـ لـهـ سـبـيـويـهـ: «يـظـهـرـ أـنـ فـيـ هـذـا الرـجـلـ عـجلـةـ وـحـدـةـ!» وـسـأـلـهـ الأـحـمـرـ عـنـ عـدـةـ مـسـائـلـ فـكـانـ يـخـطـئـهـ فـيـ كـلـ جـوابـ يـفـوـهـ بـهـ، قـالـوا: «فـلـمـ يـرـ سـبـيـويـهـ إـلـاـ أـنـ يـكـفـ عـنـ مـنـاقـشـهـمـاـ».

وهـنـا يـقـولـ لـهـ الكـسـائـيـ — وـلـعـلـكـ تـلـمـحـ فـيـ جـملـتـهـ معـنـى التـحـقـيرـ وـالـاسـتـصـغارـ: «يـاـ بـصـرـيـ، كـيـفـ تـقـولـ: كـنـتـ أـطـنـ العـقـرـ أـشـدـ لـسـعـةـ مـنـ الزـنـبـورـ فـإـذـاـ هـوـ هـيـ، أـوـ فـإـذـاـ هـوـ إـيـاهـاـ؟»

قـالـ: «أـقـولـ فـإـذـاـ هـوـ هـيـ».

فـأـقـبـلـ عـلـيـهـ الـجـمـعـ فـقـالـوا: «أـخـطـأـتـ وـلـحـنـتـ».

وـفـيـ هـذـاـ مـثـالـ مـنـ التـهـويـشـ وـالـتـحـاـمـلـ عـلـىـ سـبـيـويـهـ.

وهنا يقول يحيى بن خالد بن برمك: «هذا موضع مشكل حتى يحكم بينكم!»
فيقول الكسائي: «هؤلاء الأعراب على الباب.»

قالوا: «فأدخل أبو الجراح، ومن وجد معه من كان يأخذ منه.»

فقال لهم الكسائي: كيف تقولون: «قد كنت أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا الزنبور إليها بعينها.»

وقالت طائفة: «إذا الزنبور هي.»

وقالت أخرى: «إذا الزنبور إليها بعينها.»

فقال الكسائي: «هذا خلاف ما تقول يا بصرى!»

وهنا يقبل يحيى رب الدار على سيبوه — وهو الغريب المستوحش — فيقول له ما يشعره بأن صاحب الدار من رأي الكسائي وشيعته: «قد تسمع أيها الرجل!»
فلا يكاد يسمع سيبوه هذه الجملة حتى يستكين، ويسرع الكسائي إلى يحيى فيقول له حتى يطمئن على أن المناظرة قد انتهت، وأن الغلبة قد تمت له: «أصلاح الله الوزير، لقد وفد عليك من بلده مؤملاً، فإن رأيت ألا ترده خائباً؟»
فيأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم.

وكأنما أله الكسائي أن يصطنع الناس بالمال ليضمن لنفسه إقرارهم بزعامته العلمية التي يسعى إلى الانفراد بها عند الخليفة، ولعله حسب أن هذه المنحة تنسي سيبوه تلك الصدمة العنيفة التي سبّها له.

على أن الكسائي طالما اشتري بالمال السنّاً وذمّاً!

الآن ترى إلى الأخفشن يذهب إلى الكسائي غاضباً — بعد أن أخبره سيبوه بما حدث له معه — فيسأل الكسائي وهو بين تلاميذه ويختلط في كل جواب يقوله، فيهم تلاميذ الكسائي بضربه فيمنعوا من ذلك — خوفاً من ذيوع أمره — ويُقبل عليه فيعانقه متربّاً إليه، ويعهد إليه بتعليم أولاده، ويرشوه بالمال فينسيه بذلك ثار صديقه سيبوه؟
ولقد كان من بين تلاميذ الكسائي من هو أعلم منه وأجدر بالزعامة — كالفراء مثلاً — وما كان مثل الفراء ليقبل أن يكون تلميذاً للكسائي لولا طمعه في جاهه وماليه، وأمله في أن يتصل بال الخليفة — بفضل صحبته له — وقد تم له ما أراد بعد ذلك.

وربما استشهد لنا أحد الأدباء الناقدين بقول الفراء نفسه للدليل على فضل الكسائي:
قال لي رجل: «ما اختلفك إلى الكسائي وأنت مثله في النحو؟»
فأعجبتني نفسي، فأتيته فناظرته مناظرة الأكفاء، فكأنني كنت طائراً يغرف
بمنقاره من البحر.

فإن أمثال هذه المائج يجب أن تفهم على وجهها الصحيح؛ فهي نوع من تملق
ذوي النفوذ طمعاً في جاههم وتقرباً إليهم!
ألا ترى إلى ابن الرومي نفسه – وهو الشاعر الفحل – يلجه العوز والفاقة ونكد
الدنيا إلى امتداح بيت سخيف لابن المعتن، حين سأله: «لَمْ لَمْ تُشَبِّهْ مثُلْ تُشَبِّهِ إِبْنَ
الْمُعْتَنِ» في قوله:

وَبِدَا الْهَلَالُ كَزُورِقٍ مِّنْ فَضْيَةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حَمْوَلَةٌ مِّنْ عَنْبَرٍ

فتظاهر لهم بإكبار معنى هذا البيت التافه، وإعجابه بما فيه من تشبيه متكلف
وعجزه عن محاكاته – تملقاً لقائله – لرفعته وسمو منزلته؟
لقد سئل الفراء نفسه عن الكسائي بعد موته فقال: «مات الكسائي وهو لا يحسن
حدِّيْعَمْ وَبِيَسْ وَأَنَّ الْمَفْتوحَةَ».١١

ولما نظرنا متحاملين على الكسائي حين ثبت هنا ما يرويه بعض المؤرخين عنه
من أنه كان متهنّجاً فاجراً، ونحن نروي ذلك بشيء من التحفظ فلا نصححه ولا ننفيه،
فلعله من دسائس البصريين، على أتنا لا نستبعده، فليس اتصاله بالخليفة وتعهده أبنائه
بال التربية مما يعصمه من اقتراف الدنيا والآثام ولو سراً.

وقد تعلم الكسائي – وهو كبير – وانصرف سيبويه إلى العلم منذ حداثة نشأته،
وأعجب الخليل بن أحمد بذلك و كان يرحب به،١٢ وقد شهد له أكبر علماء النحو
بالتفوق والفضل، وقد استعان بكتابه خصوصه أنفسهم، فقرأ الكسائي على الأخفش
كتاب سيبويه، وأعطاه سبعين ديناراً – أجرًا على ذلك – وقد وجد بعضه تحت وسادة
الفراء التي كان يجلس عليها، كما قال النحاس.

(٢) رأي النحاة في هذه المسألة

قالوا: «أما سؤال الكسائي فجوابه ما قال سيبوه، وهو «فإذا هو هي». هذا هو وجه الكلام مثل: «فإذا هي بيضاء»، «فإذا هي حية». وأما «فإذا هو إياها» — إن ثبت — فخارج عن القياس واستعمال الفصحاء، ولا يعتد به، كالجزم بلن، والنصب بلم، والجر بـلعل. وسيبوه وأصحابه لا يلتفتون لمثل ذلك، وإن تكلم به بعض العرب.»

وقد لخص «حازم القرطاجني»^{١٣} هذه المناظرة في منظومته الجميلة في النحو التي يقول فيها:

إذا عنت فجأة الأمر الذي دهما
وربما رفعوا من بعدها ربما
وجه الحقيقة من إشكاله غمما
أهدت إلى سيبوه الحتف والغمما
قدمًا أشد من الزنبور وقع حما
أو هل «إذا هو إياها» قد اختصما
ما قال فيها أباً بشر^{١٤} وقد ظلما
والعرب قد تحذف الأخبار بعد «إذا»
وربما نصبوا بالحال بعد «إذا»
فإن توالى ضميران اكتسى بهما
لذاك أعييت — على الأفهام — مسألة
قد كانت العقرب العوجاء أحسبها
وفي الجواب عليها هل «إذا هو هي»
وخطأ ابن زياد^{١٥} وابن صخرة^{١٦} في

إلى أن يقول:

وليس يخلو امرؤ من حاسد أضم
لولا التنافس في الدنيا لما أضما
والغبن — في العلم — أشجى محنة علمت
وأبرح الناس شجواً عالم هضما

وقد حدث لأبي عثمان المازني ما حدث لسيبوه، قال: «دخلت بغداد فألقيتُ علىَ مسائل، فكنت أجيب فيها على مذهبِي، ويختلطُونني على مذاهبهم.»
قالوا: «وهكذا اتفق لسيبوه.»

وجماع القول أن سيبوه هُزمَ رغم فضله وعلمه وكونه في جانب الحق، ولم يكن له بد من السكوت والرضا بالهزيمة في هذا المجلس الحاشد.

ومثُل لنفسك أيها القارئ مجلسًا حافلًا بأعيان الدولة، وقادة الرأي فيها، يُجمع مثلاً على أن «لم» تنصب ولا تجزم، وأنت وحدك تقول «إنها تجزم ولا تنصب، وإن العرب لا تعرف غير ذلك.» وهم لا يسمعون لك قولاً، فآية حجة تستطيع أن تدلي بها في مثل هذا المجلس المتحامل الذي ينكر عليك ما لا سبيل إلى إنكاره؟ كذلك كان موقف سيبويه يقرر قاعدةً أجمع علماء النحو على أن خلافها شاذ لا يؤخذ به، فلا يُقبل منه قول.

ولقد كان في لسان سيبويه حسٌ — كما يقولون — ولكنها لم تكن السر في هزيمته^{١٧} فهو لم يقصر في الكلام، ولم يكن ذلك المجلس المتحامل عليه في حاجة إلى خطيب لسنٍ، بل كان في حاجة إلى آذان واعية وقلوب لم يفسدها الهوى والغرض. وهكذا تمت الهزيمة، فذهب «سيبوبيه» إلى فارس، ولم تطل مدة ذلك. قالوا: ولما اعتلَّ سيبويه وضع رأسه في حجر أخيه، فبكى أخوه لما رأه — لما به — فقطرت من دمعه قطرة على وجهه، فرفع سيبويه رأسه إليه فرأه بيكي فقال:

أَخِيَّينْ كنا، فرَّقَ الدهر بَيْنَنَا إِلَى الْأَمْدِ الْأَقْصَى، وَمَنْ يَأْمُنُ الدَّهْرَ؟

ولقد قضى سيبويه جلَّ حياته في الدرس على خير أساتيد عصره لا سيما الخليل ويونس، ومات بعد أن ألف كتابه الخالد، وإن كان لم يُدرِّسه، وختمت حياة هذا العالم الجليل دون أن يجني ثمر جهاده، رحمة الله عليه وعلى شيخيه الجليلين الخليل ويونس.

| | |
|--------------------------------------|---|
| من الأيام فاختل الخليل ^{١٨} | تولى سيبويه، وجاش سَيْبُ |
| وغير مصابه النبا الجليل | ويونس أوحشت منه المغاني |
| من اللفظ الصحيح ولا العليل | أَتَتْ عَلَى الْمَنْوَنْ، فَمَا بَكَاهُمْ |
| لَكَانْ لَهُ ورَاءَهُمْ أَلَيلْ | وَلَوْ أَنَّ الْكَلَامَ يَحْسُ شَيْئًا |

هوامش

- (١) راجع مقتطف يوليو سنة ١٩٢٩ ص ٥٥.
- (٢) قالوا: «وقد أرشي الكسائي العرب — وكانوا جماعة من المسترزقة الذين كان يعلوهم — على ترجيح جانبه».
- (٣) كان العباسيون يقربون منهم الكوفيين؛ لأنهم بصرورهم في دعوتهم، وكان لهذا الاعتبار أكبر الأثر في اتصالهم بالخلفاء.
- (٤) أبو إسحاق الزجاج.
- (٥) أبو عمر الجرمي.
- (٦) يريد بذلك أنه تعلم منه النظر، وطريقة البحث الدقيق.
- (٧) ثعلب.
- (٨) المبرد.
- (٩) الأصمعي.
- (١٠) ارجع إلى رسالة الغفران (ج ١ ص ٦١).
- (١١) ومن العجيب أن أحدهم قال في الفراء نفسه بعد موته: «مات الفراء وفي نفسه شيء من حتى». وإن كان الفرق بين العبارتين واضحًا.
- (١٢) كان الخليل يقول له: «أهلاً بزائر لا يملُّ مجلسه». ولم يكن يقولها لغيره.
- (١٣) هو الإمام الأديب «أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجمي الأننصاري».
- (١٤) الفراء.
- (١٥) الكسائي.
- (١٦) سيبوبيه.
- (١٧) فقد ناظر سيبوبيه بعض العلماء ولم تمنعه حبسة لسانه عن الانتصار عليه، قال عمرو بن مرزوق:رأيت سيبوبيه والأصمعي يتناظران ويقول يونس بن حبيب: «الحق مع سيبوبيه، وقد غلب ذا — يعني الأصمعي — بلسانه».
- (١٨) الشعر لأبي العلاء.

في بلاد العملاقة^١

(١) قصر العملاق

ولاح لنا قصر كبير — على مسافة بعيدة من الجزيرة — فقصدنا إليه حتى بلغناه، فوجدناه قلعة شاهقة محكمة البناء، فتعاوناً جمِيعاً على فتح بابه الكبير، ثم دخلنا فناءه فوجدنا فيه كومة من العظام البشرية؛ فهالنا ذلك المنظر، وامتلأت قلوبنا منه رعباً، ولم ينطق أحد منا بكلمة واحدة؛ لشدة ما لحقنا من الذعر، وبقينا خائفين طول النهار، حتى — إذا غربت الشمس — سمعنا صرير الباب الخارجي وهو يقفل، ورأينا عملاقاً هائلاً يدخل علينا وهو — في مثل طول النخلة — أسود الوجه، له عين واحدة يكاد يتطاير منها الشر، وأنيايب طويلة حادة مروعة!

في حضرة العملاق

ولم نك نراه حتى تملّكتنا الرعب واستولى علينا الهلع والفزع، وصرنا كالموتى وهو ينظر إلينا نظارات مخيفة، ثم اقترب مني وأمسك بي — وأنا كالعصفور في يده — فرأني نحيلًا هزيل الجسم، فتركتني وأخذ غيري فرآه نحيفاً فلم يعجبه أيضاً.

^١ فصل مختار من الجزء الأول من كتاب: «قصص للأطفال» بقلم المؤلف.



(٢) كيف شوى الربان

ونظر إلى الربان فرأه سميّاً فأعجبه، فأمسك به ولو رقبته بيده، ثم جاء بسُفُود طويل فأنفذه فيه، وأوقد ناراً حامية وضعه عليها، وما زال يقلبه حتى شوّاه فأكل لحمه ورمى عظامه على الأرض، ثم نام فسمعنا له شخيراً عالياً.

ولما أصبح الصباح خرج العملاق من القصر وتركتنا، فخرجنا إلى الجزيرة يائسين، وتمتينا لو كنا غرقنا في البحر، ولم نقع في قبضة هذا الغول المخيف؛ حتى لا يكون نصيبنا هذه الميّة الشنعاء التي لم تكن لتخطر لنا على بال.

وبحثنا طول النهار عن مكان نختبئ فيه فلم نظفر بطالئ؛ فعدنا إلى القصر خائفين، وجاء العملاق — بعد قليل — فشوى أحدنا كما شوى بالأمس ربّان السفينة وأكله، ونام إلى الصباح، ثم خرج إلى حيث لا ندرى، وخرجنا هائمين في الجزيرة، وقد أشار علينا بعض رفاقنا أن نلقي بأنفسنا في البحر؛ حتى ننجو من هذه الميّة المروعة، وأشار آخرون أن نحتال لقتله.



(٣) فُلك النجاة

فأشرت عليهم أن يهيئوا فُلكًا من خشب الأشجار؛ فإذا لم ننجح في قتل العملاق هربنا من الجزيرة في تلك الفلك؛ ففرحوا جميعاً بهذا الرأي، وشرعنا في العمل بجد ونشاط حتى إذا تمت الفلك وضعنا فيها ما تحتاجه من الزاد وربطناها إلى شاطئ البحر.

تنفيذ المؤامرة

وعدنا إلى القصر، فجاء العملاق ففعل بثالث منا ما فعله سابقيه ثم نام — كعادته — وعلا شخيره، فوضعنا سُفودين في النار حتى احمرأ، ثم أدخلناهما — معًا — بقوة في عينه وهو نائم؛ فصرخ صرخة هائلة — من شدة الألم — وقام هائجًا يبحث عنا — بعد أن عميت عينه — فلم يهتدِ إلى أحد، فسار إلى الباب ففتحه، وخرج كالجنون، ففرحنا بذلك وحسبنا أننا أصبحنا بآمن من شره!



ولكن فرحتنا لم يطل؛ فقد جاء إلينا — بعد قليل — جماعة من العمالة يغايرونها في
الشكل ولا يقلُّون عنْه وحشية وفظاظة، فهربنا منهم مسرعين إلى الفلك التي صنعناها.
فلما رأينا في البحر أخذوا يرجموننا بحجارة كبيرة، فقتلوا رفاقي، ولم ينج معي
منهم إلا اثنان.

(٤) الفرار من جزيرة العمالقة

وبعد أن نجينا من شر أولئك العمالقة أصبحنا تحت رحمة الأمواج الهائجة طول نهارنا وليلتنا، حتى إذا — أصبح الصباح — قدفتنا الأمواج إلى شاطئ جزيرة كبيرة؛ ففرحنا بذلك، وأكلنا من فاكهتها الطيبة، وشربنا من مائها العذب، ثم جلسنا على شاطئ البحر فرحين بالنجاة من أرض العمالقة.

في فم أفعى



ولما جاء الليل نمنا فوق شجرة عالية، واستيقظنا فزعين؛ فرأينا حية هائلة قد التقطت واحداً من رفيقي، فسمعنا عظامه تتكسر في جوفها وهي تبتلعه، فاشتد خوفنا وهالنا الأمر، وقلنا: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! كلما نجينا من مصيبة وقعنا فيما هو شر منها».

ولما أصبح الصباح أكلنا وشربنا، حتى إذا جاء الليل صعدنا إلى شجرة أخرى فنمت بأعلاها، ونام رفيقي قريباً مني، وبعد قليل جاءت الحية فاللتقطت رفيقي كما التقطت صاحبه بالأمس؟

كيف نجوتُ من الأفعى؟

فمكثت طول الليل خائفاً حتى إذا أصبح الصباح همت أن ألقى بنفسي في البحر، فمعنى من ذلك حب الحياة فتجددت، ولما اقترب الليل أحضرت الواحًا من الخشب وشدت جسمي إليها شدًّا وثيقًا، وجاءت الحية كعادتها تحاول أن تبتلعني — كما ابتلعت رفيقي — فحالات الألواح المشدودة حولي دون ذلك، وظللت طول الليل تحاول أن تجد منفذًا إلى — من خلال الألواح — دون أن تظفر بطائل، فلما بدا الصباح عادت من حيث أتت، فحللت رباطي وخرجت من بين الخشب وأنا أحمد الله على السلامة.

الأمل بعد اليأس

وجلست على شاطئ البحر يائسًا مهومًا أفكر فيما حلَّ بي من المصائب، فلمحت مركبًا كبيرًا — على مسافة بعيدة — فلم أزل أصرخ وأصيح مشيرًا بيدي مرة، وملوًحاً بعمامتي مرة أخرى، حتى فطن إلى بعض من بالمركب؛ فاقتربوا من الجزيرة ورسوا على شاطئها، فسلمت عليهم فردوًا علىَّ السلام، وفرحت بلقائهم فرحاً عظيمًا، وحملوني معهم وسألوني عن أمري، فقصصت عليهم كل ما حدث لي، فعجبوا من ذلك أشد العجب، وأطعمنوني وسقوني وأكرموني أحسن إكرام.

ربان السفينة

ولم يزل المركب سائرًا بنا حتى بلغنا بلدًا كبيرًا، فقال لي الربان: «إن عندي بضاعة لرجل اسمه «السندباد البحري»، كان معنا ثم نسيناه في جزيرة مرتنا بها». فتأملت الربان فعرفته، وأخبرته أني أنا «السندباد البحري» فلم يصدقني — أول الأمر — واجتمع التجار حولي، وكان من بينهم التاجر الذي تعلقت بذبيحته في رحلتي السابقة التي قصصتها عليكم، فلم يك ينعم النظر في حتى عرفني، وقص عليهم ما حدث لي معه، فحدَّق الربان النظر في فعرفني وتحقق صدق قوله، فعاذبني فرحاً مسرورًا.

في بلاد العمالقة

في بغداد

وما زلنا ننتقل من بلد إلى بلد ومن جزيرة – وتجارتنا رابحة – حتى وصلنا إلى البصرة،
ثم سافرت منها إلى بغداد ومعي أموال لا تحصى، وأقبل عليَّ أهلي وأصحابي يهنئونني
برجوعي سالِّاً وقد فرحوا بي فرحاً لا يوصف.

مفتاح القراءة^١



كم من حديث معجب شائقٍ نتلوه أمي أو أبي من كتاب
هذا عجيب فمتى أغتندي مثلهما أقرأ بين الصحاب

* * *

^١ من كتاب «محفوظات الأطفال للمؤلف».

كم ذا أجيال العين في صفحةٍ منقباً لا يعتريني فتورٌ
وأنثني من غير جدوٍ وما فهمت شيئاً بين تلك السطور!

* * *

لكن أمي إذ رأت حيرتي قالت: إذا ما رمت هذا المرام
فهاك مفتاحاً لأسراره هاك كتاباً فيه سر الكلام
فيه حروف الهجاء

* * *

تبأ بالأحرف فيه ولا تلبث حتى تقرأ المفردات
وتقرأ الأسطر من بعدها فيصبح الصعب من الهينات

* * *

وبعد جِدِ واجتهاد ترى أنك تتلو - مثنا - في الكتاب
تقرأ ما يشجيك من قصة ومن حديث معجب مستطاب
في أي وقت تشاء!

رسالة الغفران

(١) لماذا كتبها أبو العلاء

كان أبو الفرج الزهرجي — كاتب «نصر الدولة» — قد كتب إلى أبي العلاء رسالة استودعها ابن القارح^١ وسأله أن يوصلها إلى أبي العلاء.

قال ابن القارح^٢ فسرق عديلي رحلاً — الرسالة فيه — فكتبت هذه الرسالة^٣ أشكو

أموري وما لقيت في سفري من أثيوام يدعون العلم والأدب

وقد ملأ ابن القارح رسالته بشكوى الناس والطعن على الزنادقة والملحدين، وجراه ذلك إلى الاستطراد إلى مناسبات شتى، فلما قرأ «أبو العلاء» رسالة ابن القارح، بعث إليه

برسالة الغفران ردًا على رسالته. وقد سلك فيها منهاجاً عجيباً لم يسلكه — فيما نعلم — كاتب قبله؛ فبدأها بالثناء على ابن القارح، والإعجاب بغيرته الدينية، ثم قال:

«وفي قدرة ربنا — جلت عظمته — أن يجعل كل حرف منها شبح نور لا يمتزج بمقابل الزور، ولعله — سبحانه — قد نصب لسطورها المنجية من اللاهب معاريف من الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة من السماء. بدليل الآية: ﴿إِلَيْهِ يَصُعدُ الْكَلْمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلْمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتَيِ الْكُلُّهَا كُلًّا حِينَ يَأْذِنُ رَبَّهَا﴾.

وفي تلك السطور كلامُ كثير، كله عند البارئ — تقدس — أثير، وقد غرس مولاي الشيخ الجليل إن شاء الله — بذلك الثناء — شجر في الجنة لذيد اجتناء، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظلٍّ غاٍٍ، والولدان المخلدون في ظلال تلك الشجر قيامٌ وقعود، يقولون — والله القادر على كل شيء عزيز: «نحن وهذه الشجر صلة من الله لعلى

بن منصور،^١ نخبأ له إلى نفح الصور». وتجري في أصول ذلك الشجر أنهار تختلج^٧ من ماء الحيوان،^٨ والكوثر يمدّها في كل أوانٍ، من شرب منها النغبة^٩ فلا موت، قد أمن هنالك الفوت^{١٠} وسعد من اللبن متخرقات لا تغير بأن تطول الأوقات، وجعافر^{١١} من الرحيق^{١٢} المختوم.

وبعد أن أبدع «المعربي» في وصف الفردوس ما شاء أن يبدع، وافتني في وصفها ووصف من فيه من السعداء تمثّل صديقه «ابن القارح» – وقد اصطفي له ندامى من أدباء الفردوس، ثم يخطر له أن يتزّه، ولا يكاد يفعل حتى يقابله الأعشى، ثم يقابله غيره من الشعراء، وبذلك يخلق أبو العلاء جوًّا صالحًا لتلك الكوميديا الرائعة – رسالة الغفران – ويجعل مسرح هذه الكوميديا الجنة والنار، فإذا انتهى من هذه الكوميديا؛ عاد إلى الرد على رسالة ابن القارح.

ولعل هذه الرسالة هي أمتع ما كتبه^{١٣} أبو العلاء، وهي تعد بحق أنفس أثر له بعد كتاب اللزوميات.

(٢) لماذا أطلق عليها اسم الغفران؟^{١٤}

وإنما أطلق عليها اسم «الغفران» لأن الفكرة الرئيسية التي دفعته إلى إنشائها – وقت إجادته على رسالة ابن القارح – هي مناقشة من فازوا باللغفرة ومن حرموها في الدار الآخرة، ومما يسترعي انتباحك فيها سؤاله – وكثيراً ما كان يوجهه إلى الفريق الناجي: «بِمَ غُفرَ لَك؟» فيجيبه كل واحد منهم بما نجَّاه من العذاب، ويشرح له السبب في دخوله الفردوس، ويصف له كيف يتمتع به، وكيف ينعم ببدائعه.

وسؤاله الذي كان يوجهه إلى الفريق الثاني – وهو مَنْ حَقَّتْ عليه اللعنة وكتُبَ عليه الشقاء: «لِمَ لَمْ يغْفِرْ لَكَ قَوْلُكَ كَذَا؟» فيجيبه أكثرهم عن السبب، ويشرّحون له ما يقايسون من ألم وعذاب، ويصمت بعضهم لاشتغاله بما هو فيه من نكالٍ وغضص. وهكذا ألمٌ بطائفة من الحوادث والأسباب، ومزج الرواية بالدعابة، والجد بالفكاهة والأدب، والفلسفة بالنقد الصائب، والسخرية الدقيقة.

وليس هذا الخيال، أو تلك الفكرة الفنية التي انتظمت الكتاب فأفردت من بين الآثار الأدبية التي كتب لها الخلود، مما يستغرب من مثل أبي العلاء ذي العقل الراجح، والبصرة النفاذة، والخيال الواسع.

نعم وليس تمثُّل البعث والنشور، ونعميم الفردوس، وتعذيب الأشقياء في الجحيم، من الأفكار الطارئة التي سببتها رسالة ابن القارح أو نبهتها فيه، ولكنها فكرة متأصلة في قرارة نفسه، نبتت ونمّت وتوسّجت أصولها ونضجت ثمارها في قلبه – نحو نصف قرن – فاختلطت بلحمه، وسيطت بدمه، وهيمنت على مشاعره منذ حداثة نشأته – حتى أصبحت – من أهم مصادر الفلسفة العلائقية.

ولعل أول محاولة رأيناها له – في اكتناه البعث والتردد في قبول الروايات والأخبار المتناقضة – قوله في مستهل حياته الأدبية – وهو في الرابعة عشرة من عمره في نونيته التي رثى بها أباه – إذ يقول فيها:

فيا ليت شعري! هل يخف وقاره
إذا صار أحُدُّ في القيامة كالعهن؟
وهل يرد الحوض الروي مبادراً
مع الناس أم يأتي الزحام فيستأنِّي؟^{١٥٩}

وإنك لتلمح الشك يساور نفسه التي تتطلع إلى اليقين؛ فلا تظفر به وتتلمسَ الحقيقة فلا تصل إليها، فترجع يائسة حائرة بعد أن وجدت كل معينٍ ناضجاً، وكل ماء سراباً، وإنك لتجد حيرة من قتل الفكرة بحثاً، وقلبها على كل وجه من وجوهها وناحية من نواحيها فلم يظفر بطالئ، وزاد تفاقم الشك في نفسه الفتية، فأصبح يتلمس ما يسد به ذلك الفراغ – الذي كان يملؤه اليقين – فلا يجده. كل ذلك تتمثله واضحاً في قوله من تلك القصيدة:

جهلنا فلم نعلم – على الحرص – ما الذي
يراد بنا، والعلم لله ذي المِن
إذا غَيَّبَ المرءَ استسرَ حديثه
ولم تخبر الأفكار عنه بما يغْنِي
تضل العقول الهبرزيات رشدَها
ولم يسلم الرأي القوي من الأفن
طلبت يقينَا من جهينة عنهم
ولم تخبريني، يا جهين سوى الظن

فإن تعهديني لا أزال مسائلاً
فإني لم أعطِ الصحيح، فأستغنى

وهكذا ظل أمر البعث، والنشور، والجنة، والنار من أكبر شواغل هذا العقل الممحض الكبير، فاكتنلت كتاباته وأشعاره بالإشارة إلى ذلك، ولم تكن تمر به فرصة دون أن يشير إليه إشارة قريبة أو بعيدة، واضحة أو خفية، هازئة أو جادة، ساخرة أو مقررة.^{١٦} ولم يكن يرى حلاً لهذه المشكلة المستعصية الحل، إلا وسيلة واحدة مستحيلة التحقيق، بعيدة الحدوث، ولكنها أمينة — على كل حال — من الأماني التي لا بأس من تحدث النفس بها — وإن كانت جد واثقة من قلة غناها — تلك الوسيلة هي استفسار من ماتوا عما لقوه من عذاب أو نعيم — في عالمهم الثاني — ليضع بذلك آخر حد لتضارب الآراء وتناقض الأخبار في هذه المشكلة المستحيلة الحل، ثم لجأ إلى الأماني — وإن لم تسعفه الأماني — فوّاً لو يتاح له الظفر بسؤال أحد الهاكلين واستفساره عما لقيه — بعد الموت — لتنتهي بإجابته شكوكه وحياته انتهاء حاسماً، فقال:

لو جاء من أهل البلى مخبر
سألت عن قوم وأرّخت
هل فاز بالجنة عمالها؟
وهل ثوى في النار نوبخت؟

وقال:

أسكن الثرى! لا تبعثون رسالة
إلينا! ولست سامعي كلام الرسل!
ولكن طول الدهر يُذهل أو يُسلّي!

وقال:

داران أما هذه فمسيئة
جدًا، ولا خبر لتلك الدار
فنقول للنبأ الجديد: «بدار!»

داران أما هذه فمسيئة
ما جاء منها وافد متسرع

وقال:

فهل قام — من قبره — ميت
يعيب على النفس إخفارها
يقول: «جنبنا ذنوبًا لنا
وجدنا المهيمن غفارها»

إلى آخر تلك الأبيات التي لا حاجة بنا إلى استقصائها.
ولكنه بعد أن سئم هذه التمنيات التي رددتها كثيراً — بلا طائل — لجأ إلى نوع آخر
من الأماني الجدية — وهو الخيال — وما أوسع عالمه إذا ضاق بالإنسان عالم الحقائق!
وانتهز لذلك مناسبتين:

أولاًهما: رسالة سائل — لم يحفظ لنا التاريخ اسمه — بعث بها إليه مستفسراً عن
بعض المسائل الصرفية.

وثانيتهما: رسالة علي بن منصور الملقب بدوخلة، المشهور بابن القارح، فكان جوابه
على الأولى رسالة الملائكة، وعلى الثانية رسالة الغفران. فأماماً رسالة الملائكة فقد انتهز
فيها مناسبة كل لفظة سأله المستفهم عنها، للخروج منها إلى ما يناسبها من لقاء
عزrael إلى محاسبة الملوكين إلى نفح الصور إلى دخول الجنة.

وأما رسالة الغفران فقد انتهز فرصة الثناء على رسالة ابن القارح وإطراء كلماتها
— كما أسلفنا — لنتوصل إلى غايتها التي رمى إليها، فتمثلَّ الملائكة ترفع كلمها الطيب
إلى السماء، وتخذذ من قوله تعالى: «ألم تر كيف ضرب الله مثلًا كلمةً طيبةً كشجرةً طيبةً،
أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» وسيلةً إلى تمثيل الأشجار
قد غرست في الفردوس بعدها كلمات تلك الرسالة؛ لأنها جميعاً مما ينطبق عليه معنى
الآية التي كأنما كانت تعنيها بهذا الوصف.

وساقه ذكر أشجار الجنة إلى ذكر أنهارها وما فيها من الخمر، ثم إلى تنزُّه ابن
القارح فيها وتمتعه بنعمتها الخالد، وتعزّفه بأهلها، ثم جرّه ذلك إلى وصف دخوله
ودخول غيره من المغفور لهم جنان الخلد، ثم جرّه ذلك إلى زيارة أهل النار وسؤالهم
عن السبب الذي جرّهم إلى هذه العقبي السيئة، وهكذا إلى آخر أغراض الرسالة.
وبعد أن فرغ من ذلك القسم الممتع عاد إلى الرد على رسالة ابن القارح.

أما رسالة الملائكة فقد يخيل إلينا أنها كتبت قبل رسالة الغفران؛ لأنها — على جمال أسلوبها وتفرد خيالها — مقتضبة إذا قسناها إلى رسالة الغفران، أو هي — إن شئت — إنما كانت تمهدًا للفكرة الفنية التي قامت عليها القصة.

أما رسالة الغفران فهي — في اعتقادنا — أوضح وأدق وأبرع صورة شعرية قرأتناها عن العالم الثاني، وأحوال الناس فيه، وهي كما قلنا من قبل: «فن من الأدب العالي، لا يقل عن أجلٍ آخرجه أكبر رأس غربي مفكر...!»

هواش

(١) هو علي بن منصور بن القارح، وتجد ترجمته في الجزء الأول من رسالة الغفران ص ٢٥.

(٢) ارجع إلى رسالة ابن القارح المنشورة في الجزء الثالث من رسالة الغفران.

(٣) أي: رسالة ابن القارح التي بعث بها إلى أبي العلاء، وهي رسالة طويلة تحوي أخبار الكثير من العلماء والأدباء وأساطير الفكر العربي، هذا إلى ما اكتنلت به من عبارات المدح والإطراء التي صاغها في شكر أبي العلاء.

(٤) جمع معراج — وهو السلم أو المصعد.

(٥) ظليل.

(٦) هو ابن القارح.

(٧) تتنزع، تحرك، تطير.

(٨) الحياة.

(٩) الجرعة.

(١٠) الضياع.

(١١) أنهار كبيرة.

(١٢) أطيب وأفضل أنواع الخمر.

(١٣) وقد كتبها في سنة ٤٢٤ هـ.

(١٤) اقتبسنا هذه الكلمة من مقدمة رسالة الغفران التي شرحها المؤلف.

(١٥) ألا ترى إليه كيف لائم في هذين البيتين بين روعة الموقف ووقار أبيه، وكيف تردد في أن هذا اليوم العصيب الذي تتبدل فيه طبائع الناس من الرزانة إلى الخفة، ومن العطف على سواهم إلى الاهتمام بأنفسهم لشدة الهول والفزع، فيصدق المرء عن أبيه وأمه

وأخيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤويه، ومن في الأرض جمِيعاً ثم ينجيه، انظر إليه
كيف ارتاب في أن هذا اليوم المفزع الهائل مبدلٌ من تؤدة أبيه ورذانته التي عرفها فيه.
وانظر إليه كيف لائم بين هاتين الفكرتين المتنافرتين، وكيف جمع بين تمثيل الهول
والرعب، وتمثيل الرزانة والتؤدة!

وأحب أن أتبَّع إلى وصف يوم الموقف في الفصل الثاني من رسالة الغفران، وكيف
يتدفع الناس إلى ورود الحوض ليطفئوا غلة العطش الذي أهلتهم، وكيف يذودهم
الواقفون على الحوض ليمنعوهم الوصول إليه!

(١٦) شعر أبي العلاء في البعث

نكتفي باختيار النبذة التالية من أشعاره الكثيرة التي تناول فيها هذه الفكرة، وهي
— على ما في بعضها من تناقض ظاهري — لا تكاد تختلف في جوهرها، قال:

زعموا أنني سأرجع شرخاً
كيف لي؟ كيف لي! وذاك التماسي
وأزور الجنان أحبر فيها
بعد طول الهمود في الأرماس!

* * *

هي النفس تهوى الرحْب في كل منزلٍ
أتتني أنباء كثير شجونها
هفا — دونها — قس النصارى وموبد الـ
وخطوا أحاديثاً لهم في صحائف
تخلفت الأشياع في عقب الردى
وتلك بحار ليس يدرك عبرها!

* * *

أما القيامة فالتنازع شائع
فيها وما لخبيئها إصحاب
نفني، ويبقى الواحد القهار

* * *

وأعجب ما نخشأ دعوة هاتف:
أتيتكم، فهربوا يا نيام إلى الحشر
— يد الدهر — أو متنا مماثلاً بلا نشر

* * *

— بعد التلاطف — طمعنا في تلافيه
— ولم يحطم — فعادت مرة فيه
ثم استمر هباء في سوافيته
لو كان جسمك متروّغاً بهيئته
كالدن! عطل من راح تكون به
لكنه صار أجزاءً مقسمةً

* * *

يُقْوِمُ مِنَ الْتَّرَابِ مَغِيبُوهُ
قَلِيلٌ فِي الْمَعَاشِ مَنْجِبُوهُ
ويذكر أن في الأيام يوماً
وما يحدث! فإنما آل عصرٍ

* * *

ويقال: «إن الله — جل جلاله —
يُوْمًا! يطهر أرضه بالنار»

* * *

عنه! فينهض وهوأشعث أغبر
والعجز تصدق بمين يخبر
أن المنية كسرها لا يجبر
كينااته» جهل أمرؤ ما أوبر!
كذب أتاكم عن يهود يحبر
في الدهر، والعمل القبيح يتبر
من للدفين بأن يفرج لحده
والدهر يقدم والمعاشر تنقضى
زعم الفلسفه الذين تنطسوا
قالوا: «وآدم مثل أوبر، والورى
كل الذي تحكون عن مولاكم
رامت به الأخبار نيل معيشة

* * *

للموت عنى، فأجدر أن ترى عجبًا
— هلاك جسمى في تربى — فوا شجبا
إن يصح الروح عقلي بعد مظعنها
 وإن مضت في الهواء الرحب هالكة

* * *

تمر بمطعم الأري المشور
ولكن لا تدل على النشور
خذ المرأة واستعرض نجوماً
تدل على الحمام — بغير شك —

* * *

تحطمنا الأيام — حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

* * *

قال المنجم والطبيب كلاماً: «لا تحشر الأجسام» قلت: «إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسِ! أو صح قولي فالخسار عليكم!

* * *

فليت الفتى كالبدر حدد عمره
يعود هلاً كلما فني الشهر
ولم تر بطن الأرض يلقي لظهرها
رجالاً، كما يلقي إلى بطنهما الظهر

* * *

حياة كجسر، بين موتين، أول وثانٍ، فقد الشخص أن يعبر الجسر

* * *

والفقر موت، غير أن حليفه يرجى له بتمؤل إنشار

* * *

أعلم أني – إذا حييت – قدّى وأنني – بعد ميّتني – مدر
كم من رجال جسومهم عفر تبني بهم – أو عليهم – الجدر

* * *

رب روح كطائر القفص المس
فروحوكم بباطل – شيمة الحم
كيف لي أن أكون في داري الآخر
عجبًا لي! أعصى من الجهل عقلي
جون، ترجو بموتها التسريحا
ر – فمهلاً لا أوثر التفريحا
رى، معافى من شقوء مستريحا
ويظل السليم عندي جريحاً!

* * *

لا نعلم الموتى تهم بكرة لكن أحياه تروم لحاقا

* * *

يكر موتانا إلى الحشر إن قال لهم بارئهم: «كروا»
يختلف منا آخر أولاً كأننا السنبل والبر

* * *

لعلك منجز أغبار ديني إذا قمنا من الأجداث غبرا

* * *

ومتى شاء الذى صورنا أشعر الميت نشورا فنشر

* * *

أيها الملحد! لا تعص النهى فلقد صح قياس واستمر
إن تعدد في الجسم - يوماً - روحه فهو كالربع خلا ثم عمر

* * *

قد يمكن البعث - إن نادى الملك به - وليس منا لدفع الشر إمكان

* * *

إذا ما أعظمي كانت هباء فإن الله لا يعييه جمعي

خلاصة رأي أبي العلاء التي تخرج بها - بعد قراءة أشعاره في البعث والنشور -
هي أن الله أقدر كل شيء، وأن قدرته التي أنشأ الإنسان من العدم إنشاء غير عاجزة
- بلا شك - عن إنشائه مرة ثانية وثالثة ورابعة - متى أرادت - ولكن القدرة شيء
والإرادة شيء آخر! فقد تقدر على الشيء ولا تريده، أو تريده ولا تقدر عليه!

حقائق يجهلها الأطباء عن الغذاء^١

يقولون إن أحد المشتغلين بالتنجيم حل ضيفاً عند أحد أمراء العرب فلقي من الحفاوة والإكرام ما لا مزيد عليه، فلما حان وقت الرحيل بصرت عيناه ب طفل علم أنه ولد صاحب الدار؛ فأراد أن يسدي إلى مضيقه يداً يكافئه بها على كرمه الحاتمي، وظل يضرب أخماساً لأسداس، ويخط في رمله – على عادة الدجاجلة والمنجمين – ثم التفت إلى صاحب الدار متهلل الوجه متطلق الأساريير، وقال له: «أبشر أيها السيد العظيم، فقد أنبأني طالع ابنة السعيد أن سيكون له شأن عظيم، وأنه سيخوض المهامه والقفار، ويقهر الأعداء، ويغزو المالك، ويفتح الأطمار وتدين له الجبارية، ويخلص لسلطته الملوك و...» فأسرع رب الدار بمقاطعته قاتلاً: «ولكن هذه بنت...!»

ومن عجائب الزمن أن يدور الزمن دورته، فنسمع أشباء هذه الحكاية يقصها رواة صادقون، ويرويها – بصيغة أخرى – عدول لا يرتاب إنسان في نزاهتهم وصدق روایتهم، وعن آية طائفة يروونها، عن طائفة من أكبر رجال العلم طالما تلقف الناس أقوالهم بلهفة وثقة حاسبيها الحق الصراح واليقين الذي لا يتطرق إليه الباطل، وهي طائفة الأطباء!

يا للعجب! لقد أظهر البحث أن كثيراً – من أطباء اليوم، والأمس، والغد المشتغلين بمسألة الطعام – دجاجلة ومنجمون، تتناقض أقوالهم وتتضارب آراؤهم في المسألة الواحدة؛ فتصل مسافة الخلاف بينها إلى ما بين الصد والضد، ولعل أبدع ما نسوقه

^١ نشرت بمجلة الإخاء وهي مقتبسة من الإنجليزية.

دليلًا على ذلك ما ترويه لنا مجلة من أشهر المجالات العلمية الأمريكية، إذ يقول راويتها الثقة — والتبعه عليه:

كان لي صديق — في مقبل أيامه — وكان كثير الشكوى من اختلال صحته، فذهب ذات مرة إلى طبيب مشهود له بالكفاية، واسع الشهرة في فن الطب، وبعد أن أتم الطبيب فحصه — على أحدث الطرق العلمية — التفت إليه قائلاً: «اسمع يا صديقي، إن متاعبك وألامك كلها ناشئة من كثرة تهافتك على أكل اللحم بمقادير كبيرة جدًا!»

ولم يك صديقي يسمع من طبيبه ذلك حتى بلغت دهشته أقصاها، وأجابه قائلاً: «ربما كنت مصابيًّا في حكمك يا دكتور، ولكنني لم أذق لحمًا منذ عامين!» وهنا وجم الطبيب، ولم يكن خجله بأقل من خجل ذلك المنجم الذي روينا قصته في أول هذا المقال!

وغير الطبيب تذكرته الطيبة، وأشار عليه بوصفة أخرى، تتلخص في الابتعاد دائمًا عن الانفعالات النفسية التي تسبب له هذه المتاعب والألام!

هذه حكاية واقعة صحيحة أيها القارئ، وهي — على غرابتها — كثيرة الأشباه والنظائر، وربما حدث لكل إنسان ما يقاربها أو يماثلها، وإنني لأكاد أجزم موقنًا أن ملايين من الناس يعانون من غموض نصائح الأطباء، وتناقض أقوالهم، واضطراب صفاتهم، ما يعجز القلم عن وصفه!

والحق الذي لا مراء فيه، أن اتباع وصفة بعينها، أو السير على نمط خاص في التغذية، وتناول نوع واحد من الطعام، من الأشياء التي مني بها هذا العصر، بل هو — على الأصح — بدعة ممقوطة فيها من الأضرار ما لا قبل لإنسان باحتماله، وما أعجب غرام الأطباء، ومصالح الصحة بإصدار قوائم مطولة، يحصنون فيها ما يجب أكله من الطعام وما لا يجب، ويقيدون بها ما يزعمونه صالحًا للتغذية وما يزعمونه ضارًا من الأطعمة!

وفي الواقع أن النصائح الطبية للتغذية: لا يرضخ لها رضوخًا تامًا إلا في أحوال مرضية حادة أو خاصة، وفي الحميات، وفي الحالات الجراحية، والبول السكري. وما أشد ما يغرون بنا؛ إذ يقررون لنا أن اتباع نصائحهم سيقودنا إلى السلامة ويكسبنا الصحة والعافية، ويرد لنا ما فقد من قوانا، وما بهت من ألواننا، ويطيل من عمرانا، إلى آخر هذه المزاعم الطويلة العريضة التي لا آخر لها، وليس هذا شأن دجاجلة الطب وحدهم؛

بل إن كثيراً من أفالصل الأطباء يندفعون في هذه الطريق بحسن نية، ويصفون ذلك بإخلاص وأمانة منساقين في تيار هذه البدعة الجارف!

لقد طالما نصحنا الأطباء بأكل كل الخضر نيئة، ثم نصحونا أيضاً بطبعها، وطالما أشاروا علينا بأكل الفاكهة، ثم أشاروا علينا بالكف عن أكلها، وهكذا وهكذا مما لا نهاية من الأوامر التي لا تثبت أن تصير نواهي، حتى أصبح الرجل الذي يستطيع أن يمنع نفسه من الحرية والارتباك – أمام هذه الأوصاف المربكة المتناقضة ويستخلص من هذه الشعاب المتلوية طريقاً واضحة – جديراً أن ندعوه بطلأ، وأن نطلق عليه اسم الإنسان الأعلى «السبمان».

ولا تزال إلى اليوم فئة من الأغترار تنخدع بهذه النصائح، فتعكف على تناول طعام بعينه، حاسبة في ذلك نجاتهم وتتوفر صحتهم، فتكون النتائج غير مرضية، أو – على الأصح – عكسية! ذلك أن الاقتصار على نوع واحد من الغذاء – باللغة ما بلغت فائدته وصلاحيته – يضرُّ بنا إضراراً بليغاً، فإن جسمنا الذي اعتاد أن يتغذى بالأطعمة المختلفة إذا اقتصر على غذاء بعينه حرم مواد مغذية ليست في هذا الغذاء، وأدخل فيه عناصر متراكمة من هذا الغذاء ليس هو في حاجة إليها. ومن هنا ينشأ الإسراف في إدخال عنصر – مهما بلغ نفعه – فهو ضار إذا تجاوز المقدار الكافي منه، وربما دفعهم اليأس – بعد ذلك – إلى نقىض ما فعلوا، فأسرفوا في الخلط بين المأكولات العديدة، واندفعوا في أكل الأطعمة المختلفة، ولكن:

بين إسراف وبخل رتبة وكل الأمرين – إن زاد – قتل!

ومن غرائب الأمور أن الكيميائي البارع – الذي كرس حياته لدراسة طبائع الأغذية – يكاد يحجم عن وصف طعام لك، بينما يندفع الجهلاء وأنصار الجهلاء إلى تحرير ما يصلح لك من الطعام بلا تردد!

وإننا لنسجل بالإعجاب قول أحد العلماء الكيميائيين – وهو تصريح له خطره وأهميته – قال: «قبل ستة أعوام، لم أكن قد تعمّقت في درس الغذاء، فكنت إذا استشارني إنسان في نوع الغذاء الذي يصلح له؛ أجبته عنه بلا تردد، أما الآن – بعد أن أطلت البحث، والعمل بجد ونشاط، ووقفت على خصائص الأغذية، ومزايا كل نوع وأضراره؛ فقد وصلت إلى نتيجة أخرى، هي اقتناعي بعجزي وقصوري التامّين عن وصف أي طعام لأي إنسان.

وكل ما وصلت إليه من الحقائق؛ هو أبني — وغيري — جاهلون جهلاً لا شك فيه
بتخیر الطعام الذي ننصح لك بتناوله بأكله.

أذكر لك حکایة صدیق آخر، لا عمل له إلا الاشتغال بتحليل الأطعمة ووصف ما يصلح
للمرضى منها وما لا يصح، فقد أصابه ذات يوم مرض، فذهب إلى الطبيب العلامة
«هوبنکنز»، فماذا قال له الطبيب؟ قال له: «إن كل أعضائك سليمة، وليس عليك — إذا
شئت الشفاء — إلا أن تقلل من أكلك، أو تكثر من النزهة، فإنك إن فعلت واحداً من
هذين نجوت وسلمت!»

وقد اتبع نصيحة الطبيب، واستفاد منها كثيراً، وأصبحت صحته على أتم ما يرام.
فإذا كان المشتغلون بكيمياء الطعام وتحليله، ووصف ما ينفع الناس منه وما لا
ينفع، عاجزون عن اختيار ما يلائمهم منه، فإن غيرهم من الناس أعجز!

وموجز القول: أن في كل نوع من الأغذية مزايا وأضراراً، وأن الأطعمة المختلفة يتم
بعضها بعضًا؛ فإن في كل طعام من المزايا ما ليس في الآخر، وأن تعود الجسم على تناول
أطعمة بعينها يكسبه مرانة على هضمها، فإذا تركها فجأة وعدل عنها إلى نوع آخر من
الطعام — لم يألفه — أضرر به ذلك العدول، وإن أكثر الأطباء لا يعنون بتحري الدقة في
أقوالهم إذا تكلموا عن الغذاء، وأنهم لو أرادوا الدقة لما وصفوا أي نوع من الأغذية، فإن
اللبن وهو أصلاح الأطعمة — في زعمهم — ناقص يحتاج إلى ما يكمله، وقس على ذلك
غيره مما لا يتسع المقام للإفاضة في شرحه، ولقد كان الموز يعتبر — منذ زمن قريب —
أخطر نوع من الغذاء للأطفال.

وكانت الأم إذا رأت طفلاً يأكله مرة حسنته هالكاً لا محالة، وها هو قد تغير الزمن
ودار دورته فأصبح المختصون يوصون الناس بتغذية أطفالهم به، ويقررون لهم أنه
أصلاح غذاء صحي لصغارهم.

ولعلنا نسمع في الغد نظريات جديدة تنقض كل ما يقرروننه اليوم!

الشعراء المعاصرون: أبو شادي^١

« وإن صديقي – إن رأى الحق شرعاً – فليس يحابيني، ولا ينثني عنِّي »

أبو شادي

لعل خير ما أفتتح به هذا الفصل هو قول صديقي الأستاذ الأديب الفنان سيد أفندي إبراهيم من مقال له:

وإذا كان للعدو أن يكتب عن عدوه وأن ينصفه – ما دام من طبعه الإنفاق
– فلا ضير أن يكتب الصديق عن صديقه وأن ينصفه ما دام من طبعه
الإنفاق.

هذه كملة حق يجب أن أسجلها لصديقي سيد، وأن أستشهد بها حين أكتب عن صديقي أبي شادي، فسيقول بعض المتسكعين الفارغين القلب كعهدنا بهم: « صديق يقرؤه صديقه ويجالمه! »

ولا، وحرمة الحق والإنفاق، إن هو إلا صديق يسجل حسنات صديقه مغتبطاً بتسجيلها له، وما أدرى أية غضاضة في ذلك؟!
وإذا كان الصديق لا ينصف صديقه – بعد أن رأه أهلاً للإنفاق – فمن ينصفه؟!

^١ فصل مختار من كتاب للمؤلف بهذا العنوان لم يطبع بعد.

أينصفه عدوه الذي يرى كل حسنة من حسناته، ومفخرة من مفاخره سيئة يلومه عليها، وجريمة يندد بها؟! أينصفه حاسده وهو يرى في نجاحه أكبر نكبة تحقق به وتضييع آماله، ولا يرضى عنه إلا إذا تساوى معه في العجز والفشل؟!

إن العيب الذي يؤخذ على الصديق هو أن يغفل عن تنبئه صديقه إلى مواطن الضعف والزلل، وهو جدير – إذ يفعل ذلك – بأن يسجل له مغتبطاً المزايا الباهرة التي يراها فيه، وإنما يعاب على الصديق أن تغطي الصداقة على عيوب صديقه فلا يراها، وهو جدير أن يكون لصديقه مرآة صافية تريه محاسنه وعيوبه – على السواء – «فإن المرء لا يرى عيب نفسه» كما يقولون. بقيت ثمة ملاحظة لا أرى بدأً من الإفضاء بها إلى القارئ؛ وهي أن الصداقة التي تجر إلى الإعجاب غير الإعجاب الذي يجر إلى الصداقة، وأنا من يعجبون بالرجل أولاً ثم يصاحبونه؛ فإعجابي بمزاياه الباهرة هو أساس صداقتي معه وليس صداقتي معه هي أساس إعجابي به، فإذا سجلت لصديقي شيئاً من ميزاته فإنما أسجل رأيي فيه الذي ارتأيته قبل أن أتخذه لي صديقاً وصاحبَا وأحَا، ثم لم أتحول عن هذا الرأي بعد مصاحبته. وهذه كلمة لا بد من الإفضاء بها إلى من يخلطون بين واجبات الصداقة وواجبات النقد الأدبي النزيف الذي يحترم الأصول الفنية.

وإنا لنسجل على أنفسنا التقصير والعقوق إذا لم نُشد بعقرية شاعر فذ وأديب متفنن ألمعي، لا لذنب إلا لأنه من معاصرينا، تاركين لأعقابنا الاعتراف له بحسناته في الوقت الذي لا ينفع أدبنا العصري هذا الاعتراف بعد أن عققنا أدبه وتغاضينا عن حسناته.

وإذا كان أدباءنا الممتازون الذين حرموا نفوسيهم كل لذات الحياة وبمهجاتها – في سبيل إنهاض الأدب، وخدمة اللغة والعلم والفن جميعاً – لا يجدون منا كلمة إنصاف، ولا يرون إلا جحوداً ونكراناً للجميل، فما أجردنا حينئذ بلقب غير هذا اللقب السامي – لقب الأديب – الذي يرى أول واجباته انتصار الأديب للأديب «وفرحة الأديب بالأديب!»، ويدين بقول أبي تمام:

أو نختلف يوماً يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

وإني لأكون ساخراً بنفسي وبالقراء معًا إذا حسبت أن إلماماً موجزة كهذه تكفي لتحليل أبي شادي، والتلويه بفضله على العربية وعلى الأدب وعلى العلم وعلى الفن، وقد

أبلٍ في كل هذه جميًعاً بلاء حسناً، وكان الرائد الجريء، وهذا ما يعترف له به النقاد قبل مريديه، وما ظنك برجل أيسر إنتاجه أكبر وأجدى مما أنتجه أي فرد من خصومه الزيارين عليه المتظاهرين بتحقيق جهده الفذ؟! ما بالك برجل يكون أيسر تاليه عدة أوبرات يخطط بها – في الشعر العربي – طريقاً واضحة ميسرة معبدة غير ملتوية ولا معوجة مما أكبره أعلام المستشرقين؟!

ولو استطاع أحد خصومه أن ينظم واحدة من هذه الأوبراات العديدة – «كإحسان» و«الآلة» و«أردشير» و«الزباء» و«بنت الصحراء» و«إخناتون» – لكان بيبة الديك، وللأدنيا بها فخرًا وبهاء!

ثم يكون من آثاره تأليفة القيمة في علم النحالة (apiculture) التي خدم بها اللغة والعلم والاقتصاد الزراعي معاً، واشتهرت عالمياً، وكتاب «الطبيب والمعلم» – في زهاء ألف صفحة – يطُوّع فيه الألفاظ العربية تطويقاً لم يسبق إليه غيره من أساطين فن الطب إلى الآن:

ردت لطافته وحدة ذهنه
وحش اللغات أوانسًا بخطابه
والنحل يجني المر من نور الربى
فيصير شهدًا في طريق رضابه

ثم يكون من آثاره ترجمته القوية الرائعة لشكسبير، وديوانه «الشفق الباكى» في أكثر من ألف صفحة جياشة بشتى العواطف والإحساسات، حافلة بالدراسات الأدبية القيمة، ونراه يثبت في كتبه آراء خصومه كما يثبت آراء المعجبين به على السواء، ويدعو إلى النقد الحر المستقل ويحترمه شاكراً، وهي خلٌة لم نك نراها في سواه من أدباء هذا العصر الذين يحقدون على كل من خالف لهم رأياً، أو أظهر فيهم عيباً واحداً!!!¹

تلك بعض حسنات أبي شادي الذي يمثل لنا أدب الثقافة العالية والحياة القوية، كما يمثل لنا روح العلم وحب البحث والاستقصاء، نسجلها بإيجاز حقائق ناطقة لا مجال للإسراف والغلو فيها، وهي حسنات يذكرها له الأدب وتاريخ اللغة وتاريخ النهضة العلمية معاً، ولقد كنا نحسب من المغالاة ما روي لنا عن أن الشعر كان أيسر أدوات ابن الرومي حتى رأينا إنتاج أبي شادي المتنوع علمًا وأدبًا، واحتبرنا تفنته في ذلك؛ فاماًنا بصدق تلك الرواية، واتخذنا من عبقرية أبي شادي المتعددة النواحي قرينة أو برهاناً على صحة نظيرتها عند ابن الرومي.



صورة فنية كاريكاتورية بد菊花 من رسم الاستاذ «فريدون» تمثل مناحي عبقرية «أبي شادي» الأدبية العلمية.

(١) شعره ورأيه في الشعر والشاعر

يرى «أبو شادي» أنه لا بد للشاعر المتعالي من رسالة سامية يؤديها، وأنه لا كمال للشعر في أن يكون ذاتياً "subjective" فقط، ولا في أن يكون موضوعياً "objective" فحسب، بل إن أكمل ما جمع بين الصورتين، وما توج برسالة فنية عالية للحياة والأحياء، والرسالة التي ترجيه نفسه وشاعريته إلى بثها هي رسالة التفاؤل الإنساني والاندماج الفلسفي في النوع اندماجاً يجعله يحس حقيقة بأنه خالد في نوعه، وأن الفرد – أو الحياة المحدودة – يضحي في سبيل تجميل النوع – أو الحياة المستمرة – فهو يرضى قريراً بهذه التضحية في سبيل ما تنزع إليه الحياة من جمال وكمال،^٢ وهو بهذا الشعور متصوف، وتتجلى روحه الصوفية – على أقوى ما تكون – في مناجاته الطبيعية بأناشidine التي تراها، وإن اختفت أنغامها ومعانيها متوجهة إلى قبلة واحدة.

وهو، وإن لم يغنم الشاعر الذاتي البحث، ولا الشاعر الموضوعي الصرف حقه بالنسبة إلى مدى قوته في الشاعرية، إلا أنه ينظر إلى المثل الأعلى من الشعر نظر المؤمن إلى رسالة قدسية، فهو لا يعتبره شعوراً عميقاً، وخيالاً ساماً، وعاطفة حارة، وتعبيرًا فنياً فقط، بل يراه — مع كل هذا — نشيداً لوحى سماوي يصعد بالإنسانية من حضيض البهيمية ويبوئها مكانتها الروحية الجديرة بها.

فإذا شئت أن تعرف روح هذا الشاعر ولبه فحسبك عبرته «إخناتون» — وهو أول من ألف رواية عنه وحاول إنصافه في أدبنا العربي، وتابعه شوقي بك في محاولته إنصاف كليوباترة، وإن كان الفرق بين الشخصيتين شاسعاً.

وفي ديوانه «الشفق الباكى» — فضلاً عن دواوينه السابقة — نماذج شتى لما يوصف بشعره الإنساني العالمي، وكذلك ترى في ديوانه الأخير «وحى العام»^٣ بجزءيه لستني ١٩٢٨ و١٩٢٩م، وفي ملحمةه الشعرية الفلسفية المشهورة «شوبنهاور والحياة» تعبير شتى من عقيدته هذه ومن تصوفه القوى، وإذا رجعت إلى شعره القديم وجدت نفس هذه الروح الإنسانية متماشية معه في نموه الفكرى الوجدانى منذ نيف وعشرين عاماً.

وأنت — إذ تقرأ شعره القومى السياسى — لا تقرأ شعراً ديمقراطياً مثلما تقرأ شعراً إنسانياً في روحه، ولا غرابة في ذلك ما دامت هذه هي النزعة الغالبة على الشاعر في جميع أدوار حياته وفي كل نواحي عيشه، مما يدل عليها تعلقه بمظاهر التعاون الأممى الفكرى، واشتراكه فيما يستطيع الاشتراك فيه منها.

ولشعره القومى — إلى جانب إنسانيته — صبغة ديمقراطية سليمة تجدها في حبه على الفلاحين، ألا ترى ذلك في قصidته «كوخ الريف»؟^٤ ثم ألا تراه أبلغ محبٍ حياة الريف للمصري في مثل قصidته «في حضن الريف»^٥ التي هي مثال لشعره القومى الكبير؟

فأنت ترى — في هذه القصيدة — صوراً من العواطف الحارة الجامحة بين حب الوطن وحب الطبيعة والتقىن في وصفها — وقلما تجد له قصيدة وجданية لا تجمع بين فنون شتى من الشعر تمتزج امتزاجاً بنفسه المستوعبة لشتى الأطياف والألوان والأنغام.

وما دمنا قد أشرنا إلى شعره القومي — وطائفة صالحة منه موزعة بين دواوينه «مصريات» و«أذين ورنين» و«الشفق الباكى» و«وحى العام»؛ دع عنك مؤلفاته الشعرية الأخرى مثل «نكبة نافارين» و«مفخرة رشيد» ... إلخ — فحرى بنا أن نشير إلى قصidته الوطنية الممتازة: «الفلاحة»^٦ دون أن ننسى أنه صاحب البيت المشهور:

والشعب إن يغفل حقوق صغيره صار الكبير به الصغير الضائع!

ولما كانت للشاعر جولات شتى في فنون الشعر المتعددة فإنني أكتفي بالإشارة إلى أهمها، أو على الأصح إلى ما يحضرني منها؛ فهو قد أعاد لنا الروح الفلسفية في الشعر، وبرهن — أيمًا برهان — على أن الشعر العالى يعتز بذلك، وأن الفلسفة لا تضر الشعر بل تخدمه وتقدنه، وليس الذنب عائداً إليها إذا أدخلها بعض الأعbara في الشعر فأفسده بها، فإنما الذي ذنب من يتناولها بغير بصيرة، ومن يخرجها به تقليداً، لا عن شعور وإيمان صادق، وقد رأينا أبو العلاء والمتيني مثلًا يمزجان الشعر بالفلسفة؛ فيبلغان ذروة الإجادة، ويضيئ شعرهما بأسمى معانى الفلسفة. وشواهد «أبي شادي» في هذا الباب تكاد لا تحصى، وهو يرى أن النظرة الشعرية تستطيع أن تستوعب الفلسفة والعلم، بل وجديرة بأن تستوعب كل شيء، والعبرة باندماج الشاعر في موضوعه بدل أن يكون صانعاً وصافاً غريبًا عنه، ولعل هذا هو السر في إثبات أبي شادي على عمله العلمي بشغف كأنما هو ينظم شعراً جميلاً، وله في «المكرسكوب» — المجهر — قصيدة فلسفية وجданية فريدة في بابها.

وبينما يرتجح غير واحد من أعلام أدبائنا للدعایة ضد المرأة، على اعتبار أنها نوع من الشر الضروري؛ يعدها أبو شادي ينبع السعادة، ويضعها في أرفع منزلة لم تتنلها من شاعر عربي من قبل، بل ولا من أحد من معاصريه، وتدور حولها — على الحقيقة — عبرته «الألهة» في رمزي الجمال والحب، وبدافع سحرها نظم قصidته البديعة «الينبوع» مستوحياً — كما شاءت عواطفه الحارة وخياله الشعري — الصورة الفنية^٧ التي رسمها النقاش الشهير إنجرز “ingress”.

وقد تنوّقت هذه القصيدة وكثير الاقتباس منها؛ لجمال موسيقيتها ومعانيها، ولم يفت شوقي بك روحها وأخص معانيها حين نظم قصidته اللامية «بمصرع كليوباترا». ولا جدال في أن نظرة أبي شادي إلى المرأة هي نظرة أفلاطونية روحية بريئة، ويتبعد ذلك شعره الغزلي — وكله عفيف — ونظمها الغنائي الكبير، ولن تجد في شعره الغزلي



الينبوع

— كيما كان الموقف أو الموضوع أو المناسبة — شيئاً ينبو عنه الذوق المذهب، أو تستحي منه الفتاة، وكما أنه بطبيعته مبتكر في المعنى والخيال والموضوع، فهو كذلك شديد التزوع إلى الابتكار في المبنى؛ مثال ذلك: قصidته الطريفة «المثال»^٨ وهي تحفة من حسنات الشعر العصري الذي ما نزال نغفل دراسته في معاهدنا بكل أسف — ولا أستثنى من ذلك الجامعة المصرية — منقطعين لعبادة القدماء والتغنى بآثارهم، وفي هذه القصيدة ما يروعك، ويفتنك من الوصف الدقيق المشوق والنغم الشجي، في حين أن كل عقباه قبلة أفلاطونية و«شعر يطيب كوقع المثاني»!!
ولا عجب في ذلك حينما تدرك نزعة «الإيديالزم» المتسلطة عليه دائمًا، الموحية إليه بأن يقول:

مذهبني في جلالة الحسن أن لا يغتدي نعمة تحب لتفسد

أكثر الحسن ما يُصان ليشقي إنما الحسن ما يصان ليُعبد!

ويطول بنا الحديث إذا تكلمت عن شعره الوصفي واستنطاقه للحياة والجماد، بل لعالم رؤياه كلها، فنكتفي بالإشارة إلى قصidته «الرقيبان الصامتان»^٩ وإلى قصيدة المتأملة،^{١٠} وكلتاهما من شعر التصوير الذي أخصب به الأدب العصري، كما ابتدع له فنوناً من الشعر المرسل، ومن الشعر الحر، وتصرف تصرفًا حكيمًا في أساليبه البيانية الجديدة وفي مناهجه اللغوية لفظًا وأسلوبًا، ولا تحسبنا في حاجة إلى الإشارة إلى شعره التاريخي، وإلى نظمه القصصي الموفق، فنماذجه كثيرة مشهورة، وقد جاءت برهاناً كافياً على طواعية اللغة العربية ومواتاتها لمن يعرف أسرارها، ويتبصر منها، وتكون له شاعرية مطبوعة، وثقافة تزجيه إلى التعبير والابتكار، وشاعرنا — بطبيعة تكوينه العصبي وفرط حسيته وعواطفه — شاعر أصيل يرث الشاعرية أو الاستعداد الفني عن والده الخطيب المفوّه، والكاتب الشاعر الكبير محمد أبي شادي بك من ناحية، وعن والدته الأديبة الشاعرة الرقيقة السيدة أمينة نجيب، وعن خاله المؤرخ القدير، والشاعر الناشر المتوفن مصطفى نجيب بك من ناحية أخرى. وهو برغم هذا التراث الأدبي تراه غير راضٍ عن نفسه، ولا يعني بالشعر الذاتي البحث إلا في مواقف الدفاع أمام تهجم الجامدين أو حسد المنافسين، إذا ما استحالت نزواتهم إلى تحامل مزدول، ولعل من الخير للأدب هذا الشعور المتأصل فيه: لأنه يدفعه إلى الإنتاج المتواصل طلباً للكمال الفني، على العكس من القانعين الكسالى الفخورين بآثارهم الضئيلة؛ لأنهم لا يخدمون الأدب ولا يصلحون من ملكتهم بتكرارهم إنشاد شعرهم القديم في زهوٍ وغزور، ومن أحسن ما نختاره من شعره الذاتي "Subjective poetry" قصidته في الدفاع عن نفسه أمام خصومه المتحاملين وحاصليه، وعنوانها «جوابي».^{١١}

وهذه القصيدة — التي ينظمها شاعر رومانطيقي — هي في جملتها كلاسيكية الصورة^{١٢} وهذا الذي يجيز خصومه بهذا الجواب المفحوم لا يتعدد عند الموازنة في الاعتراف بحسنتهم كأنما هي جزء من نفسه ما دامت قد نالت استحسانه، ويرفض فكرة الحفاوة به في «جمعية المصباح الخافت» قائلاً: إنه لا يستحق مثل هذه الحفاوة ولا التعريف به للأدباء الغربيين وهو لم يُسْدِ بعد للأدب العربي ما أسداه مثل توماس هاردي بتأليفه «العواهل» (The Dynasts) إلى الأدب الإنجليزي بل إلى عالم الأدب الإنسانية، وهكذا يثبت «أبو شادي» إخلاصه الفني، وجدارة شعره بالعناية والدرس والإجلال.

وصفوة القول أنه ليس بالغنم القليل للأدب العصري أن يظهر فيه شاعر من جب خلاق يتدقق شاعرية ذو عقيدة قوية، وقد شمل شعره السخي مليء بأفانين الجمال وظرف الأدب كل ما وقع تحت بصره، واهتزت له نفسه، وكل ما تاق له وجданه وتخيلته روحه المتسامية؛ فتغنى بالطبيعة، والفضيلة، وبالخير، والإنسانية العالية كما تغنى بحب بلاده، وبزرعها، وضرعها، وبأزهارها، وشمسها ونيلها السعيد، كل ذلك في بيان عذب، وموسيقية ساحرة، وجدة رائعة لا أثر للتقليد فيها، مع غيرة صادقة على تراث أجداده، وفي مقدمته لغته العزيزة التي يرى في خدمتها المتواصلة وفي التقدم بها إكرامها، حينما يقنع الأدعية الصاخبون بال الوقوف بها، وباقتسام فضلات الموتى !!

دراسة «أبي شادي» الشاعر تجمع في الواقع بين دراسة شاعرية قوية متاجحة وشخصية إنسانية ممتازة، وكلتا هما ثائرة الطبع برغم تفاؤلها، واسعة الأفق، عالمية الروح، وإن انتسبت أصلًا إلى هذا الوطن وأخلصت له الحب.

(٢) الجمال الساحر^{١٣}

| | |
|---|--|
| كل حسن كان عنه قاصرا حين لاح الخد نوراً باهرا سطعا للناس صبحاً سافرا جمعا هذا الجمال الساحرا | حسن هذا الخد إن قيس به كم شموس قد خبت أضواؤها فجمال الوجه الأخلاق وقد منطق حلو، وحسن رائع |
|---|--|

هوامش

(١) مما هو جدير بالتنبيه إليه أن من لا يقدرون هذا الشاعر المبتكر الملام — عن تعجل أو سوء فهم منهم — لا يكفيون أنفسهم قليلاً من التأمل الذهني، وينسون أن كل جديد يحتاج إلى أن تألفه النفس قبل أن ينال التقدير الوافي، وهذا خاصة في الفنون كالموسيقى، والشعر، وعندى أن الشاعر الخلاق المطبوع؛ لا يعنيه تقدير الناس إياه بقدر ما يعنيه أن يسمع الملا صوته كيما يؤدي رسالته الروحية الفنية، فلا غرابة إذا كان «أبو شادي» لا يعتبر الشهرة إلا منبراً عالياً فقط، وما أجمل من ترديد أبياته

عن «الإلهام» في هذه المناسبة؛ إذ كأنها لسان حاله أمام المتأملين الجامدين وهو بهذه الأبيات يستنطق رسم المصور الفنان فراجونارد (Fragonard) قال:

كتلفت الإلهام نحو الرانى
إلا على المتأمل الفنان!
للغيب والأحلام في إيمان
يوحى كتاب الفن في العنوان
يستقبل الإعصار دون توان
متوجهًا، متبسماً، في آن
ما غاب عن حس وعن حسبان!
مثلاً لدين عز أو ديان
بصنيعه، بل ما تطاول فان!
وإذا جمال الله في الإنسان!
نطقت بمغلق سره العينان
حزم، وفي علم، وفي إمكان
في قبسنا منه صنوف معانى!
في هذه الدنيا وآية باني!

وتلفت الرانى إلى إلهامه
فتلاقيا في عالم متنوع
كم راعني من وجهه نظراته
وجبينه المتألق الموحي بما
لم أدر أيهما الأجل: أرأسه
وقد انثنى في عزمه غلابة
أم مصدر الوحي العظيم وإن يكن
فكلاهما — لولا أخيه — لما غدا
لولا التجاوب ما تتوج خالق
فإذا الألوهة في ابن آدم أشرقت
ومتى نظرت إلى نوافذ لبه
مسك اليراعة مسكة الخلاق في
والطرس يرتفع البيان كشأننا
ما كان غير الفن معجز حاكم

(٢) انظر قصيده المعروفة «تشاؤمي» في الجزء الأول من «وحى العام» ص ٤٦، وهي التي يستهلها بقوله:

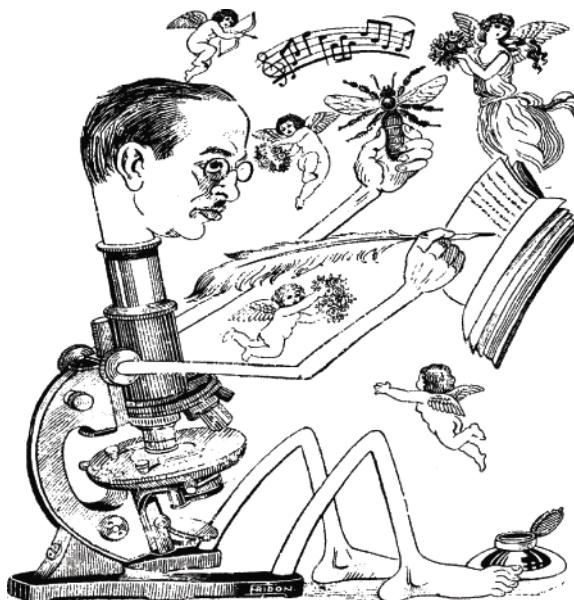
تفاؤل من ينأى عن العَرَضِ الفانِي

تشائمت حتى قد وجدت تشاؤمي

(٣) أليس هو القائل في «وحى العام» ج ١ ص ٧٩:

فلدولة الإتسان عهد ولائي
حبي لها بري بدين إخائي
— إن طاش — مثل الأثرة العمباء
عطف، وإخلاص، وكراه عداء

إن كان للوطن العزيز رعاياتي
لا كان إيماني بمصر إذا نفي
وطني كنفسي، فالغلو بحبه
والموطن الأسمى بدنيا ملؤها



الإلهام

لن يبلغ الإنسان أكمل مجده حتى يعيش لنده كفداء

(٤) انظر ديوانه «الشفق الباكى» ص ١٠٧٩، إذ يقول:

مثـلـ الـجـمـالـ الـمـسـتـعـزـ ثـرـاـهـ
وـمـنـ النـظـافـةـ وـالـنـظـامـ حـلـاـهـ
فـيـ حـسـنـ هـنـدـسـةـ تـزـيدـ غـنـاهـ
فـاتـ السـوـائـمـ، وـاسـطـالـ رـجـاـهـ
وـبـنـوـهـ أـعـوـانـ لـهـ أـشـبـاهـ
حـبـيـ لـمـنـ أـحـيـاـهـ ثـمـ رـعـاهـ

فـيـ مـقـبـلـ الأـعـوـامـ حـيـنـ تـرـاـهـ
وـمـسـنـةـ الجـمـيـزـ تـلـثـ سـطـحـهـ
وـالـمـاءـ مـوـفـورـ لـدـيـهـ مـوزـعـ
وـالـبـائـسـ الـفـلاـحـ غـيرـ سـمـيـهـ
يـحـيـاـ حـيـةـ الـآـدـمـيـ مـنـعـمـاـ
فـهـنـالـكـ اـذـكـرـنـيـ بـرـحـمـةـ ذـاـكـرـ

إنني أعيش ك مجرم في بيئه قتلته ثم أبى عليَّ رثاه!

(قتلته: أبي الفلاح.)

(٥) انظر «الشفق الباكي» ص ٩٢٦؛ إذ نراه واصفاً يوماً في «قطور» موطن أسرته، وفي هذه القصيدة يقول:

اللقلق المتأمل المبرور
جند ترد الدهر حين يجور!
فالهم عن جيراتها محسور!
وتلا أهازيج المنى العصفور!
والفاتن الغاوي بها مسحور!
والنور فاض من الإله شعور
هذا الجمال الشائق المعمور
والماء يضحك حولها ويدور
أصغي، فيسرف بثها الموفور
والبشر في لمحاته منظور!
وأتى يئز حياله الزنبور
برحيقها الصافي الشهي زهور
متهدادياً يبدو عليه غرور!
وكأنني «غندى» أو «تاجور»!
تسري وهذا الكون منه سطور?
تُجلِّى، فينشر سحرها المستور
تجلى، فينشر سحرها المستور
يهفو لها المكلوم والمotor
أو كالحبيب يعود وهو غفور!
وكأنما هو شعرى المنتور
توديع من قدست وهو نفور!
ونشيده متوج مشكور

القرية السمراء نقط طينها
وتلوح أحراج النخيل كأنها
لم ترض غير الصفو يسكن قربها
لا بدع إن عبق الهواء بسکره
فمشيت بين فواتن مبثوثة
ملء الحصى مثل النبات ومائه
وحسدت سائمة يلطف عيشها
وغربطت مأسوراً لساقيه بكت
فجلست في ظل النخيل بقربها
والغرس يشكرها بهزة رأسه
حتى إذا سكنت تمايل لوفها
والنحل تنشد شعرها فتجيبها
والجدج الفرحان يقصد حجره
وأكاد أنسق في التراب ألوهة
لم لا، وأنفاسي بأنفاس الهوى
والريف مرآة «الطبيعة» عندما
والريف مرآة «الطبيعة» عندما
ما أطيب الحال الأصيل برقة
يأتي النسيم به كأشفاق المنى
وأنا السعيد بما أرى وأحسه
حتى أفاجأ بالغروب كأنه
وسمعت عن بعد رواية «شاعر»

فاضت عليه صبابة وسرور
أحسست أنني البائس المأسور

فأتم لي حلماً كأحلام الصبي
وأظل أذكره عياناً كلما

(اللقلق "Stork": طائر مصري مفید ينقی الأرض من الحشرات الضارة
بالمزروعات).
(٦) انظر «وحى العام» ج ١ ص ٢٩، وفيها يقول:

ما القطن إلا من تبسم فيك!
يجني ابتسام الحب دون شريك
في مجد وادي النيل مجد ملك!
أملاً كوعد للصبح وشيك
فيحول في طمي يعز سبيك!

سيري خلال القطن بين تبسم
ودعى الذي يدعوك ربة مصره
إني أبایع بالسيادة من لها
ربت له هم الرجال وأطلعت
وكان رفق الشمس لفظة ثغرها

* * *

كالفن في أيام «منف» تليك!
فلتنزعيه، فنحن نستوحيك!
 وإن احتملت متاعبًا لذويك
للنفع والإصلاح جنب أخيك
جاهدت إشفاقًا على ناسيك

يا وحي «بنتاؤور» لم تزل العلى
ما زلت لابسة الحداد كسيفة
أنت المؤلهة العزيزة بیننا
سيري متوجة بتاج محبة
وإذا تناساك الذين تخاذلوا

إلى آخر هذه القصيدة المصرية الممتعة.

(٧) فهو يقول لنا فيها «وحى العام» ج ١ ص ٤١:

وكان الحقائق في الخيال تضوّع
أو كان غير جمالك الينبوع؟!
فعلى روائق فنها المطبوع
ووفت فكان سناؤك المتبع
داع، ولا صحب النبوع سطوع
وقدّمى على لب الحياة الجوع

بلغ التخييل منك غاية سؤله
هل كان للدنيا سواك رجائها
بنت «الطبيعة» أنت آية فنها
تعبت ملابيin القرون فأبدعت
قسىًّا به لولاك ما حفز النهي
لولاك أعلنت العواطف يتمها

فالأصل أنت وما عداه فروع
وإذا أهنت فعزم ممنوع!
للحسن حين عدوه المصنوع
بالبدر رحب مأوه المسموع
عين وما سفكت لديه دموع
من مائتها اليتبوع فهو زروع
أودعته ألقاً يظل يروع
عقبقاً، كذلك لحظه مرفوع
لللوحي، واستولى عليه خشوع
هي للمحبة نضرة وذيوع
لك – كالحظوظ يفوتها المفجوع
كالتاج زينه سندي وولوع
متجسم، مستأسر، مجموع
أسديته روحاً لديك يضوع!

منذ استمد الملهمون وأثمروا
فيما اعتبرت فإن عصرك سيد
ووقفت عارية فكنت أمينة
في حافة النبع المرحباً مثلما
وعرضت في فتن اثنائك ما اشتهرت
وقلبت جرتك العزيزة فارتوى
أودعته غرساً لظلك مثلما
والنرجس النامي بقربك مفعّمُ
وأرى الجدار قد استحال مباعة
والناميات حياله من خضرة
والماء – وهو يسيل بين أنامل
وأرى يمينك فوق رأسك وحدها
وعرفت أنك أنت نور أو شذاً
هذا هو اليتبوع، لا النبع الذي

(٨) وإلى القارئ هذه القصيدة:

تحيي العليل بلحظ كحيل
وثغر جميـل
وعطف الخليلة نحو الخليـل
برغمـ الزمان

أنت في وفاء الجمال النبيل

* * *

ولكنها أقسمت أن تدوم كزهر كتوم لعطر نؤوم
فطـال الـوجـوم
وعادت تبـدد هـذـي الغـيـوم
بنـور الأمـانـي

* * *

دعتني لأعلن عن سر فني
بشعر التغنى وحلو التمني
ما نم عنني
من الحب في كل نظم أغن
كشعر «ابن هانى»

وشعراً من هواي ابتسامي
ونجوى غرامي - فزادت هيامي
بعذب الكلام
وجادت برأي كنفح المدام
لصبٌ يعاني

دعنتي لأرسمها في نظيمي
بروح وسيم - لفظ سليم
ووصاف كريم
وقالت: «سأجعل هذا نديمي
واي افتنانى!»

أينصف حسنك وهي الخيال افتئاني
وأنت «المثال» وأنت الجلال
وأنت الجمال؟
ألا فانزععي الثوب قبل الدلال
فبحيا افتئاني!

فأزعجها من غرامي سؤالي
كأني المغالى - برسم الجمال
العزيز الممنال
أليس المصور في مثل حالى
بصياد المعانى؟!

* * *

وعادت إلى البشر - بشر الحبيب بجسم رطيب فلاح الأديب
وراح الأريـب
فقبلت «فينوس» شعرًا يطيب
كوقع المثاني!

(أغن: رشيق.)

(٩) وصف الشاعر في هذه القصيدة وقفه الأسد وأنثاه على قمة جبل يربقان:

| | |
|---|--|
| شر العيون الكاشفات وهادا ربطة يضاعفه السكون ودادا مثل القضاء يراقب الآباء! تبع الوجود إلهه منقادا! روع وقد نستملح الأصدادا نور فلاقى الفن فيه مرادا تلقى الخيال مصوّراً إيجادا كالسحر بدل بالحياة جمادا وأحيل أصباغ الحياة مدادا من ذلك الأسد الذي يتفادى كرمًا، وقد يلفى البخيل جوادا! | وقفا على الجبل المنيف وأرسلا وقفوا وقد ربط الوداد كليهما فنشاهد الأسد المهووب مراقبا وبقربه أنثاه تنظر متلما مرأى به الضدان من عطف ومن وقفوا وقوف الفن في ظلل وفي هذا يصد وذاك يجذب حينما والنور يعيث بالمشاعر ساخرا أرنو إلى النقش الدقيق معبرا وأكاد أخشى رغم حسي لفتة وأعد في حلمي سكتهما المدى |
|---|--|

(يتفادى: يتحامى وينزو.)

الشعراء المعاصرون: أبو شادي



الرقيبان الصامتان.



(١٠) هذه القصيدة التصويرية في ذاتها تبيان جميل لمنزلة المرأة عنده، وهي تفيض سلاسة، وعذوبة، وموسيقية بدعة، كما أن دقة التصوير تجسم فيها، شأنه في جميع شعره الوصفي الذي إخال أنه يتأثر بطبيعة مهنته الفنية، وبذنه المتأمل الحساس، وإذا طالبتي بذكر مفتاح شاعرية أبي شادي قلت لك في غير تردد: «الطبيعة والمرأة والإنسانية»، وكأنها وحدة لديه لا تتجزأ، والخطاب لإحداثها خطاب لجموعها، وهكذا تفسر بيته:

إذا تسamt وصانت حسنها الغالي
 وإنما المرأة الدنيا بما جمعت

وإليك قصيده الشائقة في «المتأملة»:

لاقت من الأنغام ملء تأمل
تحمي خشوع الراهب المتبقل
والنور منها يستعز ويجلّي
مثل الحشائش في العزيز من الطبي
منها كأن النبت شبه مكمل
والجزع – إذ لمسته – كالمتهلل
في الحس ترقق حسنها في مأمل
حتى ترى فيرى بحلو تسلسل
فيم التأمل وهي أعدب منه؟!

عزفت عن المزمار واستغنت بما
في عزلة بحمى «الطبيعة» مثلاً
وأبْت سوى النور الثمين دثارها
والسرور تنمية حرارة قربها
ويكلل الرأس النبات بنضرة
وترى الصخور تكاد تنبت تحتها
وترى بعيد من التلال قريبة
والماء مندفعاً هنالك صاخباً
وتظل بين تأمل وتأمل ...

(عزفت عن المزمار: أي أعرضت عنه).

(١١) انظر وهي العام «ج ١ ص ٥٥»، وفي هذه القصيدة يقول:

أصبتـم، فخلونـي إذن ثابتـاً وحدي
خصـيمـاً كـأـنـي شـامـحاً لـسـتـ بالـفـردـ!
فـفـيـ مـبـدـئـيـ عـرـضـيـ وـأـكـرمـ ماـ عـنـديـ
وـبـالـحـسـدـ الـمـشـقـيـ وـبـالـأـلـمـ الـمـرـدـيـ!
وـإـنـ أـنـأـ دـبـتـ الـمـنـافـقـ عـنـ عـمـدـ

عـدـدـتـمـ ثـبـاتـيـ فـيـ يـقـيـنـيـ ضـلـةـ
لـعـمـريـ مـاـ بـالـيـتـ يـوـمـاـ بـجـمـعـكـمـ
وـلـكـنـمـاـ بـالـيـتـ عـمـريـ بـمـبـدـئـيـ
وـأـوـذـيـتـ حـتـىـ قـدـ تـمـتـعـتـ بـالـأـذـىـ
وـلـمـ أـكـثـرـ بـالـغـامـطـيـنـ وـحـرـبـهـمـ

وما كان رجمي ما يثبت من قصدي
وفي تضحياتي ما حملتم من النقد
وما حبها إلا التعالي بلا حد
ولم أر كالتجديد أقرب للجد!
فإن مدح العبد أصلح للعبد!
خطاي وأقضى بعد سد على سدا!
ولا خدم الإبداع مثل ذوي الحقد!
ما ثار نفسي للمأثر من بعدي
ولا أنا مثل القرد يفتن بالقرد!
وهيئات ينبو عن مدار وعن وعد!
وهل كان فقد النجم نوعاً من الفقد?
له أو عزوفاً عن رجاله أو ودي
وأن تنكروا أو تخسوا ما به مجده
بطابعي الفنان في المثل والضد
وإن كان بعض الناس ينعم بالقيد!
من الزهو لكن في نبو عن الغمد
وإما أشـق اللـحد فـي مـوت مـعتـدـاـ!

سبيلي قويم لا ضلال بنهجه
فإن كان لي في جرأتي وصراحتي
 وإن كان حبي للحقيقة سبة
 وإن كان سبقي وابتکاري زلة
 فلا خير لي في مدحكم بسلسل
 وأهلاً بطعني حين أمضى مسدداً
 وما خدم الأحرار مثل خصومهم
 وحسبني أن منتج من حشاشتي
 ولست أحاكـي من شكوا في قبورـهم
 أسير مـسـيرـ النـجـمـ والـرـجـمـ حـولـهـ
 وما فقدـهـ إـلـاـ اـنـدـمـاجـاـ بـصـنـوـهـ
 ولـيـ مـذـهـبـيـ لـاـ أـسـتـطـيـعـ خـيـانـةـ
 وـمـاـ ضـرـنـيـ أـنـ تـجـهـلـواـ مـاـ أـرـدـتـهـ
 فـحـسـبـيـ أـنـيـ طـابـعـ نـهـضـةـ بـدـتـ
 يـسـيرـ بـهـاـ شـعـرـيـ الطـلـيقـ مـحـرـراـ
 وـأـبـيـ مـصـفـ النـاسـ فـيـ غـيـرـ نـشـوـةـ
 فـإـمـاـ أـشـقـ الـكـونـ طـوـغاـ لـمـهـجـتـيـ

(١٢) مثال آخر لشعره الكلاسيكي الديباجة في جملته، الرومانطيقي النزعة، قصيدة الغزلية البديعة «عينان»، وهي — ككل غزله — مرآة صافية لحب نبيل صادق لا أثر للتصنع فيه، ولا يلوثه شيء من غزل المذكور القبيح الذي ما يزال للأسف شائعاً إلى الآن في الشعر العربي، وإليك أبياتها الرقيقة الجذابة:

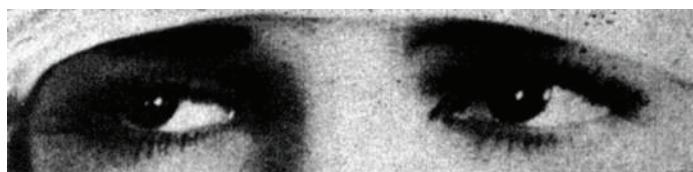
شتى الحظوظ وعزـةـ الـخـلـاقـ
 بهـماـ عـنـ الإـعـجازـ وـالـإـغـراقـ
 لـطـفـ السـذـاجـةـ فـيـ سـنـ الأـحـدـاقـ
 فـازـاهـ قـدـوةـ دـوـلـةـ العـشـاقـ!
 جـذـبـ وـفـيـ بـأـسـ وـفـيـ إـشـفـاقـ

عينان فيما توحيان تمثلت
 غـنـىـ إـلـهـ بـمـاـ تـبـسـمـ مـنـ هـوـيـ
 وـكـأـنـهـ سـبـحـانـهـ فـيـ حـبـهـ
 قد صـاغـ حـسـنـهـماـ نـمـوـنـجـ عـشـقـهـ
 سـحـرـ الـأـلوـهـةـ هـذـهـ النـظـرـاتـ فـيـ

لقيت في شغفي وسوف ألاقي
عمر يجده جميل تلاق؟!
بالقرب حين أئن في استرقاقي
وكأنما أحظى بلذة راق
أشكوا من الأقدار والأرزاق!
كالنبع للأهار والأوراق
إلا على الفنان والمشتاق
في القبس واستجدت مدى الإنفاق
أدرى بآيات الجمال الباقي
وحبيت أنشد ما أباح الساقي
شعر، وما عيشي سوى أشواقي

عمر شقيت به فدائهما لما
لم لا يكون هو الفداء ومنهما
وأحس أني كالمؤمر ناعماً
وأنوقي من هذا النعاس حلاوة
وأكاد من نهمي برغم تمعي
والنور للطل الرفيق وفاؤه
أستلهם الأحلام مما ضنتا
كل البدائع — إن هما رنتا — استوت
وأخص بالعطف الأحب لأنني
حولت أنفاسي نظيم عبادة
حتى غدوات كأن عيشي كله

(فإذا هو: وقد شاع هذا التركيب في لغة العصر، وكذلك نظيره «فاذاك»).
(الراقي: الساحر).



عينان

(١٢) أبيات فارسية طلب إلى المؤلف نظمها بعد أن ترجمت له إلى العربية.

مذكرات عجائب^١

١

هب نشالاً عرف أني أراقبه باهتمام، أليس من المحتمل وقوعه إنه ربما انتهز هذه الفرصة لنشر ما في جيبي من النقود في الحين الذي أنا مشتغل فيه بالاهتمام بمراقبته وعيناي شاختان إليه؟ إذا أقررنا ذلك سهل علينا تفهُّم ما يأتي به العجائب من المدهشات؛ فإنه يبني على هذه النظرية حيله المدهشة.

تعتقد أني أحاول خداعك والعبث بك، فتحدق بي عندما تراني أقف على مسرحي كما هي الحال مع النشال حين تراقبه.

والعجبائي جدير أن يتعرف كثيراً من مميزات وخصائص الناس الضرورية البسيطة، فإن حيلنا يتحتم فيها الفشل؛ إذا لم نعن بدرسك أيها القارئ عنiatنا بدرس صناعتنا وأصطلاحاتنا الفنية.

ولقد يكون مثلاً من أكبر عوامل نجاحنا؛ قدرتنا على توجيه نظرك متى وأنى شئنا، فإذا صحتُ فيك قائلًا: «انظر إلىَّ، ها هو ذا الصندوق فارغاً لا شيء فيه». أو قلت: «تأمل ها أنا ذا ليس في أكمامي شيء البتة!»

فإنما أفعل ذلك لتحصر انتباحك فيهما، بينما آتي بحركات خفيفة لا تراها لانشغالك بهما.

^١ هو «هوديني» الذي يطلق عليه العامة اسم «الحاوي»، وهذه المذكرات كتبها ذلك العجائب الذاع الصيت.

ولو أنك اهتممت بمراقبتي ولم تهتم بمراقبتها مثلاً، لم تتمكن من إدراك حيلتي وفقطت إليها بسهولة.

ولكن تحويل انتباهاك هذه الثوانى القليلة عن مراقبتي وقت أن آمرك بذلك فتليبي أمري هو أكبر عون لي على خداعك.

وقد اشتغلت بهذا الفن أكثر من ثلاثين عاماً، ولا أذكر أنني استطعت - رغم ذلك - أن أغالب عيني عن التحول عن الجهة التي يأمرني العجائبي بالتحول إليها عندما يصبح قائلاً: «انتبه إلى كذا ...»

وذلك تقهر طبيعي لا يمكن مغالبته، ولنفرض أنني أريد الإتيان بحركة خفية فليس يكلفكني ذلك عناً كبيراً في الإتيان بها دون أن تفطن إليها.

وذلك أنني إذا أردت نقل ساعة جيب، أو إخراج بيضة من قبعة، فإني أدق برجلي دقة شديدة تسترعى الأنظار؛ فتحول إلى قدمي، وإذا بدا لي أن مراقبة الحاضرين جدية أشرت إلى مساعدتي بالإتيان بحركة فجائية غير عادية لتحويل الأنظار عنى قليلاً.

وإذا أردت إحضار كرسي، أو طاولة، أو سلة، إلى المسرح دون أن تراها فإني أنتقل إلى الجهة المضادة لها أولاً، وقد علمت من التجاريب أن أعين الناس تتبع العجائبي دائمًا إلا إذا أراد هو أن يحولها عنه إلى جهة أخرى.

كل هذه نظريات سهلة وبسيطة في تحويل الأنظار، وهي - مع ذلك - نافعة ومجدية.

ولكي ندرأ عننا كل شبهة، ونتحامى كل ريبة تحوم حول مساعدينا نجعلهم يتظاهرون بأقصى ما يمكن أن يتظاهروا به من العته والبلهنة، فيسقطون الأشياء من أيديهم، ويتعثرون بالكراسي، ويخطئون - عن عمد - حتى في أبسط الأشياء العاديّة المعروفة بالبداهة، متظاهرين بأن ذلك إنما يحدث عفواً؛ لأننا نود أن تكون لديك عقيدة ثابتة، وفكرة لا تتزعزع عن جهل أولئك المساعدين، والاعتقاد بأنهم عاجزون عن تقديم أية مساعدة لنا على إنجاز حيلنا، بينما هم في - الحقيقة - أكبر عون لنا على إتمام عملنا.

ولقد جلست مرة إلى جانب سيدة من السيدات فرأيتها تظهر أشد الغرابة والدهشة من بلاهة أحد المساعدين وجهله، وأنا معتقد أنه أنشط وأمهر من عرفت في أداء عمله بدقة وإحكام، وقد رأيته ينجذب تسعة عشر العمل حينما عمل الساحر لم يذكر بجانبه؛ لأن الأنظار متوجهة إلى الثاني غافلة عن الأول.

ولقد أتقن المساعد تمثيل دوره حتى لم تتمالك السيدة نفسها من أن تقول: «عجيب! – كيف! – ألم يجد هذا العجائب أحدها يستخدمه غير هذا الغبي الأبله؟!» لشد ما يدهشني أن يُبكي العجائب معه مثل هذا المعتوه!» ولقد هممت بأن أجيبها أن العجائب، بدون هذا المساعد الأبله لا قيمة له.

وكل إخواننا السحرة يعرفون أن الناس لا يهتمون بتحويل أعينهم كثيراً عن المستوى الذي ينظرون إليه، ولذلك السبب يستعملون موائد مصنوعة بطريقة بعينها لتلائم أغراضهم ومقاصدهم، بحيث تكون مرتفعة قليلاً عن مستوى الأنتظار، فيبينما تحسب نفسك ترى كل ما فوقها إذا بك واهم مخدوع.
إذا شئت رؤية ما فوقها فارفع بصرك قليلاً، والأمر الذي يجعلك تغفل هذا أنه يتطلب بعض الجهد.

وليس العجائب وحده هو الذي افرد بمعرفة ما للعين الإنسانية من مميزات وخصوص، بل يشاركه في ذلك أصحاب الحوائيات والتجار؛ فإنهم يعلمون بأن اللوحات التي عليها الأثمان إذا ارتفعت قليلاً عن مستوى النظر؛ فإنها لا تُرى، ولهذا تجدهم يضعونها مائة منحدرة قليلة بحيث تستطيع رؤيتها.

ومن مميزات العين التي قلما يفطن إليها الناس أنها تتطلع إلى الجهة اليمنى أكثر مما تتطلع إلى الجهة اليسرى. وينتفع زملائنا بهذه المميزات كثيراً؛ إذ يجعلون أهم ألعابهم وأصعبها في الجهة اليسرى من المسرح بدلاً من الجهة اليمنى، وبهذه الطريقة يكون من الصعب عليك أن تكشف حيلتنا.

ولو أني كنت تاجراً، أو صاحب حانوت، لوضعت كل ما يستدعي النظر وتسري العين روئيته على الجهة اليمنى للداخل؛ بحيث تغريه برؤيتها عندما يقع نظره عليها. ويسألني الكثيرون لماذا يهتم السحرة بالاستكثار من ضوء المسرح، وبدل همتهم في الحصول على أكبر كمية يمكنهم الحصول عليها من الضوء بحيث يصبح المسرح شديد الضوء، ويحسب أولئك المستفسرون أن ضوء المسرح كلما قل ضوءه أصبح أكثر ملامعة لنا، وقد أوضحت لهم أن كثرة الضوء لا تقتصر فائدتها على إبطال زعم الناس أنهم عاجزون عن رؤية ما في المسرح بوضوح بسبب قلة الضوء، بل تتحطى بذلك إلى مساعدتنا على بهر أنظارهم واغشائهما.

ولعل الكثيرون من الناس يدركون فيما أظن أن تتمتنا هي خير عون لنا على خداعهم، فإننا نكلم أثناء القيام بالحيلة لأن لدينا أمراً مهمّاً نريد أن نلقي به إليك، بل لأننا نريد أن نشغل أنذنك بينما ننتقم حيلتنا.

ولولا ذلك لحضرت كل انتباحك وقواك في حاسة البصر، ففطنت إلى حيلتنا، ولكن أقولنا نقسم انتباهاك، وتضطرك إلى الإلقاء والنظر في آن واحد، فتقاسم قواك حاستان لا حاسة واحدة.

وقد دلتني تجاربي على أنه أسهل على الإنسان أن يخدع النظر من أن يخدع الأذن؛ فإن أكثر الناس يستطيعون أن يضطروا حاسة النظر كما يريدون.

ومن الغريب المدهش في الأفراد أننا نجد من السهل علينا جدًا أن نخدع المتعلمين ونرى خداعهم أيسر من خداع العامة، ويرجع ذلك إلى تعمق العالم في نظرياته العلمية التي درسها لاستنباط فكرة غريبة يخل بها غرابة ما رأه، أما الفرد العادي فإنه لجهله النظريات العلمية تجده يفكر دائمًا تفكيرًا عاديًّا بسيطًا، وقد يهتم بذلك إلى الحقيقة. ولهذا السبب عينه نتحاشى ونجنب عن اللعب أمام الأطفال؛ لأن عقل الطفل يتشكك بمجرد رؤيته شيئاً لا يفهمه فيصعب علينا خداعه.

وبهذه المناسبة أذكر ما حدث لي مع المستر «روزفلت»، فقد كان عائدين معًا من لندن على باخرة واحدة، ولم يكن قد أعلن من قبل عزمه على السفر، ولا عن اسم السفينة التي أزمع أن تقله، ولكنني حين ذهبت لابتياع تذكرة أخبرني الكاتب أن المستر «روزفلت» مرافقي في هذه السياحة؛ فسرني ذلك بالطبع، وعلمت أنهم بلا شك سيدعونني لإظهار بعض مدهشاتي أمامه، فعزمت في هذه المرة على إبداء شيء طريف لهذا السيد.

وكان المستر «روزفلت» قد رسم خريطة وبين فيها اكتشافاته، وأرسلها إلى إحدى الصحف الإنجليزية، وأمر أن تنشر بعد أن تقلع السفينة بثلاثة أيام، ولم يعلم أحد بأمر هذه الخريطة إلا المستر «روزفلت» وشخص واحد، أو شخصان فقط، فاعترضت أخذ صورة منها لأفاجئه بها.

أما كيفية حصولي على نسخة منها فأرجو أن يعييني القارئ من ذكره، وحسبني أن أؤكد له أنني حصلت على نسخة منها بسهولة.

وفي اليوم التالي طلب إلى أن أعرض عليهم بعض الألعاب، وأن أجيب عن بعض الأسئلة، وقد كنت متحققاً من أن بعض الحاضرين سيطلب إلى أن أرسم الخريطة التي فيها اكتشاف المستر روزفلت، ولم يخطئ ظني؛ فقد سألني المستر «تيدى» — والضحك ملء فيه — نفس هذا السؤال، وهو واثق من أنه قد عثر على أمر لن أهتم إلى حله، ولما شرعت في رسماها جحظت عيناه وظهر عليه من الدهشة والاستغراب والعجب ما لم أره على أحد في حياتي قط ثم اندفع إلى قائلًا: «ويلك يا خبيث! ذلك أقصى ما يصل إليه عجائبي من الإغراب والحق!

وأنت حين تأتي بما يعده الناس مستحيلًا تحول إليك أنظارهم، وتشرئب أنعناقهم، ويجلسون وكان على رءوسهم الطير، وهذا هو الأمر الذي يحدوني إلى إظهار حيل متنوعة مثيرة للعواطف كل عام، ولن في هذا العام شأن عظيم في بعض ألعاب مدهشة منها: إخفاء الفيل، وإخفاء الإبرة التي تتبع مائتي إبرة، ومائة قدم من الخيط، ثم إظهار هذا العدد مرة ثانية وفي كل إبرة خيطها.

ويسألني الكثيرون عن إبداع الحيل التي يميل إلى مشاهدتها الجمهور؛ وجوابي أن هذا يتوقف على نوع الحاضرين، فالسيدات مثلاً يرغبن في مفاجأتهن برؤية الأزهار والطيور الجميلة، والأشياء التي يرينهما ويتناولنها يومياً، والرجال — على العكس من ذلك — يحبون لعب الورق وحجرة العذاب الصينية، وأرى أن جميع الحيل التي يشتند فيها الخطر تروق الرجال أكثر مما تروق النساء.

ومن الملاحظات العجيبة أيضاً أن الناس يهتمون برؤبة الأشياء تختفي أكثر مما يدهشون لرؤيتها تظهر ثانية؛ فإنك حين تعيد لهم الأشياء التي أخفيفتها عنهم يتهمنوك بأنك كنت قد خبأتها في مكان لم يفطنوا إليه، أما حين تخفيفها عنهم فإنك تزيد في حيرتهم وإعجابهم، ولهذا تراني أهتم بإخفاء الفيل الضخم الذي يزن عشرة آلاف وخمسين رطل عن أعينهم في بضع ثوانٍ في مضمار نيويورك، أكثر مما اهتم بإعادته ثانية من الهواء.

وإن فكرة إخفاء فيل زنته عشرة آلاف وخمسين رطل هي فكرة مروعة ومحيرة معاً.

وقد قمت بأعمال باهرة في السنوات الأخيرة في مناسبات عدة فأظهرت قدرتي على إنقاذ نفسي بعد أن يشد وثافي.

على أن مثل هذه الحيل تكبدني عناً لا يوصف؛ فقد كنت أوثق في جذع الشجرة وثاقاً محكماً، وتغلب يداي ثم أغمر في الماء بحيث تكون رأسي إلى أسفل؛ فأنجو من تلك القيود الثقيلة المحكمة، وأتخلص من تلك الحال التي أوثقوني بها بحيل عجيبة مدهشة، وفي هذا النوع من الألعاب من الخطير المحقق ما لا يستهان به، وهو أكثرها ملائمة وتسليمة للناس، والناس يأنسون برؤبة الخطير وليس من مأربهم طبعاً أن يرونني قتيلاً؛ ولكن من مأربهم أن يرونني في خطير محقق أحاول النجاة منه، والخطير إذا كان الإنسان بمأمن منه حين يراه يصبح معجباً.

ولو أن قوماً رأوا مصوّراً فوق سطح منزل ذي عشر طبقات لوقف بعضهم ينظر إليه، ولو أن ذلك الرجل نفسه قد زلت قدمه مثلاً وأمسكت إحدى يديه بحافة السطح فأصبح معلقاً في الفضاء لرأيت الجمع يحتشد، والزحام يشتد في أسرع وقت لرؤيه هذا المنظر، ومشاهدة ما فيه من الخطير، وليس يغبط الناس في أمثال هذه المواقف برؤيه سواهم من الناس يهلكون؛ ولكنهم يودون ألا يفوتهم ذلك إذا حدث، ويحبون أن يكونوا في اللحظة التي يحدث فيها، وهذا هو السر في اغتاباط الناس وشدة فررحمهم حين يرونني أبداً في اللعبة المعروفة بحجرة العذاب الصينية التي يعودونها من أمتل حيل؛ لما فيها من الخطر الداهم.

ويرى الحاضرون — قبل شروعي في هذه اللعبة الشاقة — تلك اللعبة الزجاجية الضيقة وهي ملأى بالماء، وفي رجلي ثقل زنته ثلاثة وخمسون رطلاً، وأنا أنغمست فيها بحيث تكون رجلاً في أعلىها ويداي في أسفلها — كما مر — على مرأى من الناس جميعاً، ثم تغلق تلك اللعبة الزجاجية التي تحتويني، والخطر الداهم الحق في هذه اللعبة هو أن هلاكي يتحتم إذا لم أستطع التخلص من تلك القيود والأصفاد وأنجو من هذه اللعبة الزجاجية تواً؛ وذلك هو السر في إيجاد مساعدٍ بحيث يقف بجانب الزجاجة دائمًا حاملاً في يده ملطاً حتى إذا غبت دقيقتين دون أن أخرج اضطر إلى تحطيم الزجاجة وإخراجي في الحال.

وإذا يرى الحاضرون هذا المساعد واقفاً أمام الزجاجة يتحققون من أن هناك خطراً على؛ فينصتون إنصاتاً، ويرهفون آذانهم إرهافاً، ولا يتحركون وكأنما على رءوسهم الطير، ويظلون كذلك حتى يروني أنجو من هذه الزجاجة، ويستغرق ذلك عادة نحو ثلاثين ثانية.

وإن الخطر المحقق بي هو الذي جعل الجمع يحتشد ويكثر عندما يرانني موثقاً مغلولاً أقفز من القنطرة إلى النهر، وخطر هذه اللعبة أياً في أن هلاكي محتمل جداً إذا لم تُفتح لي فرصة النجاة منها، والعودة إلى سطح الماء ثانية وأنا حي.

وأذكر في ذات يوم من أيام الشتاء في بطرسبرج أنني آثرت في نفوس المترجين انزعاجاً حقيقياً، وسببت لهم جلباً وصياحاً ورعباً.

وذلك أنني أغللت وقُيدت كما هي العادة، ثم رُبطت إلى جذع بالحبال والسلسل، وألقيت في فرجة كبيرة قطعواها من مياه النهر المتجمد في ذلك الحين لهذا الغرض، ولما أراد البوليس التدخل لم نمهله ريثما يمنعنا، بل أسرعت بإلقاء نفسي في الماء قبل أن

يقوم بعمل أي شيء ليحول بيدي وبين ذلك، وهنا بدأ الجزء المروع من هذا الفصل؛ فإني بعد أن حلت وثاقتي — دون عناء — حاولت الصعود إلى سطح الماء؛ فوجدتني قد أخطأت تلك الفرجة التي ألقوني فيها، ورأيت أن سمك الثلوج فوقى يبلغ سبع بوصات، وأيقنت حينئذ أنني لا محالة هالك، ولكن إيماني بالنجاة من هذا المأزق طمأننى قليلاً، ولم أنشأ أن أستسلم للهلاك دون أن أبذل كل ما لدي من القوة في مقاومته، فقررت أنفي من الجليد — بقدر استطاعتي — لأنتنسم الهواء، وذكرت أنني قرأت عن رجل نجا من مثل هذا المأزق بأن واصل السباحة على شكل دائرة ضيقة تزيد اتساعها شيئاً فشيئاً في كل مرة عن الأخرى، ففعلت ذلك وانتهيت أخيراً إلى الفرجة التي ألقوني فيها، وظهرت على وجه الماء ثانية بعد أن مكثت تحته ثلاثة دقائق.

وكان جسمي كالكتلة من الثلوج، لشدة ما احتملته من البرد القارس، ولم أتمكن طبعاً من إخفاء ضعفي على المسرح، ولكنني لم أعبأ بذلك؛ فقد كنت في شغل عن ذلك بما رأيته من ابتهاج بسلامتي من ذلك الهلاك، وشكرت — كل الشكر — الله على ذلك. ولا أنسى ما حدث في «ملبورن» بأستراليا؛ فقد كان أغرب وأعجب ما لاقيته في جميع أطوار حياتي، ولقد جاء ستون ألف شخص وراقبوني وأنا أغطس في الماء — في ذلك اليوم — موثقاً إلى جذع شجرة، وشخصت إلى كل عين حين أقيمت نفسي في الماء، ولم يلبث الناس أن رأوا على سطح الماء جسمًا طافياً لا حراك به ولا حياة؛ فتبادر إلى أذهانهم أن ذلك هو جسمي، وقد أخبرني مساعدتي بعد ذلك أن انزعاجهم كان شديداً، وأن الرعب والخوف قد وصلاً بنفوس الحاضرين إلى حد لا يمكن وصفه. وقد أسرع إلى انتشال هذا الجسم سبعة قوارب، وعلا الصياح والجلبة والصخب، وإذا بي قد ظهرت بعثة على وجه الماء، وليس بيدي وبين ذلك الجسم إلا بعض خطوات، ويا لهول ما رأيت! أوكد للقارئ أن انزعاج الحاضرين حين رأوا ذلك الجسم الهاام الذي حسبوه جسمى هو انزعاج — على ما وصل إليه من الشدة — لا يمكن أن يقاس إلى انزعاجي واضطرابي للذين وصلا إلى حد أن أفقداني صوابي فيه، ولم تمر على لحظة، أو لحظتان حتى فقدت الحركة، وكان الحاضرون أيضاً يصخبون ويصرخون كما يفعل المجنون، وأسرع إلى رجال فجذبني إلى السفينة، وأنا مهما عشت ومررت بي عجائب ومروعات فلن أنسى فداحة ذلك الخطب الذي حدث لي يومئذ.

ويسألني الكثيرون من أصدقائي عن أحب الألعاب والحيل التي آتيها، وأنا أجيبهم على ذلك السؤال بأن جميعها حبيب إلى بلا ريب وإلا لما أتيتها، ولكن لعل ما أفرده

بأعظم الحب والشغف الشديد هو هروب من السجون التي يعتقد الناس اعتقاداً جازماً أن الهرب منها محال.

وقد دعيت منذ بضع سنوات إلى الهروب من الحجرة نمرة ٢ الخاصة بالحكم عليهم بالإعدام في سجن «فدرال» بواسنطون، وهي الغرفة التي سجن فيها قاتل الرئيس «جارفيلد»، وقد راهنني الضباط على الفرار منها، ولم أجد صعوبة في ذلك، فخرجت منها تواً، ولكن عنّ لي أن أتفكّر بإتيان بعض الطرف، فذهبت إلى بقية الغرف الأخرى، وتمكنت من فتحها، ووضعت كل سجين في غرفة الآخر.

وكنت مجرداً من ملابسي حتى لا يتدارر إلى ذهن بعض المرتابين أنني أخفي معي بعض العدد والآلات لتساعدني على النجاة، فلما رأني السجناء على هذه الحال حسّبوا أن الشيطان أو أحد أقربائه قد حضر إليهم، فارتعدت فرائصهم من الرعب، ولبوا أمرى على الفور، وكم سخرت بهم حين أتى السجانون لرؤيه مسجونيهم، وتبارد إلى أذهانهم أنهم هربوا من السجن، ولم تهاد ثائرتهم إلا بعد أن ذكرت لهم الحقيقة.

وتقابلت مع اسكتلندي في إنجلترا ذات يوم، وقد أفلح في الفوز على بحيلة لم أفطن لها بعد، وهي تدل على ذكائه ومكره؛ فقد راهنني على أن أخرج من حجرة مغلقة، وحين وضعني فيها قال لي ساخراً: «لا أحسب أنك قادر على الخروج من هذه الغرفة في هذه المرة!» فأجبته أنا أيضاً بابتسمة الهازئ الواثق من نفسه، وشرعت في فتح القفل دائباً نحو ساعتين دون أن أصل إلى أية نتيجة مجده، ولا أحسب أنني في نهايتها قاربت فتحه أكثر مما كنت عند وقت دخولي الغرفة مباشرة!

ولكنني لم أ Yasas، بل واصلت العمل حتى غلبني الإعياء على أمري أخيراً، فاستندت إلى الباب لأستريح قليلاً، وإذا بذلك الاسكتلندي الماكر قد وقف أمامي فجأة وقال إنه لم يغلق الباب بالملفات - كما هي العادة - لعلمه أن أول ما أسعى إليه هو محاولة فتح الباب، وقد أصاب الحقيقة، فإنني لو كنت عالجت الباب نفسه - دون أن أهتم بمعالجة القفل - لخرجت في طرفة عين.

ولا تتوهمن أيها القارئ العزيز لحظة واحدة أن هذه التجارب والنظريات قد وصلت إلى علمي بسهولة؛ فإنني لم أدركها إلا بعد عناء لا يوصف، ولقد طالما وقفت أمام المرأة لأرى نتيجة ما أتيته من الحركات الخفيفة وأثق من النجاح.

وقد تعاملت على عناء تلك الألعاب وأخطارها، فشيئاً رأسي وأصبحت وأنا في السادسة والأربعين أبدو للناظر شيئاً قارب الستين!

هوامش

(١) من أجمل ماقرأناه في تعليل ما يأتيه العجائب من ضروب الحيل قول العلامة «ابن حزم» في كتابه «الملل والنحل» بمناسبة قوله تعالى: ﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سُحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ عند الكلام على السحر، وأنه تخيل لا حقيقة قال:

«ذلك أنهم رأوا صفة حيّات قصار وطوال تضطرب، فسارعوا إلى الظن، وقد روا أنها ذوات حيّات، ولو أمعنا النظر وفتحوا لوقفوا على الحيلة فيها، وأنها ملئت زيفاً ولد فيها تلك الحركات، كما يفعل العجائب الذي يضرب بسكتنه في جسم إنسان فيظن من رآه من لا يدرى حيلته أن السكين غاصت في جسد المضروب، وليس كذلك، بل كان نصاب السكين متقوياً فقط، فغاصت السكين في النصاب، وكإدخاله خيطاً في حلقة خاتم، تمسك طرف الخيط بيد ثم يأخذ العجائب الخاتم الذي فيه الخيط بفيه، وفي ذلك المقام أدخله تحت يده، وكان في فيه خاتم آخر يرى من حضر حلقة الخاتم الذي في فيه، يوهمهم أنه قد أخرجه من الخيط ثم يرد فمه إلى الخيط ويرفع يده وفمه فينظر الخاتم الذي كان فيه الخيط. وكذلك سائر حيلهم، وقد وقفتنا على جميعها.» (ارجع إلى كتاب الملل والنحل لابن حزم ج ٥ ص ٥).

الطيرة والتشاؤم بين المعربي وابن الرومي^١

أبو العلاء متشائم شديد التشاؤم، بل هو من أشد من عرفناهم تشاؤماً، ولكنه – مع تشاؤمه الذي لا يقف عند حد – ليس من جماعة المتطيرين، بل هو أبعد من عرفناهم عن التطير.

وإنما يعني بالتشاؤم ذلك المذهب الذي يسميه الإفرنج "Pessimisme" ونريد أن نسميه بالعربية سخطاً، ونسمى أصحابه ساخطين، وهو مذهب جماعة المتربيين بالعالم، الذين لا يرون فيه إلا شرّاً مستطيراً لا يستطيعون دفعه، ولا أمل لهم في إزالته أو تحسينه، ولا ينظرون إليه إلا بمنظار شديد السواد، وعلى العكس من ذلك مذهب الرضى ويسميه الإفرنج "Optimisme" وهو مذهب من يحسنون الظن بالأيام وينظرون إلى العالم بمنظار رائق ناصح البياض؛ فيرون كل ما فيه يدعوا إلى الغبطة، ويرونه سائراً في طريق التقدم والكمال، وفي هذا مجلبة رضاهم وارتياحهم. وقد أشبع «ماكس نورداو» جماعة الساخطين سخرية وتعنيفاً، ورماهم بنقص في عقولهم في مقاله الذي كتبه عن السخط والرضى "Pessimisme & Optimisme" في كتابه الفلسفي الذي سماه الغرائب "Paradoxes".

أما الطيرة "Bon Augure" ونقيسها الفأل، أو التيمن "Maauvais Augure" فمذهب آخر يختلف في نظرنا عن مذهب السخط والرضى كل الاختلاف، فقد يكون

^١ فصل مختار من شرح رسالة الغفران للمؤلف.

الإنسان ساخطاً أو راضياً ولكنه لا يتطير ولا يتفاعل، وعلى العكس من ذلك، قد يكون من المتطيرين والمتفاثلين، ولكنه – في الوقت نفسه – ساخط على الحياة أو راضٍ عنها. وإنما الطيرة مذهب أساسه ربط الحوادث بغير أسبابها الحقيقية، وتعليق النفس بما لا يفيد، وترقب المناسبات والمصادفات لاستنتاج شيء وهمي لا أساس له من الصحة ولا قيمة له – عند العقلاء – وإنما يدعو إليها – في نظرنا – خفة العقل وعدم اطمئنان القلب. ولعل الإنسان لو رجع إلى نفسه يسائلها في أي ساعتها تميل إلى التعلق بأشباه هذه الخرافات؟ لرأى أن ذلك كثيراً ما يحدث في أوقات الهلع والذعر من جراء مصاب فادح مذهل تملّك على الإنسان قلبه وأطار له وحرمه طمأنينته؛ فجعله كالغريق يتلمس أنفه الأسباب وأقلها غناء لينقذ نفسه من الهلاك. فأما في ساعات اطمئنانه فقلما يأبه لذلك، اللهم إلا إن كان من ذلك النوع الذي أصبح له التطير ديدناً وطبعاً، وهذا غير السخط الذي أساسه سوء الظن، وشدة الحذر، والنقطة على الحياة، والنظر إليها من جانبها الأسود!

انظر إلى تطير الأمين – مثلًا – حين حاصره «طاهر» ولم نكن سمعنا بتطيره من قبل: قال «إبراهيم بن المهدى» وكان حينئذ مع الأمين: «خرج الأمين – ذات ليلة – يريد أن يتفرج من الضيق الذي هو فيه، فصار إلى قصر له بناحية «الخلد»، ثم أرسل إلى فحضرت عنده، فقال: «ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر في السماء وضوئه في الماء على شاطئ دجلة! فهل لك في الشرب؟» فقلت: «شأنك». فشرب رطلاً وسقاني آخر، ثم غنيته ما كنت أعلم أنه يحبه، فقال لي: «ما تقول فيمن يضرب عليك؟» فقلت: «ما أحوجني إليه». فدعا بجارية متقدمة عنده – اسمها «ضعف» – فتطيرتُ من اسمها ونحن في تلك الحال، فقال لها: غنِي بشعر الجعدى:

كليب لعمري كان أكثر ناصراً وأيسر جرماً منك ضرج بالدم

فاشتد ذلك عليه وتطير منه، وقال: «غنِي غير ذلك!» فغنتَ:

«أبكى فراقكم عيني فأرقها إن التفرق للأحباب بگاء
ما زال يعود عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا ورب الدهر عداء

قال لها: «لعنك الله! أما تعرفين من الغناء غير هذا؟»

فقالت: «ما تغنىت إلا ما ظننت أنك تحبه! ثم غنت آخر:

| | |
|---------------------------|----------------------------|
| إن المنايا كثيرة الشرك | أما ورب السكون والحرك |
| دارت نجوم السماء في الفلك | ما اختلف الليل والنهار وما |
| قد زال سلطانه إلى ملك | إلا لنقل السلطان عن ملك |
| ليس بفانٍ ولا بمشترك | وملك ذي العرش دائم أبداً |

فقال لها: «قومي غضب الله عليك ولعنك!»

وكان له قدح من بلور حسن الصنعة، وكان موضوعاً بين يديه؛ فعثرت الجارية به فكسرته، فقال: «ويحك يا إبراهيم! أما ترى ما جاءت هذه الجارية، ثم ما كان من كسر القدر؟ والله ما أظن أمري إلا قد قرب!»

فقلت: «يديم الله ملوك ويعز سلطانك ويكتب عدوك.»

فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتاً: «قضى الأمر الذي فيه تستقيان..»

قال: «يا إبراهيم، أما سمعت ما سمعت؟» قلت: «ما سمعت شيئاً!» — وكنت قد سمعت — قال: «تسمع حسّاً!» فدنوت من الشط فلم أر شيئاً — ثم عاودنا الحديث فعاد الصوت بمثله، فقام من مجلسه مغتماً إلى مجلسه بالمدينة.

قال: «فما مضى إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل.»^۱

فانظر إلى هذه الحكاية المحزنة وتأمل قليلاً، ألسن ترى أن ضعف نفسيهما وحده هو السبب الأكبر في كل هذه الاستنتاجات؟ وتتمثل كل ما حدث في تلك الليلة المروعة قد حدث في ليلة أنس وطرب؛ بل في ليلة عادية — إن شئت — أكانا يهتمان به كل هذا الاهتمام؟

وهذا الروع الذي أحسّه إبراهيم المهدى — حين سمع اسم الجارية «ضعف» — هل كان يحسّ مثله إذا تبدل الموقف وكان انتصاراً وفوزاً؟ أولم تكن الجارية متقدمة عند الأمين؟ فكيف لم يتطرّب باسمها من قبل هذه المرة؟ وهل تحسّبها غنت إلا ما حسبت أن مولاهما يحبه؟ وكم غنته — هي أو غيرها — مثل هذه الأبيات فطرب وانتشى؟ ومن يدرى فربما كان الأمين يميل إلى هذا النوع من الشعر المشجي، وكان هذا الميل مغرياً الجارية على غناء تلك الأبيات؟ وتتمثل الأمين عاقب مسيئاً بالقتل على جرم فرط منه فخامره شيء من الندم — وإنه كذلك — إذ غنته هذه الجارية نفسها هذا البيت بعينه؟

كلب لعمري كان أكثر ناصراً وأيسر جرماً منك ضرج بالدم

ألم يكن فيه حينئذ راحة يتلذ لها فؤاده؟

وتمثل الجارية تغنيه هذا البيت قبل أن يقتل ذلك المساء وهو يفكر في ذلك، أكان يتطير منه إذ ذاك؟ وأي أثر يكون له في نفسه حينئذ من سماعه؟ ألا يكون فيه إغراء بقتل ذاك المساء؟

وتمثل البيتين الآخرين قد غنتهما الجارية – في موقف غرام مثلاً، في ساعة يفكر فيها الأمين في معشوق له – مات ولم ينعم به طويلاً – فكيف يكون أثراها في نفسه؟ وكيف يتمثل قولها: «إن التفرق للأحباب بكاء»؟ ولكن تغيير الموقف فتغيّر المعنى.

واعكس الآية؛ فتمثل الأمين – في مكان المؤمن – وأنه قد أوشك أن ينتصر على أخيه، وأنه قد سمع الأبيات الأخيرة وهو يحاصر مدینته؟ فأي أثر يتركه في نفسه قولها:

ما اختلف الليل والنهار وما
دارت نجوم السماء في الفلك
إلا لنقل السلطان عن ملك
قد زال سلطانه إلى ملك

وهكذا غير الظروف، وتمثل آثار تلك الأبيات في نفسيهما؛ تجدها مختلفة يصل اختلافها إلى مسافة ما بين الضد والضد أحياناً!

ثم ماذا في هذه الجملة التي غمت الأمين: «قضى الأمر الذي فيه تستفتيان»؟! ألم يكن فيها متأنّل حسن – لو شاء؟! ألم يسمعها عقب دعاء له بدام ملكه، وإعزاز سلطانه، وكبت عدوه؟ فإذا قضى هذا الأمر فقد تم له ما أراد! ولكن إخوان هذا الخليقة – كما يقول أبو العلاء – لا يحملون الأشياء الواردة على الحقيقة!

ومن أجمل ما رووه عن التطير والتفاؤل قول الرسول – عليه الصلاة والسلام: «ثلاثة لا يسلم منهن أحد: الطيرة والظن والحسد». قيل له: «فما المخرج منهن يا رسول الله؟» قال: «إذا تطيرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تتحقق، وإذا حسدت فلا تبغ».

إذا أقررنا ذلك سهل علينا أن ندرك كيف كان أبي العلاء ساخطاً ولم يكن متظيراً، أما «ابن الرومي» فربما لم يكن شديد السخط على الحياة، ولكنه كان على – الرغم من ذلك – إماماً من أئمة المتطيّرين، وفي رسالة الغفران ورسالة ابن القارح ما يزيدك اقتتالاً بطيته، وحسبك أن تعلم أنه كان لا يلبس ثيابه إلا بعد أن يتَّعُّذ، فإذا وصل إلى الباب نظر من خلال ثقب المفتاح، فإذا رأى ذلك الأحذب الذي تعودَ مضايقته جالساً، جبن فلم يخرج، وخلع ثيابه ثانية، وقد عرف «ابن الرومي» كيف ينتقم منه، ويثار لنفسه منه، ببيته اللذين وسمه بهما آخر الأبد، وهما قوله:

قصرت أخادعه وغاب قذاله فكأنه متربصُ أن يصفعا
وكانما قد ذاق أول صفعة وأحس ثانية لها فتجمعا

ولابن الرومي – في تطierه – أخبار شتى، منها أن أبي الحسن الأخفش – غلام المبرد – كان كثيراً ما يقرع بابه، فإذا رد عليه ابن الرومي مستفسراً أجابه: «مرة بن حنظلة» فيتظر من ذلك ولا يجر على الخروج بقية يومه، وقد هجاه في ديوانه مرزاً هجاء مؤلماً مقدعاً.

ولما كان هذا المقام لا يحتمل شيئاً من الإسهاب في تفصيل هذه النزعات وتحليلها، والمقارنة بينها، فإننا نكتفي بهذا القدر – على إيجازه – ونشير إلى رأي أبي العلاء في مذهب المتطيّرين والمتفائلين، وتهكمه اللاذع بأصحابه، وسخريته الشديدة منهم، علاوة على ما ترى في هذا الفصل من حججه^٢ الباهرة، وبراهينه القوية التي دلل بها على فساد ذلك المذهب، ثم نتبعها بنخبة مختارة تبين لك نزعة ابن الرومي إلى التطير، وإليك نخبة من كلام أبي العلاء في ذلك، قال:

تروم قياساً للحوادث ضلة
تعرض للطير السوانح زاجراً
أغربانك السحم استقلت مع الضحي
لا تفرحن بفالٍ – إن سمعت به –
فالخطب أفطع من سراء تأملها
آليت لا يدرني بما هو كائن

وتلك أصول ليس يجمعها الحصر
أما لك من عقلٍ – يكفكُ – زاجر؟
سوانح، أم مرت حمائكم الورق؟
ولا تطير إذا ما ناعبْ نعوا
والامر أيسر من أن تضمر الرعبا
متفائل بالأمر أو متظير

فثوا بها وتحمل المتدير
ديك لأهل الدار أبيض أفرق
ما كل ميتٍ – لا أبا لك – يقبر!
فكل ما شاهد الفتى طيره
فأخشي الله من طير الشمال!
وليس بباقي في الليالي هزيرها!
ولا أبكي خليطاً حل تعشاراً
ولا ظننت سهيلًا كان عشاراً^٢
من الناس؟ لا بل في الرجال غباء
فما فيه إلا عشر نجباء!

كالدار صبحها سوى سكانها
زجر الغراب تطيراً ونقيشه
شاهدت قبرة فخفت تطيراً
لا يتطير بناعب أحد
وما طير اليمين بمبهجاتي
وقد سمي المرء «الهزير» تفاولاً
وما أسر لتعشير الغراب أسي
ولا توهمت أنثى الأنجم امرأة
وهل لحق التثريب سكان يثرب
وندو نجبٍ – إن كان ما قيل صادقاً –

وانظر إلى سخريته الدقيقة في قوله:

– من الذهب – اتخذت غشاء رأسى
كمهرمز أو كملُك أولى خراس
وتلك نباهة لي في اندراسي
لركب السفن أن تلقى المراسى

رأني في الكرى رجل كأني
قلنسوةً – خصصت بها – نصارا
فقلت – معبراً: «ذهب ذهابي
أقمت – وكان بعض الحزم يوماً –

وإلى القارئ نخبة مختارة من شعر ابن الرومي تبين متزعه واعتقاده في الطيرة
والفال:

ر وأعلم بأنها عنوان
 واستمع – ثمَّ – ما يقول الزمان!
 ن مبين وللزمان لسانٌ
 بحديث يلوح فيه البيان
 ل مضيئاً بذلك البرهان
 رة، فالنصح مثمن مجانٌ
 يمترى في النذير يا وسنانٌ
 نت لقوم وخبر القرآن

لا تهاون بطيرة أيها النظا
قف – إذا طيرة تلقتك – وانظر
قلما غاب من أمورك عنوا
لا تصدق عن النبيين، إلا
قد أتى عن نبينا حبه الفأ
فدع الهزل والتضاحك بالطير
أتري من يرى البشير بشيراً
خَبَرَ اللَّهُ أَنْ مَشَامَةَ كَا

قاله ذو الجلال والفرقان؟
كنيته لا زاجراً ثعلباً
إذا بدا مقلوبها - أعجباً
وذاك فأل لم يعد معطباً
مثل الصقور استشرفت أربنا
لا كذب الله ولا خيباً
فليتنظر ستة غيبة
 يجعلها الله له ترتبها
أجل من رضوى ومن كبكباً
بين نجوم سبعة فاحتبي
ويؤمن الناس إذا استرهباً

أفزور الحديث تقبل أم ما
وقد تفألت له - زاجراً
إنني تأملت له كنية
يصوغها العكس «أبا سادع»
بل ذاك فأل ضامن سبعة
يأتون من صلب فتى ماجد
وقد أتاه منهم واحد
في مدة تغمرها نعمة
حتى نراه جالساً بينهم
كالبدر وافق الأرض في نوره
يعدي على الدهر إذا ما اعتدى

* * *

فقلت - وما أنا بالعايش:^٦ -
كنيا أبي حسن ثالث!

تفألت والفال لي معجب
«أبو حسن وأبو مثله»

* * *

فما زال مشحوناً على من يصاحب
تجارب ليست مثلهن تجارب
لأصحابه، نحس - على القوم - ثاقب
لفعل شبيه السوء شبهه مقارب
وإياب في الأرض البسيطة جانب
وإن قيل: «كليم» وإن قيل «كاتب»
لعينيه لون السيف، والسيف قاضب
به طيرة أن المنية طالب
فمن طالب مثلهما طار هارب!
إذا تعاطى القول في مذهب^٧
مثل سقيط الدمق الأشهب:
أجنف عن قصد الهوى أنكب»

أحضر أهل الأرض شؤم ابن طالب
وقد جربت منه على «آل مخلد»
أزيرق مشئوم أحيمر قاشر
وهل أشبهه المريخ إلا وفعله
أعوذ - بعز الله - من أن يضمني
شبيه «قدار» بل قدار شبيهه
وهل يتمارى الناس في شؤم كاتب
ويدعى أبوه «طالباً» وكفاكتم
ألا فاهربوا من «طالب» و«ابن طالب»
قل لغراب البين تبأّ له
أو رفع الصوت بشدو له
«اسكت لحاك الله من قائل

واغضض على الكثكث والأثلب
ما لزم الصمت ولم ينعب
عليك يحدوك إلى معطوب
بين غراب البين والأخطب^٨
وأنت في الدنيا من الرتب^٩
فأنت في أوتاده الرسب
 بشعب أهلوه ولم تشعـ^{١٠}

لا تنطقن الدهر في محفـل
أنت غراب خير أحواله
فاترك نعيـباً شؤمه راجع
يا بين أنت البين في عزة
ينتقل الناس وأحوالهم
إذا جلا عن منزل أهلهـ
أنت أثافـيه وآناؤهـ

هوامش

(١) انظر كتاب مصارع الخلفاء (ص ٨٦).

(٢) ارجع إلى رسالة الغفران (ص ٨١).

(٣) يقول: «لا أضمر حزناً إذا سمعت الغراب يصبح عشر صيحات متتابعة، ولا أبكي جمـعاً ذهبـ إلى «تعشار»، ولا أتوهمـ أن «الزهرة» امرأـةـ كما تفعلـ العربـ، ولاـ أنـ «سهيـلاً»ـ كانـ عـشارـاًـ بالـيمـينـ».

(٤) ومن قول ابن الرومي: «الفـلـ لـسانـ الزـمانـ، والـطـيرـةـ عنـوانـ الحـدـثـانـ». قالـ ابنـ رـشـيقـ: «وـكانـ ابنـ الرـومـيـ كـثـيرـ الطـيرـةـ، ربـماـ أـقامـ المـدةـ الطـولـيةـ لـاـ يـتصـرـفـ؛ تـطـيرـاـ بـسوـءـ ماـ يـراـهـ وـيـسمـعـهـ، حتـىـ إـنـ بـعـضـ إـخـوانـهـ مـنـ الـأـمـرـاءـ اـفـتـقـدـهـ، وـأـعـلـمـ بـحـالـهـ فـيـ الطـيرـةـ، فـبـعـثـ إـلـيـهـ خـادـمـاـ اـسـمـهـ إـقـبـالـ لـيـتـفـاعـلـ بـهـ، فـلـمـ أـخـذـ أـهـبـتـهـ لـلـرـكـوبـ، قـالـ لـلـخـادـمـ: «اـنـصـرـفـ إـلـىـ مـوـلـاكـ فـأـنـتـ نـاقـصـ، وـمـنـكـوسـ اـسـمـكـ لـابـقاـ». وـابـنـ الرـومـيـ القـائـلـ: «الفـلـ لـسانـ الزـمانـ وـالـطـيرـةـ عنـوانـ الحـدـثـانـ». وـلـهـ فـيـ اـحـتـجـاجـاتـ وـشـعـرـ كـثـيرـ.

(٥) كانـ ابنـ الرـومـيـ يـحـتـجـ لـلـطـيرـةـ وـيـقـولـ: «إـنـ النـبـيـ ﷺـ يـحبـ الفـلـ وـيـكـرـهـ الطـيرـةـ؛ أـفـتـرـاهـ كـانـ يـتـفـاعـلـ بـالـشـيءـ وـلـاـ يـتـطـيرـ مـنـ ضـدـهـ». وـيـقـولـ: «إـنـ النـبـيـ ﷺـ مـنـ بـرـجلـ وـهـ يـرـحلـ نـاقـةـ وـيـقـولـ: «يـاـ مـلـعونـةـ»ـ فـقـالـ: «لـاـ يـصـحـبـنـاـ مـلـعونـ!ـ وـأـنـ عـلـيـاـ»ـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهــ كـانـ لـاـ يـغـزوـ غـزـوـةـ، وـالـقـمـرـ فـيـ الـعـقـرـبـ!ـ انـظـرـ خـاتـمـةـ الـجـزـءـ الثـالـثـ مـنـ دـيـوانـ ابنـ الرـومـيـ شـرـحـ المؤـلـفـ.

(٦) ولـيـتـ شـعـرـيـ ماـذاـ كانـ يـقـولـ ابنـ الرـومـيـ لـوـ كـانـ عـابـثـ؟

(٧) مـنـ أـبـدـعـ مـاـ قـرـأـنـاهـ فـيـ إـنـصـافـ الغـرـابـ وـتـبـرـئـتـهـ مـنـ تـهـمـهـ التـفـرـيقـ، قـولـ بـعـضـ الشـعـراءـ:

ب البين لما جهلوا
ناقة أو جمل
ب البين تطوى الرحـل!

والناس يلحوـن غرا
وهل غراب البين إلا
وما على ظهر غرا

(٨) الصرد.

(٩) جمع راتب وهو الثابت.

(١٠) والقصيدة طويلة يمكن الرجوع إليها في ديوان ابن الرومي «في ص ٤٨٤».

ج ٣».

الدين في إسبانيا

(١) الإسلام في الأندلس^١

لم يكن العرب ليكونوا الأقلية الصغيرة من مسلمي إسبانيا فحسب،^٢ بل كانوا — إلى ذلك — يظهرون عدم مبالاتهم بالدين، واحتقارهم لقوانين الإسلام، مما هو منتظر من رجال تشعروا بتقاليد البدو، وكانوا في كل أيامهم على اتصال بأموبي دمشق الدينيين، وعلى النقيض من ذلك كانت الحال مع البرابرة، ومع مؤمني إسبانيا المسلمين بالصابئين، أو المولدين، الذين يعيشون كموالٍ في كنف أشراف العرب، فقد استمسكت تلك الطوائف بالدين الذي اتبعته استمساكاً يتناسب مع مزاجها السوداوي الحار، الذي كانت تتميز به دائماً، وثم ساد بين مسلمي إسبانيا إيمان صارم، يتمثل في يحيى بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٩ م، وهو أحد البرابرة ونموذج صادق لهذا الصنف.

يحيى بن يحيى

سافر إلى الشرق وسنه وقته ثمان وعشرون سنة، وتلقى العلم على يد أستاذه مالك بن أنس الذي أملأ عليه كتابه المعروف بالموطأ، وحدث أن كان يحيى ذات يوم في إحدى دروس مالك، ومعه عدد من الطلاب رفقائه، فقال قائل: «حضر الفيل!» فأسرعوا جميعاً إلى رؤيته، ولم يتحرك يحيى من مكانه، فسأل مالك: «لِمَ لم تذهب لتراه وليس في إسبانيا مثل هذا الحيوان؟» فأجابه يحيى: «لقد تركت بلادي لأراك وألتقي عنك الدروس، ولم آتِ هنا لرؤيه الفيل». فسرّ مالك هذا الجواب، وقال عنه إنه عاقل إسبانيا. ولما عاد يحيى إلى إسبانيا، بذل كل ما في وسعه لنشر تعاليم مذهب سيده. ولئن كان يحيى هذا قد أصر بسبب تورعه ونسكه على رفض أي منصب من المناصب العامة؛ فقد عظم تأثيره رغم

ذلك، وذاع صيته إلى حد أن وصل — كما يقول ابن حزم — إلى أنه كان لا يولي قاضٍ في الأندلس إلا بعد أن يؤخذ رأي يحيى فيه، وإنلا بعد أن يبين من يفضله على سواه من الناس.^٢

وعلى ذلك فقد أصبح مذهب مالك يلي الحديث مباشرة في اتخاذه شرعاً للبلاد. قال عالم من كتاب القرن العاشر: «لقد كان الإسبانيون لا يعرفون إلا القرآن والموطأ، فكانوا إذا وجدوا تابعاً من أتباع مذهب أبي حنيفة أو الشافعى طردوه من إسبانيا، والويل من يصادفونه من المعتزلة أو الشيعة، أو من أية طائفة تتبع إلى مذهب ما، فإنهم كثيراً ما كانوا يخدمون أنفاسه». وقد كان علماء الدين الإسلامي متغطرسين مفرطين في التعصب الأعمى، والطمع في إحراز القوة، فلم يشاءوا أن يرأسهم أحد في المملكة، فأماماً في زمن هشام (٧٩٦-٧٨٨) — خلف عبد الرحمن — فقد رأوه أميراً وفق ما يتمنون، إذ كانت تقواه وورعه مما لا يدع لهم مجالاً للكلام، وكان على شاكلتهم فاهتم بشئونهم. وأما الحكم (٨٢٢-٨٩٦) فقد كان أقل منه مراعاة لهم. نعم إنه أكرم رجال الدين وبجلهم، ولكنه أراهم في الوقت نفسه أنه لن يسمح لهم بالتدخل في الشؤون السياسية مطلقاً؛ فنقموا عليه — وعلى رأسهم يحيى بن يحيى الشرس — وأجابوه بالتهديد والإهانات، واستثاروا جمهور قرطبة، ولا سيما الصابئين — وكانوا في الجزء الجنوبي من المدينة وهو المسمي بالربض — ليقوموا في وجه ذلك الظالم وجنوبي السفهاء، وفي ذات يوم من أيام رمضان (١٩٨هـ) (مايو سنة ٨١٤) وجد الحكم نفسه وقد أقصيت عنه حاشيته وحاصره الغوغاء الصابئون في قصره، ولكن شجاعته لم تفارقه، وقد أنجاه من مأزقه الخطير الذي كان فيه، ببرودته وإسراع جيشه المدرب لإنقاذه. وكان نصيب تلك الضاحية الثائرة أن دكها دكّاً، ونفي من سلم من القتل من أهلها إلى بلاد بعيدة، وبلغ عددهم نحو ستين ألف نسمة، والحق أن المجرمين الأصليين لم يقعوا تحت طائلة العقاب.

ثم كفَ الحكم عن اضطهاد رجال الدين الحانقين الذين شعروا بأنهم يستطيعون أن يصلوا منه باللين إلى ما أخفقوا في الحصول عليه بالقوة، وإن كان أغلبهم من العرب أو البربر، فقد بثوا الدعوة الشديدة في الناس لاحترام الحكم، فأعاد إليهم قوتهم في الحال.

وفي زمن عبد الرحمن الثاني (٨٢٢-٨٥٢) أدار دفة السياسة الملية يحيى بن يحيى زعيم الثورة بنفسه، وتولى توزيع مناصب القضاء كما أراد.»^٣

هذا هو الجزء الذي تناول فيه الأستاذ نيكلسون الكلام عن الإسلام في إسبانيا، ولماً كان لا تستطيع مناقشته في كل ما قاله، لكتلة الأفراط الأخرى التي تزيد الكلام عنها، فإننا نكتفي بمناقشة أهم تلك النقط الآن، وحسبنا أن نلقي بنظرية سريعة على ما قاله: فأماماً أسلوبه فهو دائمًا لا يتغير؛ أسلوب موجز حافل بالمعاني كما رأيتم، وكما ترون في كل ما نقله لكم عنه، وأما النتائج التي نخرج بها من هذه القطعة فإننا نسوقها ممزوجة بآراء غيره من المؤرخين، مع إبداء ملاحظاتنا على أهمها إيجازاً للكلام، فنقول: يتبيّن لنا مما مر ما يلي:

أولاً: قوة نفوذ الفقهاء وهيمنته التامة على عقول العامة.

ثانياً: رغبتهم الشديدة في الاستئثار بكل شيء، والتدخل في كل أمور المملكة تقريباً.

ثالثاً: شدة تشبع الناس بالعقيدة الدينية، وشدة انتصارهم لها، إلى حد أنهم كانوا يحاربون كل من يُغضّب رجال الدين أو يعتدي عليهم.

رابعاً: معرفة الفقهاء كيف يستثمرون ذلك النفوذ الديني العظيم، وكيف ينتهزون فرصة تشبع الجمهور بالعقيدة الدينية، وتفانيه في حمايتها، في إنقاذ ما تسوله لهم نفوسهم من الرغبات، وفي تحويله إلى حيث شاءت لهم أهواؤهم، وقد شاهدتم كيف أنهم استطاعوا أن يهددوا السلطان نفسه.

خامساً: أن مسألة الدين في الأندلس كانت غيرها في الشرق، بل إنهم كانتا على النقيض، فبينما كنت ترى المذاهب العديدة والنحل المختلفة سائدةً في المشرق، إذ تشاهد عكس ذلك تماماً في الأندلس، فلم تكن لترى هنا إلا مذهبًا واحدًا قد هيمن على كل أهلها تقريباً، ذلك هو المذهب السنوي الذي لم يشد عنه إلا بعض أفراد غاية في الندرة، ومن مالوا إلى مذهب المعزلة والظاهرية.

سادساً: أن تعصب الناس لمذهب مالك ومغالاتهم في الانتصار له قد وصل إلى حد الجنون، فقدرأيتم أن افتانهم بهذا المذهب وتهوّسهم في الولوغ بكتاب الموطأ، وصلا بهم - كما يقول ذلك العالم الذي استشهد به نيكلسون - إلى حد أنهم كانوا لا يعرفون إلا القرآن والموطأ، بل لقد بلغ جنونهم بالموطأ أكثر من ذلك، فقد حكى لنا بعض المؤرخين أن تعصبهم للموطأ أنساهم النظر في القرآن والأحاديث.

فأما عن النقط الأربع الأولى فلا أدل عليها مما سرده نيكلسون عن «الحكم» هذا، وعن موقفه إزاء الفقهاء؛ فقدرأيتم من حكايته جرأة الفقهاء في استعمال نفوذهم على

العامة بإغرائهم إياهم حتى على مهاجمة قصر الملك، ومحاولة قتله، وقد كانوا يفعلون لولا حسن حظه، ولو لا أن أغاثه جنوده الذين داهموهم، وشتبوا شملهم. ولعل أول ما يسترعي النظر في هذه الحكاية – التي سردها عن الحكم – هو قوله عنه: «وقد أنجاه من مأزقه الحرج الذي كان فيه ببرودته وجيشه المدرب». والحق أن الحكم قد بلغ من رزانته، وثبتت جأشه في هذا المأزق، أن داعب خادمه بتلك الجملة التي سقناها لكم في محاضرتنا السابقة، فقد أمره أن يأتيه بزجاجة الغالية ليتطيب بها وقت أن كان الجمهور يحاصر قصره ويحاول اغتياله، فلما أبطأ الخادم أعاد عليه السؤال ثانية، فقال له خادمه: «يا سيدي أهذا وقت الغالية؟» فأجابه: «وilyك يا ابن الفاعلة! بم يُعرف رأسى من رءوس العامة إذا قُطع، إن لم يكن مضمّناً بالغالية؟» ولقد سمعنا حكايات عديدة عن رزانة بعض الناس، وعن ثبات جأشهم وببرودتهم في ساعة الخطر الميت، فلم نر – فيما رأيناه – مداعبةً أغرب من هذه المداعبة، ولا رباطةً جأش وصلت إلى أكثر من هذا الحد. شاهدتم شدة ازدياد نفوذ الفقهاء في ذلك العصر، ولكن لا يفوتنا أن نقول إن هذا النفوذ العظيم الذي شاهدتموه لم يكن ليقاس بما وصل إليه نفوذهم وسلطانهم في الأندلس – وقت انحطاط الدولة وتقهقرها – فلقد كان نفوذهم يتعاظم كلما ازدادت الدولة في الانحطاط، وقد كان ذلك أكبر مساعد على توالي انحطاط الدولة وتقهقرها. ولقد كانت وطأة التبعض للدين والانتصار للعقيدة تخف حين يقبض على ناصية الدولة ملك قوي؛ كالحكم الثاني مثلًا الذي استطاع حماية الفلسفه ورجال العلم وأحرار المفكرين من عن特 العامة والمتنفعين في الدين – كما سترون ذلك في حينه – فسترون أنه أطلق حرية التفكير للناس، وأن العلوم قد وصلت في عصره إلى أقصى مدى، وأن الآداب أزهرت، وأن حرية الفكر وصلت إلى حد عظيم جدًا، وأنه أخذ يناصر المفكرين، وأن الحرية الدينية لم تصل في عصر ما إلى مثل ما وصلت إليه في زمانه، سترون كل ذلك في حينه، ولكنكم سترون أيضًا أن الحرية الدينية – رغم ما وصلت إليه في ذلك الزمن – لم تصل حتى في عهد هذا الملك العظيم إلى ما وصلت إليه في عهد الأمون الخليفة العباسي. بقي علينا أن نتكلم عن النقطتين الخامسة والسادسة فنقول: «إن وصول المذهب المالكي إلى حد أن أنساهم القرآن نفسه، وإلى حد أنهم كانوا لا يطيقون رؤية أي مذهب آخر، وإلى حد أنهم كانوا يطردون أي مذهبٍ بسواء، وإلى حد أنهم أحرقوا كتب الغزالي حين وصلت الأندلس – كما سترون فيما بعد – وإلى حد أنهم كانوا لا يطيقون النظر في كتاب فلسفة!» نقول: «إن وصول المذهب المالكي إلى هذا الحد، كان بلا شك نذير سوء

بما سنسمعه من المدهشات والغرائب التي حصلت وقت انحطاط الدولة، وسنورد أهمها في حينه.

قلنا إن العقيدة الدينية تمكنت من نفوس المسلمين في إسبانيا، وإن الفقهاء تعهدوا غراسها وإنمائها وفق ما يشتهون، وإنهم أولوا النصوص الدينية والآي القرآنية على حسب رغباتهم، فماذا نشأ عن ذلك؟ نشاً عن ذلك أن الجمهوـر — فيما بعد — وقف عقبة كأدء في سبيل كل من حاول البحث بحرية فـكر، فـكان لا يتردد في رجم كل من سمع عنه الاشتغال بعلوم الفلسفة متى رأى ما ينكره عليهـ، بل لقد وصل نفوذ الفقهاء وسيطرة العامة إلى حد أنـ كانـ الملـكـ إذاـ حـاولـ اـسـترـضـاءـ الرـعـيـةـ تـقـدـمـ إـلـىـ وـاـحـدـ مـنـ مشـهـوريـ الفـقـهـاءـ وـفـوـضـ إـلـيـهـ الـأـمـرـ فيـ حـرـقـ كـلـ مـاـ يـرـاهـ فيـ مـكـتـبـتـهـ مـنـهـ،ـ يـفـعـلـ ذـلـكـ بـعـدـ أـنـ يـكـوـنـ قدـ اـحـتـاطـ وـوـضـعـ أـهـمـهـاـ فيـ مـكـانـ لـاـ يـهـتـدـيـ إـلـيـهـ الفـقـيـهـ،ـ وـكـانـ الجـمـهـوـرـ يـحـارـبـ الـأـرـاءـ الـحـرـةـ مـنـ غـيرـ أـنـ يـفـهـمـ شـيـئـاـ عـنـ حـقـيقـتـهـ،ـ وـآـيـةـ ذـلـكـ أـنـ كـانـ يـخـلـطـ الـفـلـسـفـةـ بـالـتـنـجـيمـ،ـ فـكـانـ يـطـلـقـ عـلـىـ كـلـ مـنـ حـاـولـ بـحـثـ بـحـرـيـةـ فـكـرـ،ـ اـسـمـ الـمـشـتـغلـ بـالـفـلـسـفـةـ وـالـتـنـجـيمـ،ـ وـكـانـ الـفـقـهـاءـ يـحـارـبـونـ الـأـرـاءـ الـحـرـةـ وـالـمـذاـهـبـ الـفـلـسـفـيـةـ لـأـسـبـابـ عـدـيـدةـ،ـ قـدـ يـكـوـنـ أـهـمـهـاـ أـنـ أـغـلـبـهـمـ كـانـ يـخـشـىـ عـلـىـ نـفـوـذـهـ إـذـ اـنـطـلـقـتـ الـأـفـكـارـ مـنـ عـقـالـهـاـ وـتـحرـرـتـ الـعـقـولـ مـنـ رـبـقـةـ التـقـلـيدـ،ـ وـإـذـ كـانـوـاـ قـدـ اـسـتـمـدـوـ ذـلـكـ نـفـوـذـ الـعـظـيمـ مـنـ سـيـطـرـتـهـ الـدـينـيـةـ؛ـ فـقـدـ أـيـقـنـوـاـ أـنـ سـلـطـانـهـمـ الـدـينـيـ باـقـ عـلـىـ الـجـمـهـوـرـ مـاـ دـامـ جـاهـلاـ،ـ وـعـرـفـوـاـ أـنـ إـذـ اـسـتـنـارـ أـدـرـكـ مـاـ فيـ أـقـوـالـهـمـ مـنـ التـنـاقـضـ وـالـإـغـرـاقـ،ـ وـفـيـ ذـلـكـ الـقـضـاءـ عـلـىـ نـفـوـذـهـمـ،ـ وـكـانـهـمـ كـانـوـاـ يـرـوـنـ رـأـيـ أـبـيـ الـعـلـاءـ فـيـ قـوـلـهـ:

الـدـينـ مـتـجـرـ مـيـتـ فـلـذـاكـ لـاـ تـلـقـاهـ فـيـ الـأـحـيـاءـ إـلـاـ كـاسـدـاـ

وـقـدـ يـكـوـنـ الدـافـعـ شـيـئـاـ آـخـرـ؛ـ هـوـ جـمـودـ بـعـضـهـمـ عـلـىـ فـكـرـةـ وـاحـدـةـ،ـ وـعـدـمـ قـدـرـتـهـ عـلـىـ التـمـشـيـ مـعـ الـأـرـاءـ الـحـرـةـ لـقـصـرـ مـدارـكـهـ،ـ كـمـ أـنـهـ قـدـ يـكـوـنـ نـاشـئـاـ عـنـ سـوـءـ نـيـةـ الـكـثـيـرـيـنـ مـنـهـمـ وـأـنـانـيـهـمـ وـجـنـونـهـمـ بـالـسـيـطـرـةـ،ـ لـكـنـنـاـ مـعـ ذـلـكـ جـدـيـرـوـنـ أـنـ لـاـ نـنسـىـ أـنـ بـعـضـهـمـ يـفـعـلـ ذـلـكـ عـنـ إـخـلـاـصـ مـحـضـ؛ـ لـاعـتـقادـهـ أـنـ اـنـتـشـارـ الـفـلـسـفـةـ وـحـرـيـةـ الـفـكـرـ بـيـنـ الـجـمـاهـيرـ أـكـبـرـ بـاعـثـ عـلـىـ السـيـرـ بـهـمـ فـيـ طـرـيـقـ الـإـلـحـادـ وـالـزـنـدـقـةـ وـزـلـزلـةـ الـعـقـيـدـةـ،ـ فـكـانـ ذـلـكـ يـعـتـقـدـ أـنـ التـضـيـيقـ عـلـىـ الـأـرـاءـ الـحـرـةـ خـيـرـ مـعـوـنـ عـلـىـ بـقـاءـ الـدـينـ ثـابـتـ الدـعـائـمـ،ـ آـمـنـاـ مـنـ تـطـرـقـ الشـكـ إـلـىـ نـفـوـذـ عـامـةـ النـاسـ.ـ وـمـهـمـاـ يـكـنـ مـنـ أـمـرـ فـقـدـ أـدـىـ ذـلـكـ التـضـيـيقـ إـلـىـ عـكـسـ الـغـرـضـ الـأـسـاسـيـ مـنـهـ،ـ فـقـدـ حـبـ الـفـلـسـفـةـ إـلـىـ نـفـوـذـ الـكـثـيـرـيـنـ،ـ وـزـادـهـمـ هـيـاـمـاـ بـهـاـ،ـ كـمـ

كانت الحال في البلاد الشرقية. وإذا رأينا أكثر ملوك الأندلس يخشون نفوذ الفقهاء، ويتهبّيون سطوتهم، ويبذلون جهدهم في نشر العلم، ويشجعون حرية الفكر سرّاً، لأنهم لم يجرؤوا على مخالفة إرادة الفقهاء، وإذا شكا العلماء وال فلاسفة والملوك شدة بأس الفقهاء في أوائل الدولة، فقد انقلب الحال في أواخرها تقرّباً، وأصبحنا نرى في الملوك أنفسهم من هو على رأي الفقهاء المتنطعين في التضييق على الفلسفه، وستتبينون ذلك من القطعة التالية. ° وهي: «قام بأمره (بأمر الملك) من بعده، ابنه علي بن يوسف بن تاشفين، وتلّقَّب بلقب أمير المسلمين، وسمى أصحابه المرابطين، وجرى على سنن أبيه في الجهاد، وكان — إلى أن يعد في الزهاد والمتبّلين — أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلّبين، واشتدى إيثاره لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمراً في مملكته دون مشاوره الفقهاء، فكان إذا ولّ أحداً من قضااته كان فيما يعهد إليه أن لا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء؛ فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس. ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم — صغيرها وكبيرها — موقوفة عليهم طول مدتھ؛ فعظم أمر الفقهاء — كما ذكرنا — وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت بذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم، وفي ذلك يقول أبو جعفر المعروف بالبني الأندلسي:

أهل الرياء لبستم ناموسكم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك

ولم يكن يقرب من أمير المؤمنين، ويحظى عنده إلا من علم الفروع — أعني فروع مذهب مالك — فنفقت في ذلك الزمان كتب الذهب، وعمل بمقتضاه، ونبذ ما سواها، وكثُر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسوله ﷺ فلم يكن من مشاهير أهل هذا الزمان من يعتني بهما كل الاعتناء، ودان أهل ذلك الزمان بتکفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقييح علم الكلام، وكراهة السلف له وهرجهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقيدة، وأشباه لهذه الأقوال، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتتوعد من وجد عنده شيء من كتبه، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي — رحمة

الله — المغرب، أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقديم بالوعيد — من سفك الدم واستئصال المال — إلى من وجد عنده شيء منها. ^{١٠٦}

نكتفي الآن بسرد تلك القطعة في هذه الإلماماة الموجزة، من غير أن نعلق عليها بشيء من عندنا، ففيها وحدها تتبينون صورة واضحة للحال الدينية في عصر من عصور الدولة.

شيء من الآثار الفعلية للعقيدة الدينية

ولا يفوتنا بعد كل ما ذكرناه أن نبين لحضراتكم أثراً فعلياً واضحاً من آثار تمكّن العقيدة في نفوس أصحابها، متى وجدت محركاً قادراً على تصريفها، واستفزاز العاطفة الدينية فيها، فإن إلقاء نظرة سريعة على قصيدة أبي إسحق الفقيه، ورؤيه أثراها العظيم الذي أحدثته في نفوس الجمورو، ليكفي وحده في إثبات ذلك، وأنكم لترون فيها مبلغ التحمس الديني العظيم، وكيف أنها كانت السبب في القضاء على ما يربو على أربعين ألف يهودي، ونهب أموالهم، وتدمير منازلهم، وكانت السبب في حدوث تلك المذبحة الهائلة في القرن الخامس الهجري سنة ٥٩.

وقد دعا صاحبها إلى قولها أن يوسف بن نزلة اليهودي الوزير^٧ وشى بأبي إسحق قائل هذه القصيدة؛ فأقصاه السلطان عن بلاده — قالوا — وكان ذلك الوزير قد تعرض لتسفيه بعض الآراء الدينية الإسلامية، وكان عظيم الخطر واسع النفوذ، فوجد أبو إسحق من ذلك حافزاً إلى إنشاء تلك القصيدة البليغة التي سنتلو على حضراتكم أحسن ما فيها، والتي دفعه إلى قولها غيظه من عدوه — ذلك الوزير الخطير — فملأها تحريضاً وأفعماها حججاً وبراهين، أفلح في التأثير بها على العامة، وحملهم على إنفاذ رغباته، وما زال يتفنن في ضروب الاحتاث والتسييج حتى اشتعل الجمهور الساذج حماسة، وهجم على ذلك الوزير فقتله في قصر السلطان نفسه. وليس من شك في أن أبي إسحق بذلك كل مواهبه في الضرب على النغمة الدينية، وإظهار التفجع الشديد على ما انتاب الدين من التهاؤن به، وعرف كيف يوالي فيها اطراد الأدلة واتساقها، وتدفق المعاني وغزارتها مع دقة عجيبة في التعبير عن أغراضه وخوالجه بكلام فخم يتطاير حماسة ويتأجج ناراً، وشعر صارخ:

خارج من قلب قائله مثلما يزفر بركان

وبهذا استطاع أن يوهم سامعيها أن قتل أولئك اليهود — خصومه — فرض لا مناص من أدائه، وواجب حتم لا يصح السكوت عنه، وأنهم، إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى، فهم خلائقون أن يتداركوه في الحال؛ حتى لا تصيب عليهم لعنة الله، أو يتحقق بهم غضبه فيخسف بهم الأرض، أو ينزل عليهم السماء، وكذلك لم يترك ناظمتها وسيلة من الوسائل التي تستفز أخفى العواطف الدينية الكامنة إلا استخدامها، ولا نغمة من نغمات التعصب للعقيدة الدينية إلا ضرب على وثيرتها. كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل — لسهولته — إلى حد الركاكة في بعض الأبيات، مع أنه من أجمل الشعر وأبدعه، وإن شئت فقل وأروعه، وإليكم هذه القصيدة الفريدة في بابها:

| | |
|----------------------------|-----------------------|
| بدور الزمان وأسد العرين | ألا قل لصنهاجة أجمعين |
| يعد النصيحة زلفي ودين | مقالة ذي مقاً مشفق |
| تقر بها أعين الشامتين | لقد ذل سيدكم ذلة |
| ولو شاء كان من المؤمنين | تخير كاتبه كافراً |
| وتابوا، وكانوا من الأرذلين | فعز اليهود به وانتخوا |

ومنها:

| | |
|---------------------------------------|------------------------|
| لأرذل قرد من المشركين | فكم مسلم راغب راهب |
| ولكن منا يقوم المعين | وما كان ذلك من سعيهم |
| من القادة الخيرة المتقين ^٨ | فهلا اقتدى فيهم بالآلى |
| وردهم أسفل السافلين | وأنزلهم حيث يستأهلون |
| ولم يستطيلوا على الصالحين | فلم يستخفوا بأعلامنا |

ومنها يخاطب السلطان:

| | |
|----------------------------|------------------------|
| تصيب بظنك نفس اليقين | أباديس! أنت امرؤ حاذق |
| وفي الأرض تضرب منها القرون | فكيف خفى عنك ما يعبثون |
| وقد بغضوك إلى العالمين | وكيف تحب فراح الزنا |
| إذا كنت تبني وهم يهدمون | وكيف يتم لك المرتقى |

وكيف استنمت إلى فاسق وقارنته وهو بئس القررين؟

ومنها:

فكنت أرَاهُمْ بِهَا عَابِشِينَ
وَإِنِّي حَلَّتْ بِغَرْنَاطَةِ
فَمِنْهُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ لَعِينَ
وَقَدْ قَسَمُوهَا وَأَعْمَالَهَا

ومنها:

وَكَيْفَ يَكُونُ أَمِينًا خَوْنَ؟
وَهُمْ أَمْنَاكُمْ عَلَى سَرْكَمِ
فَيَقْصِي وَيَدِنُونَ إِذْ يَأْكُلُونَ
وَيَأْكُلُ غَيْرَهُمْ دَرْهَمًا
فَمَا يَمْنَعُونَ وَمَا يَنْكِرُونَ
وَقَدْ نَاهَضُوكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ

ومنها:

وَأَجْرَى إِلَيْهَا نَمِيرَ الْعَيْوَنِ
وَرَخْمَ قَرْدَهْمَ دَارَهِ
وَنَحْنُ – عَلَى بَابِهِ – قَائِمُونَ
وَصَارَتْ حَوَائِجُنَا عَنْهُ
فَإِنَا إِلَى رَبِّنَا رَاجِعُونَ.^{١٠}
وَيَضْحِكُ مَنَا وَمَنْ دِينَنَا

(٢) المسيحية في الأندلس^{١١}

«بعد الفتح الإسلامي دان كثير من المسيحيين بدين الفاتحين، حفزتهم إلى هذا المنافع من جهة، واقتناعهم بأن الدين الإسلامي هو الدين الحق من جهة أخرى. فقد جددوا فلسفتهم في نظرية الصراع: يعتقدون أنه حيث تكون القوة يكون الحق، ويقولون للكهنة: «لو كانت المسيحية حقاً فلماذا أسلم الله بلادنا – وهي مسيحية – لشيعةنبي كاذب، وقد زعمتم أنه أخذ الكاثوليكية تحت رعايته، وقصصتم علينا مجموعة من تلك المعجزات التي وقعت غيراً على هذا الدين أيام المظالم الآلية؟ لم لا تُبعث هذه المعجزات مرة أخرى؟» وقد كانت هذه الاعتراضات في العصور السابقة تسبب الحيرة والارتباك للكهنة أنفسهم الذين كانوا يجهلون كذلك لم خضع المؤمنون وذلوا أمام الملحدين!! فلما تقادم زمن الفتح حلّت هذه الاعتراضات بأن المتأخرین من ملوك القوط وكهنتهم

وأشرافهم كانوا أئمة مجرمين، وأن القوارع التي قرعتهم لم تكن إلا عقاباً عادلاً من الله، وقد كان اعتبار النكبات قصاصاً عادلاً، من فلسفة الأقدمين — على العلوم واليهودية على الخصوص — ولقد تجلّى في أمثال سليمان سعادة الأبرار وشقاوة الفجار — في صورة مختلفة — ولما توالّت النكبات على يعقوب لم يكن أصحابه ليقلعوا عن اعتباره مجرماً، لو لأنّ برهن على طهارته وفضيلته، وكانت القرون الوسطى تطبق على التّعاشرة نفس هذه النّظرية؛ فكان انتصار المسلمين — على الخصوص — آية الغضب الإلهي، كما كانت انتصارات المسيحيين في رأي المسلمين، وكانت تردد هذه الجملة في إيطاليا كذلك؛ وهي: «إذا انتصر المسلمون بذلك لأنّ الله يريد عقابنا على خطايانا!» وكذلك كان يقال في إسبانيا. وفي سنة ٨١٢ أذاع ألفونس الثاني منشوراً بإملاء الكهنة قال فيه: «أيها الإله! إن القوط قد أهانوك بكمبيائهما فكانوا أهلاً لأن تمزقهم السيوف العربية». وفي سنة ٩٢٤ قال سنكودي نقار في منشوره بمناسبة إنشاء معبد البلد:

لقد كانت إسبانيا تحت سلطان المسيحيين، وكانت حصونها وقرابها مكتظة بالكنائس، وبذلك كان الدين المسيحي سائداً في كل مكان، ولكن أسلافنا تتابعت خطاياهم، وخرجوا على وصايا الإله، فلأجل أن يعاقبهم — على ما قدمت أيديهم — ويرجعهم إلى الصراط السوي رمامهم بهذا الشعب البربرى.

وقال «سبستيان» بدوره: « وإنما هلك الجيش القوطى لأن الملوك والكهنة تركوا شريعة الله ». وقال كاهن باشيلوس: « عاقب الله أسلافنا في هذه الحياة الدنيا حتى لا تكون هنالك حاجة إلى عقابهم في الحياة الأخرى ». كذلك نرى المؤرخين المتّحضررين من أهل الشمال قد اتهموا « وزيتا » ومعاصريه بأنّهم كانوا غلاظاً ملحدين؛ فأهان الكهنة برمود الثاني ومعاصريه — بسبب ذلك — وفي رواية كاهن بشيليوس أقدم المؤرخين الذين ينقلون عنه، أن « برمود » كان عاقلاً، رحيمًا، عادلاً، وأنه كان يعمل على فعل الخير واجتناب الشر، ولكنه كان سيء الحظ، فقد حدث في عهده — وقت أن كان على عرش ليون — أن وجّه المنصور إلى المسيحية أشد الضربات التي أصابتها منذ الهجوم العربي؛ فلم ينجُ شيء من سيف المسلمين، ولم تكن لترى حينذاك إلا مدائن مخربة، وأديرة خاوية، وكنائس مهدمة، بل لقد وصلت الحال إلى أن سقط سبستيبلو، وهيكل سان جان — رأساً على عقب — وهنا رجع السؤال: « لماذا تغلب المسلمين على المسيحية؟ » وأجاب الكهنة على سبق عادتهم: « ذاك عقاب على خطايانا، والمنصور هو مطرقة الغضب

الإلهي».١٢ على أنهم كانوا جديرين أن يبيّنوا لنا: أين كانت تلك الجرائم التي استوجبت هذه العقوبة الهائلة؟ وكيف تم ذلك رغم أن الإيمان بالخلود كان — في ذلك الزمن — أكثر منه في أي زمن آخر؟ ولكن لا غرابة في ذلك؛ فقد آل كتاب القرن الثاني عشر على أنفسهم أن يقوموا بهذا الواجب؛١٣ فمؤلف التاريخ القشتالي على الرغم من أنه من رجال الكنيسة ضحى — بلا رؤية — بالكهنة الذين ترأسوا كنيسة رمبوستيل في القرن العاشر، وأظهراهم بمظهر الفسقة المجرمين قساة القلوب.١٤ وعني فيلاخ أفيديو بشخص «برمود»، ألا ترى كيف أنه يبدأ كلامه بنشر صحفة طويلة من سيناته ومخازيه، فإذا انتهى منها وصل إلى هذه النتيجة فقال: « وإنما بسبب جرائم برمود وجرائم شعبه أن المنصور ... إلخ. وهكذا ببرروا عمل الألوهية التي سمحت للإسلام أن يكتسح المسيحية. ولما كانت الأفاصيص الشفوية قد لحقها كثير من التحرير في زمن سبستيان، ولم يكن قد اغترف إلا من ذلك المعين؛ فقد وجب أن تقابل كل معلوماته بالحذر المشروع.»

— ١.٥ —

هوما مش

- (١) فصل مختار من كتاب «نظارات في تاريخ الأدب الأندلسي»، وهو مجموعة محاضرات ألقاها المؤلف في الجامعة المصرية.
- (٢) اخترنا هذه النبذة من كلام الأستاذ «نيكلسون».
- (٣) هذا ما أورده ابن خلكان في الجزء الرابع «ص ٢٩»، وإليكم ما قاله المقرى في ذلك قال:

ومن الرحالين من الأندلس الفقيه المحدث، يحيى بن يحيى الليثي راوي الموطأ عن مالك رضي الله عنه، ويقال إن أصله من برابرة مصمودة، وحكي أنه لما ارتحل إلى مالك ولازمه، فبينما هو عنده في مجلسه مع جماعة من أصحابه، إذ قال قائل: «حضر الفيل!» فخرج أصحاب مالك كلهم ولم يخرج يحيى، فقال مالك: «ما لكَ لم تخرج وليس الفيل في بلادك؟» فقال: «إنما جئت من الأندلس لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك، ولم أكن لأنظر إلى الفيل!» فأعجب به مالك وقال: «هذا عاقل الأندلس!» ولذلك قيل: «إن يحيى هذا عاقل الأندلس، وعيسى بن دينار فقيهها، وعبد الملك بن حبيب عالمها، ويقال: روایها

ومحدثها». وتوفي يحيى بن يحيى سنة ٢٣٤هـ في رجب، وقبره يُستسقى به بقرطبة».

وقال المقرى:

وكان مع أمانته ودينه معظمًا عند الأمراء، يكنى عندهم عفيفًا عن الولايات منها جلت رتبته عن القضاة، وكان أعلى من القضاة قدرًا عند ولادة الأمر بالأندلس؛ لزهده في القضاة وامتناعه، قال الحافظ بن حزم: «مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنفية؛ فإنه لما ولّ القضاة أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل أفريقيا، فكان لا يولي إلا أصحابه والمتسبين لمذهبة. ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان، مقبول القول في القضاة، وكان لا يلوّن قاضٍ في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبة، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به. على أن يحيى لم يلّ قضاةً قط ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم، وداعياً إلى قبول رأيه لديهم. ١.هـ

(٤) المقدسي صفحة ١٤٤.

(٥) منقوله عن كتاب المعجب في أخبار المغرب، تأليف محيي الدين المراكشي صفحة ٩٥.

(٦) ومما قاله ابن سعيد في ذلك، في كتابه المسمى بالشهب الثاقبة في الإنفاق بين المشارقة والمغاربة، ونقله عنه المقرى، قوله:

وأما قواعد أهل الأندلس في دياناتهم فإنها تختلف بحسب الأوقات، والنظر إلى السلاطين، ولكن الأغلب عندهم إقامة الحدود، وإنكار التهاون بتعطيلها، وقيام العامة في ذلك، وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان، وقد يلتج السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره، فيدخلون عليه قصره المشيد، ولا يعبئون بخيله ورجله حتى يخرجوه من بلدتهم، وهذا كثير في أخبارهم، وأما الرجم بالحجارة للقضاة وللولاة للأعمال — إذا لم يعدلوا — فكل يوم. إلى أن قال: وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم؛ فإن لها حظاً

عظيماً عند خواصهم، ولا يتظاهرون بها خوف العامة، فإنه كلما قيل: «فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم!» أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيد عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة، أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن – إذا وجدت – وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن.

وقال:

وقراءة القرآن بالسبعين ورواية الحديث لها عندهم منزلة رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المباحث ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم.

(٧) قال صاحب نفح الطيب: «ولما استوزر «باديس» صاحب غرناطة، اليهودي الشهير بابن نغزلة، وأفضل داء المسلمين، قال زاهد ألبيرا وغرناطة «أبو إسحق الألبيري، قصيدة التونية المشهورة التي منها في إغراقه «صنهاجة» باليهود ... إلخ». وهي قصيدة طويلة، فثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفيهم الوزير المذكور، فأراح الله البلاد والعباد بركرة هذا الشيخ، الذي نور الحق على كلامه بادٍ.»

(٨) في هذا البيت شيء كثير من الركاكة في قوله: «بالألى من القادة الخيرة المتقيين»، ولكننا نغفرها لما في تأليبه من تتمة تلك الصورة الشعرية المنطقية البidue.

(٩) الهمزة للاستفهام، و«باديس» هو «باديس بن حبوس» صاحب غرناطة، وكانت بينه وبين المعتصد حروب شديدة، قال ابن خلدون: «ولي «باديس» ملك غرناطة بعد أبيه، واستولى على سلطانه إسماعيل بن نغزلة الذمي، ثم نکبه وقتله سنة تسعة وخمسين وأربعين، وقتل معه خلقاً من اليهود، وتوفي باديس سنة سبع وستين وأربعين».»

(١٠) يرى القارئ في هذا البيت أسلوبه الشيطاني في استفزاز العاطفة الدينية عن طريق التفجع على ما أصاب الدين من ضعف أدى بذلك اليهودي إلى السخرية منه!

(١١) فصل آخر من كتاب نظارات في تاريخ الأدب الأندلسي للمؤلف، وهذا الفصل

متّرجم عن كتاب دوزي *Recherches sur les Musulmans & Liti, d'Espagne* ومن هذا الفصل يتبيّن القارئ حال المسيحيين في إسبانيا – بعد الفتح الإسلامي –

وكيف تسرب الإيمان إلى الكثرين، ومنهم الذين أسماهم نيكلسون بالصابئة أو المولدين، وكان لهم أكبر أثر في الدين الإسلامي، وعاشوا كموالٍ في كنف أشراف العرب، ووصل تمسكهم بالإسلام إلى حد عظيم جدًا، ولقد يضطرنا إلى الاكتفاء بهذه الكلمة دون تعليق بعض ما جاء فيها من النقط الهامة رغبتنا في الإيجاز الشديد.

بعض ما جاء فيها من النقط الهامة رغبتنا في الإيجاز الشديد. (١٢)
 «المنصور مطرقة الغضب Awnozral a élè le fleau de la colere celeste»
 «الإلهي» هكذا كانوا يسمونه، ولهم الحق في ذلك، فلقد بلغ به حبه الشديد للغزو أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد، فحدثت له نية في ذلك، فلا يرجع إلى قصره، بل يخرج — بعد انصرافه من المصلى — كما هو من فوره إلى الجهاد فتتبعه عساكره، وتتحقق به أولاً فأولاً؛ فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم إلا وقد لحقه من أراده من العساكر، وقد غزا في أيام مملكته نيفاً وخمسين غزوة، وفتح فتوحاً كثيرة، ووصل إلى معاقل امتنعت على من كان قبله، وملأ الأندلس غنائم وسبباً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم، وفي أيامه تغali الناس في الأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلي؛ وذلك لرخص أثمان بنات الروم، حتى نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة — وكانت ذات جمال رائع — فلم تساوي أكثر من عشرين ديناراً!
 وكان في أكثر زمانه لا يخلُ بأن يغزو غزوتين في السنة. ١.هـ ملخصاً عن كتاب المعجب.

(١٣) وهو اتهام كل من أصابته نكبة بالعصيان؛ ليسهل عليهم تعليل ذلك.

(١٤) فعل هذا ليتوصل به إلى إثبات أن سقوطهم كان عقاباً عادلاً من الله.